الجمهورية الجزائرية الدنمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر كلية الآداب والحضارة الإسلامية

للعلوم الإسلامية قسنطينة قسم اللغة العربية

الرقم الترتيبي:.....

العنوان:

البناء السلوكي للنصوص القرآنية بين العدوانية والمسالمة

دراسة لسانية

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة العربية

شعبة اللغة العربية والدراسات القرآنية

إعداد الطالب إشراف

عبد الغاني بن شعبان أ.د رابح دوب

لجنة المناقشة

أ.د سامي الكناني	جامعة الأمير عبد القادر	رئيسا
أ.د رابح دوب	جامعة الأمير عبد القادر	مشرفا ومقررا
أ.د عبد الكريم قريشي	جامعة ورقلة	عضوا
د رزيقة طاوطاو	جامعة أم البواقي	عضوا
د صالح غريبي	جامعة تبسة	عضوا

السنة الجامعية 1432/1433هـ 2011/2012م

مقدّمة

الحمد لله نحمده ونستغفره ونستعين به ونتوب إليه، من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له من دون الله وليا مرشدا. والصلاة والسلام على سيّدنا محمد المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.. أمّا بعد.

لقد أنعم الله علينا بنعمة الإسلام وجعل خير زادنا هذه النعمة قرآنا عربيا مبينا لن يخيب كلّ من عمل به فهو مصدر الهداية الحقّة ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[1]. وذلك ما أكّد عليه سيّد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام في خطبة حجّة الوداع وفي آخر توصياته للناس عامة بالقول: «**يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنة نبيه**»[2]. فهذا تأكيد واضح على عظمة القرآن الكريم، وعلى أنه سبيل من سبل النجاح المضمونة لكلّ من اتبعه. وعملا بهذه التوصية كان رجوعنا إلى القرآن الكريم للبحث عن حلول لمشكلات البشرية التي تتشابه وتتكرّر. فالقرآن يحتوي على كلّ العلوم وفيه من كلّ أمر مثل وذلك ما ذُكر في ثلاث آيات من سورة الحشر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[3]. وفي قوله:

---

[1] الإسراء الآية9.

[2] السنن الكبرى أبو بكر البيهقي دار الفكر ج15 ص90.

[3] الحشر الآية27.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ .[1] **وفي**: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ .[2] **فهذه هي قمّة الإعجاز وقوّة القدرة على التصوير والتمثيل لكلّ شيء. ذلك الإعجاز يدفعنا إلى الرجوع إليه لاستخراج العبر والمثُلِ والأحكام منه.**

ومن هذا المنطلق فقد يسّر الله لي أن أتخصّص في دراستي العليا في مرحلة الماجستير بموضوع بحث كان الغرض منه تحليل أسماء الله الحسنى وأفعاله من خلال ما جاء من أسماء في سورة الحشر. وقد لفت انتباهي مع سير عملية البحث تلك الاختلافات التي ظهرت في تفسير أسماء الله الحسنى، اختلافات أدّت بأصحابها إلى تبادل التهم، ووصل بهم الحد ـبكلامهمـ إلى تكفير بعضهم البعض واتهام بعضهم البعض بالضلال، ومن ثمّة خلق جو من العداوة فيما بينهم. فجاء التفكير بأن يكون اختلاف الناس والاعتداء على بعضهم البعض وردّة أفعالهم بين عدوانية ومسالمة فيما بينهم، موضوعا للبحث من خلال الحالات التي صوّرها القرآن الكريم في هذا المجال. وقد زاد من قناعتي بدراسة مثل هذا الموضوع ما شهدته البشرية في الآونة الأخيرة من اعتداءات على المعتقدات، خاصة تلك المتعلّقة بالصوّر الكاريكاتورية المتحرّشة بالإسلام والمسلمين. وأقصاها كلمة البابا بنيديكت السادس عشر بابا

[1] الحشر54.

[2] الحشر58.

الفاتيكان وأعلى شخصية ممثلة للديانة المسيحية في محاضرة مثيرة للجدل حول مفهوم الجهاد المقدس في الإسلام.[1]

وبعد توفيق الله عزّ وجلّ، ثمّ استشارة أستاذي الأستاذ الدكتور رابح دوب ـفي استمرارية الإشراف بعد أن كان قد أشرف على رسالة الماجستيرـ تمّ تسجيله في هذه الكليّة المباركة.

وقد كانت أولى الخطوات مع هذا الموضوع، في مرحلة الماجستير، من خلال ما اطلعت عليه من دراسات وأبحاث أقيمت حول القرآن الكريم، فوجدت مادة لا بأس بها خاصة من تفاسير وكتب علوم القرآن، تدرس طبيعة الألفاظ والتراكيب والأساليب التي تخدم موضوع البحث. وقد وردت كلّ هذه الملامح اللغوية في إطار القصص القرآني وتفاعل الشخصيات فيه.

أمّا أبرز الدوافع والأسباب لاختيار هذا الموضوع فهي:

أوّلا: أهمية الموضوع حيث أنه يدرس بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، وذلك من زاوية مهمة لم تنل حقّها من الدراسة والبحث، وهي المستوى اللّفظي والتركيبي والأسلوبي ودوره في إبراز وتحديد الجانب المسالم والجانب العدواني في حوارات شخصيات قصص القرآن.

ثانيا: هذا البحث هو مزاوجة تقريبية بين علم النفس أو بالأحرى البحث السلوكي من جهة، وبين بلاغة القرآن الكريم ـوهي الأهم في هذا البحثـ من جهة أخرى.

[1] المحاضرة منقولة عبر عديد المواقع الإلكترونية كموقع (أنا المسلم). وكموقع (إسلام أون لاين) بتاريخ 2006/09/15

ثالثا: عدم وجود مؤلّفات وكتابات سابقة تجمع بين مؤلّفات هذا التوجّه، وهذا ما أردت القيام به من خلال جمع المادة العلمية الموجودة والتي تعبّر عن وجهات نظر كلّ من ناقش هذا الموضوع، وكانت أغلب الآراء في باب محاولة تفسير القرآن الكريم من طرف غالبية المفسّرين مع مزاوجتها بما وصلت إليه الدراسات اللغوية الحالية والدراسات السلوكية الحديثة.

رابعا: تعدّد وتميّز المادة البلاغية في مناقشات العلماء للألفاظ والتراكيب والأساليب التي تشير إلى موضوع البحث والتي جاءت متفرّقة في مجموعة من كتب التفسير وكتب علوم القرآن. وفي بعض الأحيان يشوب هذه المناقشات نوع من السطحية خاصّة في باب الإجابة عن السؤال "لماذا" برغم القدر الهائل من المسائل البلاغية الموجودة.

خامسا: تتجلّى في هذا البحث صور البلاغة التحليلية بشتى مستوياتها في تزاوج واضح مع الدراسة النحوية، خاصة عند دراسة التراكيب.

وهذه هي أبرز الدوافع والأسباب لاختيار هذا الموضوع.

وقد رأيت أن يكون في أربعة فصول، بعد أن استفتحت له بمقدّمة ومدخل جعلته تمهيدا لموضوع البحث بالحديث عن أهم المصطلحات المتعلّقة بهذا الموضوع وسمته بـــ"الماهية النسبية لسلوك الإنسان" ذلك لما لمسته من نسبية لغوية في تحديد مفهوم المصطلحات التي يدور حولها البحث.

الفصل الأول: وجاء للحديث عن تحوّل سلوك الإنسان من الفطرة إلى العدوانية، مع التركيز فيه على المراحل التي يمرّ بها الإنسان في ظلّ

تكوّن شخصيته والتغيّرات التي تطرأ على سلوكه. وكيف صوّر القرآن الكريم هذه التطوّرات من خلال الألفاظ والتراكيب التي تركّز على تحوّلات سلوك الإنسان انطلاقا من هيئة الفطرة مصطلحا ذكره القرآن الكريم في مواضع متعدّدة وبدلالات كثيرة. وتحوّل هذه الهيئة بمؤثّرات مترابطة ومتصلة.

الفصل الثاني: وهو الفصل الذي يُبْتَدَئ فيه رصد مظاهر السلوك العدواني والمسالم من خلال ما جاء من ألفاظ وتراكيب وأساليب بلاغية لها علاقة بالمسالمة والعدوانية بما كان يصدر من سلوك لفظي صادر عن شخصيات القصص القرآني التي صوّرها القرآن الكريم في المرحلة الأولى من تاريخ البشرية. والشيء المميّز لهذه المرحلة أنّ الخطاب فيها كان موجّها للأقوام وتضمّ هذه المرحلة عددا من الأنبياء انطلاقا من آدم عليه السلام وصولا إلى إبراهيم عليه السلام.

الفصل الثالث: فصل يتمّ التطرّق فيه لطبيعة الأساليب البلاغية التي اعتمدها شخصيات القصص القرآني في حركيتها المتفاعلة في المرحلة الثانية من تاريخ البشرية التي تطوّرت وارتقت إلى مرحلة أخرى هي مرحلة الأمم. وكان موضوع الاهتمام فيها قائما على إصلاح أمور أمّة بعينها وهم بنو إسرائيل كنموذج شامل للبشرية في باب إصلاحها. والشخصيات المسالمة لهذه المرحلة أنبياؤها وهم يوسف عليه السلام ثمّ موسى عليه السلام وبعده عيسى عليه السلام. وقد ظهرت مفاهيم جديدة مضافة إلى المفاهيم التي شهدها المرحلة الأولى.

الفصل الرابع: وهو الفصل الذي يخصّ بالدراسة المرحلة الخاتمة والتي ابتدأت مع سيّد الخلق سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام والميزة العامة لهذه المرحلة أنّ طبيعة الألفاظ والتراكيب اللغوية فيها تميّزت بالشمولية كما أن إطار الإصلاح فيها كان بلفظ العموم.

هذا وقد اتبعت منهجا إحصائيا تاريخيا من خلال تتبع قصص القرآن تسلسليا انطلاقا من وجود الإنسان في هذا الكون مرورا بعدد من الأنبياء ووصولا عند الرسول محمد عليه الصلاة والسلام مع ملاحظة التحوّلات التي تطرأ على الأساليب البلاغية والفكرية مع تطوّر البشرية. وكان الغرض من وراء إتباع هذا المنهج هو محاولة:

دراسة ملامح عدوانية بعض شخصيات القصص القرآني وإظهار طرق مواجهتها بحسب كلّ وضعية صوّرها القرآن الكريم من خلال عملية إحصائية للسلوك اللفظي.

إعطاء الألفاظ والتراكيب والأساليب البلاغية بعدا لغويا سلوكيا. حيث أنه هنالك من الألفاظ والتراكيب ما أقترن مفهومه مباشرة بالعدوانية كالقتل والحرق.. ولكن يمكن استعمالهما في سياقات أخرى قد تدلّ على المسالمة. والعكس صحيح مع كلمة النصح، والتي تشير مبدئيا إلى المسالمة لكن لمسنا استعمالها في باب عدواني مثلما سنلاحظ ذلك في الفصل الثاني في اعتداء الشيطان على آدم عليه السلام.

إظهار طريقة البحث البلاغي في هذا الموضوع وكان أغلبه في كتب التفسير وفي كتب علوم القرآن.

وبعد فإني أتقدّم بالشكر لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، وأخص بالشكر كليّة الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

كما يسرّني أن أتقدّم بالشكر لأستاذي؛ الأستاذ الدكتور رابح دوب على ما بذله من جهد كبير في توجيهه لي واستدراكاته التي كان لها أعظم الأثر في بناء هذا البحث فقد تعلّمت منه كيفيات البحث وطرق القراءة.

كما لا يفوتني أن أشكر الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة على تفضّلهم بقبول قراءة الرسالة وتقويمهم وتقييمهم لها وإصلاح عيوبها وإسداء النصح لكاتبها.

وإني لا أنسى أن أشكر كلّ من ساعدني على إتمام هذه الرسالة، ولو بالرعاية والدعوات الصادقة التي كان لها أثر عظيم في نفسي وفي إنجاز هذا البحث.

والشكر موصول كذلك لكلّ من أفادني بنصحه وعلمه من أساتذة كرام وزملاء فضلاء.

ولم يبقى إلاّ القول بأنّ هذا الجهد المتواضع هو من صنيع بشري، ومن ثمّة فهو عرضة للخطأ. فبتوفيق من الله إن كان فيه صواب، ومن نفسي ومن الشيطان لما كان فيه من زلل وخطأ.

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الأمين.

الباحث

2011/09/08

مدخل

الماهية النسبية لسلوك الإنسان

لقد خلق الله الإنسان بتركيبة فسيولوجية كيميائية معقّدة، وبتفوّق عقلي عملي وبطابع تنافسي اكتسابي، فكان بذلك دائم الحركة، فتجده مندفعا في أي فترة زمنية من تاريخه، متصارعا لتحقيق وجوده وبقائه، ساعيا إلى الحفاظ على آرائه ومعتقداته التي يظنّها الأصلح لضمان مسيرة حياته، والأقوى لتشييد ثقافته على أسس صلبة متينة، تجعله واضح وثابت الهوية ولو تغاير المكان والزمان، وهذا ما يصنع سموه ورقيّه، فيكون ذلك دافعا له للبحث والعمل باستمرار للحصول على أحسن ظروف العيش وأكمل المسبّبات ليصل إلى أفضل مستويات الحياة وأعلاها، والتي تجعله أكثر إقبالا على المبادئ السامية كالحب والإيمان والإبداع. ومن ثمّة فتوجّهاته وطموحاته وأمانيه هي في اقتران دائم بتلبية حاجياته ومطالبه النفسية والبدنية المختلفة، وإشباع رغباته المتعددة. لكن لكي يحقق الإنسان كلّ ذلك يجب عليه أن يكون على الأقلّ متمتّعا بصفتين هامتين، كانتا محور نقاش فلسفي جدلي قديم ومستمر إلى يومنا، وسيتواصل في المستقبل الدنيوي، هما الحرية والكرامة،[1] صفتان ينتابهما لبس كبير في تحديد مفهومهما، وذلك للنسبية المتزايدة التي تشوب تعريفيهما. ومن هذا المنطلق بالذّات، أي في حدود الحرية والكرامة، تبدأ ملامح الاختلاف والرّفض بالظهور، فقد يوجد من تشكّل له حرية الآخرين بآرائهم ومعتقداتهم وممتلكاتهم تقييدا

[1] تحدّث عن هذين المفهومين أي الحرية والكرامة رائد مدرسة التحليل السلوكي "سكينر" وجعلهما محور سلوك الإنسان وذلك في كتابه تكنولوجيا السلوك الإنساني (عالم المعرفة العدد 32) ترجمة: عبد القادر يوسف المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1980. كما ينظر كذلك في ما يتعلّق بدراسة هذين المفهومين وعلاقتهما بسلوك الإنسان والأخلاق: كتاب الفكر الأخلاقي المعاصر جاكلين روس ترجمة: د. عادل العوا دار عويدات للنشر والطباعة بيروت 2001م ط1.

وتحديدا لحريته، وتعدّيا على كرامته وحريّاته، وهو ما ينبئ غالبا بتجلّي مفهوم آخر هو التّعدّي، وهذا عندما يحاول الإنسان الدّفاع عن ممتلكاته المادية والمعنوية. والغريب في الأمر أنّ مفهوم العدوانية إذا ما وضع في مقارنة مع نظيره أو مع ما هو عكسي له أي المسالمة، يخلق نوعا من الحيرة في التفرقة بينهما أو وضع حدود فاصلة لهما، فالذي يوصف بهذا هنا يمكن أن ينعكس وصفه في الجهة المقابلة؛ أي بين المعتدي والمعتدى عليه، فحدود حريّة الإنسان تبقى نسبية وغير واضحة المعالم ومحيّرة، لأنّه يعيش حياة اجتماعية معقّدة ومتشعّبة إلى أقصى حدودها، فعملية التفاعل الحركي بالنسبة للإنسان هي دائما ذات طابع متعدد ومتباين وتتصف بالمرونة والغنى والكثرة والاختلاف، لذلك ممكن أن يتجاوز المرء مجال حرّياته دون شعور وقصد أو بقصد منه ليضيّق على حرية الآخرين، وهو ما ينبئ بظهور ردّة فعل، قد تنتهي في غالب الأحيان إلى استعمال القوّة والعنف بمختلف أشكاله من لفظي وجسدي لحلّ ما ظهر من إشكال، لذلك قد تختلط الأمور عند محاولة تصنيف ردود الفعل هذه حيث يمكن أن توضع في باب الاعتداء والأمر ليس كذلك فليس كلّ ردّة فعل لفظية أو جسدية فيها قوّة وتعنيف تصنّف في باب العدوان؛ بل هنالك ما له أبعاد أخرى كالدفاع عن النفس أو الدفاع عن التوجّه الفكري والعقائدي، وقد انعكس ذلك على الأساليب التي يفكّر ويعبّر بها الإنسان وذلك ما وضّحه لنا النصّ القرآني من خلال ألفاظه وتراكيبه.

وقبل البدء في رصد ملامح السلوك بين المسالمة والعدوانية، وكل ما يدور حولهما من مفاهيم من خلال ما صدر عن شخصيات القصص القرآني، وجب أوّلا توضيح بعض المفاهيم المتعلّقة بموضوع البحث، ولّما كان الهدف الأوّل هو دراسة جانب من سلوك الإنسان اللفظي، ظهرت ضرورة الإشارة في بادئ الأمر إلى بعض الملامح العامة التي تميّز هذا الكائن الحي وسلوكه، هذا الكائن الحي الذي اصطفاه الله سبحانه وتعالى لتكون له الخلافة في هذه الأرض، وذلك واضح في قوله تعالى بعد خلق آدم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ .[1] فهذا توكيد واضح على تصيير الخلافة للإنسان. وقد أكّد على ملامح تلك الخلافة في خطاب موجّه للبشرية جمعاء بعد آدم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ .[2] وكما هو ملاحظ فقد تكرّر الفعل "جعل" في الآيتين وهو من أفعال التحويل والتصيير.[3] فالله هو الذي صيّر الإنسان خليفة على هذه الأرض. فكيف هي حال الإنسان في ظلّ هذه الخلافة بحسب ما صوره قصص القرآن الكريم؟

وبعد الحديث عن الإنسان يأتي التركيز على الصفتين الملازمتين لسلوكه وهما المسالمة والعدوانية كمحورين رئيسين في موضوع البحث، فالتركيز سيكون على طريقة بناء السلوك، من خلال الأساليب المتعدّدة التي استعملها القرآن

---

[1] البقرة الآية30.

[2] فاطر الآية 39.

[3] ينظر معاني النحو د. فاضل صالح السامرّائي شركة العاتك القاهرة الطبعة الثانية 1423هـ 2003م ج2 ص26.

الكريم، ومن خلال تفاعل الشخصيات في قصصه، وذلك بدراسة الأساليب البلاغية المختلفة كالقسم والتوكيد والاستفهام، ودورها في إظهار المسالمة والعدوانية. فالقسم يمكن أن يستعمله صاحبه لإظهار سلوكه العدواني المبطّن، ويمكن أن يستعمل لغرض مسالم فيه دلائل على حبّ البشرية والعمل على صلاحها، وذلك ما سنعمل على إظهاره في هذا البحث. كما أنّ مجال البحث لا يركّز على الأساليب والتراكيب فقط بل يدرس الجانب اللّفظي؛ حيث أنّ بعض الألفاظ يمكن أن يلتصق مفهومها مباشرة بالسلوك العدواني كالقتل والحرق والتحطيم وغيرهما، لكن من خلال وجودها وتفاعلها في سياق لغوي معين نلاحظ بأنّها تدلّ على أغراض مسالمة بحته. وذلك ما ستأتي الإشارة إليه في الفصول الخاصّة بتحليل السلوك في قصص القرآن الكريم.

1. الإنســـــان:

محاولة معرفة الإنسان لماهيته ومنطلقات سلوكه، أدّت به إلى دخول حقل بحث من أكثر الحقول غموضا وأصعبها في عملية الإدراك البشري، حقل لطالما درسه اللاّهوتيون منذ القدم بتصوّفهم وزهدهم ونظرتهم الفلسفية التي توصف بالميتافيزيقية وبجدالهم الوصفي الظاهراتي، تلك النظرة التي تعتمد على القياس المنطقي الاستنباطي. فكانوا في غالب الأحيان يفسّرون سلوك الإنسان بإرجاعه إلى مظاهر طبيعية أو فوق طبيعية كالاعتقاد مثلا بأنّ الروح هي مصدر كلّ سلوك، وبأنّ مواقع القمر والكواكب تتحكم في سلوكه، أو بأنّ سلوك النّاس

يرجع إلى الفصل الذي ولدوا فيه.[1] ثمّ دخل ميدان البحث فيه بعدهم الذين يرون بأنّ نظرتهم تتسم بالمعرفية، بعلميتهم وتجريبهم وملاحظاتهم وافتراضاتهم واستقرائهم للأمور ودقّتهم في تحصيل النتائج.[2] ولكن النتيجة بقت نسبية بل وغامضة وبدت الاختلافات واضحة على وجهات نظرهم. ولم تقدّم لنا بذلك لا الفلسفة ولا العلم إجابات تشبع رغبة المتسائل عن ماهية سلوك الإنسان، والسبب راجع إلى كون الإنسان متغيّرا بتغيّر عاملي الزمن والمكان، وسلوكه كذلك، فجاءت نتائج البحث في مفهومه مختلفة متعدّدة ومتغايرة. إنّه بكلّ اختصار ذلك العالم الصغير.*

والنسبية لا تختصّ بما وصل إليه مجال البحث العلمي فقط، بل هي أكثر تجسّدا في المعنى اللّغوي لكلمة "إنسان"، فإذا ما رجعنا إلى أصلها من النّاحية اللّغوية، فهي مشتقّة متصرّفة عن الأصل اللغوي "إنس" ومعناه بحسب الراغب "خِلافُ الجنِّ، والإِنْسُ خِلافُ النُّفُورِ، وَالإِنْسِيُّ مَنْسُوبٌ إلى الإِنسِ، يُقال ذلك لَمَنْ كَثُرَ أنْسُهُ ولِكلِّ مَا يُؤْنَسُ به ولهذا قِيلَ: إِنْسِيُّ الدَّابَّةِ للجَانِبِ الذِي يَلِي الرَّاكِبَ وإِنْسِيُّ الْقَوْسِ للجانِبِ الذي يُقْبِلُ عَلَى الرامِي. وَالإِنْسِيُّ مِنْ كلِّ شيءٍ مَا

---

[1] ينظر فيما يخص نظرة الفلاسفة وعلماء الدين للإنسان وسلوكه–**Science et comportement humain**. **B.F.Skiner–2 e édition–édition in press–2008**/وينظر كذلك السلوك الإنساني د. انتصار يونس دار المعارف **1993**. وينظر الإنسان ذلك الكائن الفريد جون لويس ترجمة د. جواد صالح الكاظم الهيئة المصرية للكتاب **1982** ص8.

[2] والدليل على ذلك النظريات المتعدّدة التي تناقش أسباب ودوافع السلوك الإنساني كالنظرية المعرفية أو مبدأ اللذّة أو الغريزية.

* ينظر فيما يخص هذه التسمية كتاب الحيوان للجاحظ فصل تسمية الإنسان بالعالم الصغير.

يَلِي الإِنسانَ والوَحْشِيُّ مَا يلي الجانِبَ الآخَرَ له.. والإِنسَان ُقِيلَ سُمِّيَ بذلكَ لأنهُ خُلِقَ خِلْقةً لا قِوَامَ له إلاَّ بإِنسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ولهذا قيلَ الإِنسانُ مدَنيٌّ بالطّبْعِ مِنْ حيثُ لا قِوَامَ لبَعْضِهِمْ إلاَّ بِبَعْضٍ ولا يُمْكِنُهُ أنْ يقومَ بجميعِ أَسْبَابِه، وَقِيلَ سُمِّيَ بذلِكَ لأنه يأْنسُ بكُلّ ِمَا يَأْلَفُهُ.."[1]وهذا دليل لغوي على تميّز الإنسان بحبّه للمخالطة والاقتراب والمعاشرة. وقد تمّ بناء كلمة "إنسان" على الصيغة الصرفية "فِعْلان" [2] وهي صيغة تشير في غالب استعمالاتها إلى المثنّى، وذلك انطلاقا من قياسها على كلمات أخرى في اللغة العربية كـ(جنس جنسان/ اسم اسمان/ جسم جسمان/ علم علمان).

وقد أسهب صاحب كتاب بصائر ذوي التمييز في شرح مفهوم كلمة "إنسان" على مستويات عدّة فمثلا على مستوى الصياغات المختلفة فإنّ جمع الكلمة "من حيث اللفظ أناسين، كسرحان وسراحين.

غير أنّ الجمع الأصلي غير مستعمل. وجمعه المعروف ناس وأناس وأنس وآنُس، والإنس جمع جنس. وفي الأناسي خلاف؛ فقيل جمع إنسي ككرسي وكراسي. وقيل الإنس جمع إنسي، وقيل الأناسي جمع إنسان وأصله أناسين،

[1] مفردات في غريب القرآن الراغب الأصفهاني البابي الحلبي مصر مادة "إنس" ج1 ص28.

[2] هذه الصيغة الصرفية من أكثر الصيغ العملية التي يدور استعمالها في كثير من أبواب النحو والصرف والتي لها دلالات عدّة وقد أسهب الدكتور مصطفى أحمد النماس في شرح دلالات هذه الصيغة الصرفية في مقال له موسوم بـ: صيغة فعلان واستعمالاتها في اللغة العربية فهي تأتي مصدرا وعلَما وصفة.

حذفوا نونه وعوّضوا عنه ياء، اجتمع ياءان فأدغموا فصار: أناسي؛ والناس تخفيف الأناس حذفوا الهمزة طلبا للخفّة والأنسين أيضا بمعنى الإنسان".[1]

كما أورد صاحب بصائر ذوي التمييز مجموعة من الآراء المناقشة لدلالة كلمة "إنسان" منها أنّه "سمّي به لأنّه يأنس ويُؤنس به. وقيل: للإنسان أنسان: أنس بالحق وأنس بالخلق. فروحه تأنس بالحق، وجسمه يأنس بالخلق. وقيل: لأنّ له أُنسا بالعقبى، وأنسا بالدنيا.

ويقال إنّ اشتقاق الإنسان من الإيناس وهو الإبصار والعلم والإحساس لوقوفه على الأشياء بطريق العلم، ووصوله إليها بواسطة الرؤية. وإدراكه لها بوسيلة الحواس. وقيل: اشتقاقه من النوس بمعنى التحرّك؛ سمّي لتحرّكه في الأمور العظام. وتصرّفه في الأحوال المختلفة.. وقيل أصل الناس الناسي. الإنسان عرضة النسيان، وجلسة النسوان.."[2] فهذا دليل على أنّه لا توجد هنالك دلالة واضحة ومحدّدة لأصل كلمة "إنسان" فهي بين الأُنس والحركية والنسيان وهي مفاهيم متباعدة كلّ البعد عن بعضها البعض وهذا ما يجعل التعريف يشوبه نوع من النسبية اللغوية إن صحّ التعبير.

وهذه النسبية التي تشوب الطبيعة اللّغوية للفظ "إنسان" أكّدتها الدراسات والأبحاث التي أقيمت حوله، فالتساؤل حول ماهيته قديم قدم وجوده

---

[1] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي تحقيق: محمد علي النجار المكتبة العلمية بيروت لبنان ج2 ص31.

[2] بصائر ذوي التمييز ج2 ص32.

على هذه الأرض، فقدّمت بخصوصه أوصاف متعدّدة، فكان في بداية الأمر يوضع في مقارنة مع الملائكة لأنّهم لمسوا في سلوكه شيئا من المثالية التي تبتعد عن الوحشية، ولمسوا فيه كذلك قوّة التحكّم في الأمور وقدرته على التعامل مع ما حوله في هذا الكون، بإيجاده الحلول لأغلب الأمور المستعصية على باقي مخلوقات هذا الوجود، ونجد كمثال على تلك المثالية، ذلك الوصف الذي ينسب إلى النبي داوود عليه السّلام حيث قيل أنّه تساءل في أحد المرّات عن ماهية الإنسان وسلوكه، ليجيب بأنّه أدنى قليلا من الملائكة وأنّه متوّج بالمجد والشرف. ثم أدخل مفهوم جديد في باب المقارنة وذلك لأنّ سلوك الإنسان كان في بعض الأحيان بعيدا كلّ البعد عن مثالية الملائكة، بل فيه من الوحشية ما يقرّبه أو ينزل به إلى الطبيعة والسلوك الحيواني، فجعلت له مرتبة متوسّطة بين الحيوانية والملائكية فقيل بأنّه يتراوح بينهما. ومع مرور الزمن وتطوّر سبل البحث ووسائله عند البشرية، بحيث أصبح الحيوان المادة الأولى المستعملة لإجراء عديد التجارب التي كان الهدف الرئيس منها هو الحصول على معلومات يتمّ إسقاطها على الإنسان وسلوكه، لخدمة وجوده، فتوصّلوا انطلاقا من ذلك إلى القول بأنّه أرقى قليلا من الحيوان، ومن ثمّة ظهرت ضرورة معرفة درجة رقيّه على الحيوان، فوجدوا بأنّ الفارق بينهما يكمن في امتلاك الإنسان لعقل يفكّر به، فهو الوحيد الذي يفكر في طبيعته، وله رغبة كبيرة بطبعه في المعرفة، وهو بتفكيره هذا قادر على استعمال الأدوات، بل قادر على صنعها، وهو شيء يمكن إضافته إلى ما هو مزوّد به من بنية مورفولوجية معتدلة مختلفة عن تلك التي يمتلكها الحيوان، فأطلقت عليه بذلك صفة

العاقل المفكّر الصانع المخترع. ثمّ لوحظ بعد كلّ هذا بأنّ الاختلاف ليس بين الإنسان والحيوان فقط، بل الفوارق موجودة على مستوى الإنسان في حدّ ذاته، ذلك أنّ القدرات والكفاءات متفاوتة من فرد لآخر، والسلوك يختلف كذلك من فرد لآخر. فقالوا بأنّ الفرق يكمن في الحكمة التي يعالج بها كلّ واحد أموره وقضاياه، والمهارات التي يستعملها لتسيير أعماله، فوصف بالحكيم الماهر. ثمّ تعدّدت الرّؤى إلى درجة الوصول إلى معرفة علاقة الفرد بالطبيعة والبيئة التي ينتمي إليها، فظهر الرأي القائل بأنّ الإنسان كائن ينفعل بالكثير من النزعات.[1] والبحث لا يزال قائما ومستجدّاته متواصلة ومتتابعة وذلك لتجّدد حياة الإنسان وتنوّعها.

لقد قدّم لنا العلم الذي توصف حقائقه ببلوغها الدرجة العالية من الصدق عن طريق إتباعه للمنهج الاستقرائي[2] مجموعة من الخواص والسمات التي تجعل من الإنسان بحقّ ذلك الكائن المتفرّد، متفرّد على مستويات عدّة عقليا وجسديا واجتماعيا وسلوكيا، وجعله تفرّده هذا يتعامل مع كلّ قضاياه بعقلانية

1ينظر فيما يخصّ هذه المعلومات مجموعة من الكتب ككتاب بنو الإنسان (عالم المعرفة العدد 67) بيتر فارب ترجمة: زهير الكرمي المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1983 ص7و44. كتاب الشخصية مقوّماتها سلوكها وعلاقتها بالتعلّم د. توما جورج خوري المؤسسة الجامعية للدّراسات والنشر والتوزيع بيروت 1996م1417هـ ط1 ص89. وينظر كتاب: تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق إيمانويل كانط ترجمة: د. عبد الغفّار مكاوي الهيئة المصرية العامة للكتاب ط2 ص9و17. وكتاب: الإنسان ذلك المعلوم د. عادل العوّا منشورات عويدات بيروت 1982م ط2 ص5. وكتاب: الإنسان ذلك الكائن الفريد جون لويس ترجمة: د. جواد صالح الكاظم الهيئة المصرية للكتاب 1982 ص12.

[2] ينظر السلوك الإنساني د. انتصار يونس دار المعارف 1992م ص24.

تضبطها الأخلاق في بعض الأحيان لأنّه يمكن أن تؤدي به في حالات عديدة إلى تدمير نفسه.

ومن أحسن الأشياء التي يمتلكها الإنسان، والتي تصنع تميّزه بحقّ، ذلك العقل القادر على صنع المعجزات، ذلك العقل الذي من أفعاله الأولى في الإنسان، هو أنّه جعله واعيا بنفسه مدركا لها داخل هذه المنظومة الكونية، حيث أنّه الكائن الوحيد في هذا الكون الذي يفكّر في طبيعته دون سائر المخلوقات، بل هو الكائن الوحيد الذي يفكّر في كلّ شيء يحيط به، أضف إلى ذلك فالإنسان لا يكتفي بالتفكير فقط، بل يعمل على إشاعة المعارف التي أدركها، وهي خاصية أخرى من خصائص قدراته العقلية والمتمثّلة في قدرته اللاّمتناهية على الترميز والتصوير والتفكير الخلاّق والابتكار وإبداع الثقافة، مع نقل الأفكار وتبادلها عن طريق اللغة، وهي سمة زوّده بها الله سبحانه وتعالى﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.[1] فهذا كما قال الزمخشري كر لما "تميز به من سائر الحيوان من البيان، وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير".[2] ويساعده على ذلك سرعته العالية في التعلّم، وذكائه الحاد القادر به عند تفعيله على صنع الأشياء واستخدامها. كما أنّ عقل الإنسان لا يكتفي بالتفكير في لحظة زمنية آنية أو حاضرة بل هو قادر على تجاوز الحدود المكانية والزمنية، حيث أنّه يتسلّم المثيرات الحسيّة في أمكنة متعدّدة وأزمنة

[1] الرحمن الآية 4.

[2] الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض مكتبة العبيكان الرياض الطبعة الأولى 1418هـ 1998م ج6.

مختلفة، فيحللها ويعمل على تخزينها والاحتفاظ بها، ليعيد تركيبها كلّما اقتضى الأمر ذلك، ليشكّل بها ترابطات فيما بينها فيكوّن بذلك كمّا هائلا من المعلومات والمعارف، ذلك لأنّه يمتلك ذاكرة متفوّقة عمليا قادرة على التخزين والاسترجاع، وفكرا تصوّريا، وبعد نظر يساعده على التعامل مع حاضره وما هو مستقبل من الأمور باستغلال تجاربه الماضية في حياته.

أمّا من الناحية الجسدية فالملاحظة الأولى تخصّ تصرّفاته وسلوكه، حيث أنّه لا يلتزم بسلوك واحد يداوم عليه، بل يغيّره بحسب غاياته وأهدافه، فسلوكه متغيّر بتغيّر البيئات التي يوضع فيها فهو كائن دائم الحركة، وحركته هذه تتميّز بالفعالية العالية وفي اتجاهات مختلفة ومتعدّدة ويساعده على ذلك مرونة تركيبه الجسماني والملاحظة على أجزاء عدّة من جسمه كسعة الرئتين مثلا، وكتسارع دقّات القلب وتباطؤها، هذا ما يسمح له بالملائمة بين السلوك والغايات والأهداف، فهو قادر على تنويع نشاطاته، يمشي، يقعد، ينام، يسبح، يتسلّق يزحف.. وقادر على القيام بتكيّفات جديدة لم تكن موجودة عنده من قبل؛ أي إمكانية استغلال البيئة. وهو ما يحمل معه تغييرات واسعة في علاقته مع بيئته، لموائمة الظروف المتغيّرة الطارئة. فهو الوحيد القادر على السكن في بيئات مختلفة بين الانخفاض والارتفاع، الحرارة البرودة، وهو الوحيد القادر على العيش في أوساط أكثر تعقيدا مقارنة بالوسط الذي نشأ فيه من خلال تطويره لأساليب

عيشه كعمق البحر والفضاء الخارجي، من خلال ما يخترعه بمهاراته اليدوية المبدعة.[1]

أمّا فيما يخصّ الشقّ الاجتماعي فهو بطبعه ميّال للاجتماع والمخالطة، وفعله الاجتماعي هذا قابل للتغيّر بتغيّر المكان والزمن، ويعطيه القدرة على التكيّف مع أي مجتمع يدخل إليه. صحيح يتطلّب اندماجه وقتا، لكنّه سرعان ما يتّخذ اتجاه روح المعاشرة، ويختار النظام الملائم للتعامل مع الظروف والتحدّيات الاجتماعية المتجدّدة. وهذا ما يسمّى الذكاء الاجتماعي. وإضافة إلى مرونته العقلية والجسدية والاجتماعية، فالجانب النفسي له يتميّز بقدرته على أن يعكس الآمال والمخاوف والتخيلات الحالية على أعمال المستقبل.[2]

وإذا ما رجعنا إلى الكيفية التي وصف بها القرآن الكريم الإنسان، فقد جاء ذكره في مواضع عدّة وكثيرة من آيات القرآن الكريم، وكان اللّفظ في الغالب معرّفا بالألف واللام [الإنسان] ولم يذكر نكرة إلاّ مرّة واحدة بل معرّفا بالإضافة في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ .[3] وقد ذهب السرخسي في أصوله إلى أنّ هذه الآية هي من الآيات "التي تؤكّد على أهلية الآدمي لوجوب الحقوق له وعليه وفي ضرورة الحفاظ على

---

[1] ينظر الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان د. إبراهيم فريد الدر منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ط1 1403هـ 1983م. وينظر ذاكرة الإنسان (بنى وعمليات على ضوء منهجية علم النفس المعرفي) روبرتا كلاتسكي ترجمة: د. جمال الدين الخضور منشورات وزارة الثقافة سورية 1995. وينظر البنية النفسية عند الإنسان يونغ ترجمة: د. نهاد خياطة دار الحوار حلب 1994. وينظر بنو الإنسان ص14.

[2] بنو الإنسان ص15.

[3] الإسراء الآية 13.

الأمانة التي حملها الإنسان".[1] والدليل على ذلك كما هو ملاحظ في الآية استعمال لفظ الإلزام في إشارة إلى المسئولية المباشرة للإنسان عن سلوكه. تلك الإلزامية التي أسهب في شرحها سيّد قطب فهو يرى بأنّ ""طائر كلّ إنسان هو ما يطير له من عمله، أي ما يقسم له من العمل، وهو كناية عمّا يعمله وإلزامه له في عنقه تصوير للزومه إيّاه وعدم مفارقته، على طريقة القرآن في تجسيم المعاني وإبرازها في صورة حسيّة. فعمله لا يتخلّف عنه وهو لا يملك التملّص منه. وكذلك التعبير بإخراج كتابه منشورا يوم القيامة، فهو يصوّر عمله مكشوفا، لا يملك إخفاؤه أو تجاهله أو المغالطة فيه. ويتجسّم هذا المعنى في صورة الكتاب المنشور، فإذا هو أعمق أثرا في النفس وأشد تأثيرا في الحس، والخيال البشري يلاحق ذلك الطائر، ويلحظ هذا الكتاب في فزع الطائر من اليوم العصيب، الذي تتكشّف فيه الخبايا والأسرار، ولا يحتاج إلى شاهد أو حسيب"".[2]

والآيات التي جاء فيها ذكر الإنسان في مجملها تشير إلى حالات لوصف بعض خصائصه، فمنها ما يفسّر لنا أو يصوّر لنا طريقة خلقه وإيجاده أو بداية خلقه في هذا الكون. وأوّل شيء وجب الإشارة إليه بحسب ما جاء في القرآن الكريم، هو كون الإنسان قد خلق في أجمل صوره وفي اعتدال تام ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ .[3] اعتدال من كلّ النواحي عقليا ونفسيا وجسديا

[1] ينظر أصول السرخسي أبو سهل السرخسي دار الكتب العلمية 1993 ج2 ص461.

[2] ينظر في ظلال القرآن سيّد قطب دار الشروق القاهرة الطبعة الشرعية الحادية عشر 1402هـ 1986م المجلّد4 ج15 ص2208.

[3] التين الآية4.

وكما يرى سيّد قطب فلهذه السورة من جمالية التركيب والأسلوب الفني الشيء الكثير، ذلك لأنّ الحقيقة الرئيسية التي تعرضها هذه السورة هي "حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها. وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان. ومنها تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء في أحسن تقويم. والله سبحانه وتعالى أحسن كل شيء خلقه. فتخصيص الإنسان هنا، وفي مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب وحسن التقويم، وحسن التعديل فيه فضل عناية بهذا المخلوق، وإنّ عناية الله بأمر هذا المخلوق _على ما به من ضعف وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد_ لتشير إلى أنّ له شأنا عند الله، ووزنا في نظام هذا الوجود. وتتجلّى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد، أم في تكوينه العقلي الفريد، أم في تكوينه الروحي العجيب. والتركيز في هذا المقام على خصائصه الروحية. فهي التي تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها. إذ أنّه من الواضح أن خلقته البدنية لا تنتكس إلى أسفل سافلين. وفي هذه الخصائص الروحية يتجلّى تفوّق التكوين الإنساني، فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقرّبين. كما تشهد بذلك قصة المعراج. حيث وقف جبريل عليه السلام عند مقام، وارتفع محمد بن عبد الله _الإنسان_ إلى المقام الأسنى.

بينما هذا الإنسان مهيأ _حين ينتكس_ لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط.. حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم، لاستقامتها على فطرتها، وإلهامها تسبيح ربّها، وأداء وظيفتها في الأرض على هدى. بينما هو المخلوق في أحسن تقويم، يجحد ربّه، ويرتكس مع هواه، إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه".[1] انتكاسة تجعل منه فردا غير متحكّم في سلوكه فتظهر عليه صورة أخرى صوّرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ .[2] فهذا تأكيد واضح على طغيان الإنسان، فمحور الآية هو سلوك الطغيان الذي قد يصل إليه الإنسان، أو كما قال سيّد قطب ففي هذه الآية "برزت صورة الإنسان الطاغي الذي نسي منشأه وأبطره الغنى".[3] فوصل بذلك إلى حالة حبّ النفس والاعتزاز بها ولو على حساب غيره.

وكان خلقه في بادئ الأمر بحسب ما جاء في القرآن الكريم من مادة معيّنة هي الطين، وكان توضيح ذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ .[4] فكلمة طين في هذا التركيب اللغوي جاءت باللّفظ العام وهي غير معرّفة؛ وفي ذلك إشارة إلى طبيعة المادة التي خلق منها الإنسان، ثمّ ظهر فيه تدقيق أكثر في طبيعة هذا الطين؛ فهذا الطين ليس كلّه بل هي ﴿سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ .[5] والسّلالة كما ذهب إلى ذلك

---

[1] ينظر في ظلال القرآن تفسير سورة التين.

[2] العلق الآية6.

[3] التصوير الفني في القرآن سيّد قطب دار الشروق القاهرة الطبعة الشرعية السادسة عشرة 1423هـ 2002م ص21.

[4] السجدة الآية7.

[5] المؤمنون الآية12.

الزمخشري في الكشّاف والرازي في تفسيره[1] هي الخلاصة لأنها تسلّ من بين الكدر ومن ألطف أجزاء الطين، وقد بنيت على وزن فُعالة وهو بناء يدل على القلة؛ أي جزء صغير، قياسا بكلمات أخرى في اللغة العربية وردت على الوزن نفسه كالقُلامة والقُمامة، وهذه السّلالة من طين محددة في طين يدعى ﴿صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ .[2] والصلصال كما جاء في تفسير غريب القرآن[3] هو الطين الذي لم يطبخ إذا نقرته صلّ أي صوّت من يبسه. وهذا الصلصال كان من ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ .[4] والحمأ الطين الأسود المتغير. والمسنون: المصوّر، من سنة الوجه، وقيل: المصبوب المفرغ، أي: أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذوبة في أمثلتها وهذا ما قال به الزمخشري.[5]

هذا فيما يتعلّق بخلق سيّدنا آدم عليه السلام والذي نسب إلى مواد مختلفة، ولهذا الاختلاف دوره من الناحية البلاغية الجمالية لزيادة الدقة، أو كما قال الزركشي في البرهان فهو تركيز على "وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطويرات شتى لأن الصلصال غير الحمأ والحمأ غير التراب إلا أن مرجعها كلّها إلى جوهر وهو التراب، ومن التراب تدرّجت هذه الأحوال".[6]

---

[1] ينظر تفسير الكشّاف ج4 ص221. وينظر تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) الفخر الرازي دار إحياء التراث العربي ج23 ص269. وينظر كذلك التبيان في تفسير غريب القرآن شهاب الدين بن أحمد تحقيق: د. فتحي أنور الدابولي دار الصحابة للتراث بطنطا القاهرة ط1 1992 ص306.

[2] الرحمن الآية14.

[3] التبيان في تفسير غريب القرآن ص256.

[4] الحجر الآية26.

[5] ينظر الكشاف ج3 ص404.

[6] البرهان في علوم القرآن الزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعرفة بيروت 1391هـ ج2 ص54.

ثمّ استمرّ الخلق بعد ذلك بطريقة التكاثر عن طريق التزاوج فظهر منحى آخر في خلق الإنسان فكان: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ .[1]

وأوّل الأوصاف التي يقدّمها لنا القرآن الكريم عن الإنسان بعد الخلق هي الضعف*ويتجسّد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ .[2]

ومن الملامح العامة للإنسان بحسب ما جاء في كلام الله سبحانه وتعالى والمنزّل على سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام، تلك الميزات العامة التي يكون عليها الإنسان وسلوكه في حالتين هما: حالة معاناة بسبب أضرار أصابته من أمراض وآفات، والحالة التي يُبعد اللهُ فيها عنه تلك الأضرار ويوسّع له نعمه فيها من صحّة وعافية ومال وغيرها. فهو في الحالة الأولى، تجده يائسا محبطا كثير الدعاء والتضرّع، كثير العود إلى الله سبحانه وتعالى، ليبعد عنه ما أصابه من ضرّ وليشمله برحمته ورعايته. أمّا في الحالة الثانية فهو أبعد بكثير عن تذكّر الله وذكره، فهو في حالته الأولى يائس كافر قانط، وقد بني هذا اليأس والكفر على صيغة المبالغة "فعول"[3] وذلك يدل على مبالغة الإنسان في تعبيره عن حاله اليائسة، وفي الثانية مسرف كافر مبتهج مسرور، وذلك ما يصوّره القرآن الكريم لنا فمثلا نجد صورة ذلك الإنسان الذي يصيبه الضر لتحلّ بعده النعمة، فهو

---

[1] النحل الآية 4.

* يرى المفسّرون أن مصطلح ""ضعيف"" يشير إلى الإنسان لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الغني وأنّ الضعف في أمور النساء ونجد هذا الرأي خاصة في تفسير القرطبي ومعاني القرآن.

[2] النساء الآية28.

[3] ينظر البرهان في علوم القرآن ج2 ص502.

يدعو ربّه في حالات الضرّ وفي كلّ الوضعيات في قيامه، قعوده واضطجاعه وهي الوضعيات الثلاث التي يمكن أن يتخذها الإنسان، وبكلّ الوسائل مع تقرّبه وإنابته لله عزّ وجلّ. لكن مباشرة بعد كشف الضر عنه وتخويله النعمة يتحوّل إلى صورة الإنسان المنكر المتكبّر وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[1] وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.[2] وفي قوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[3] وكما هو ملاحظ فالآية الأولى ركّزت على مفهوم الكشف وكان الفعل في الماضي ودلالة بناء الفعل في الماضي، هي التركيز على تعرّض الإنسان لمثل هذه المواقف من قبل وردّة فعله هي نفسها دائما، أو كما قال الرازي "فهذا النظم يدل على أن معنى الآية أنه هكذا كان فيما مضى، وهكذا يكون في المستقبل. فدل ما في الآية من الفعل المستقبل على ما فيه من المعنى المستقبل، وما فيه من الفعل الماضي على ما فيه من المعنى الماضي. وأقول البرهان العقلي مساعد على هذا المعنى وذلك لأن الإنسان جبل على الضعف

[1] يونس الآية12.

[2] الزمر الآية8.

[3] الزمر49.

والعجز وقلة الصبر، وجبل أيضاً على الغرور والبطر والنسيان والتمرد والعتو، فإذا نزل به البلاء حمله ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع، وإظهار الخضوع والانقياد، وإذا زال البلاء ووقع في الراحة استولى عليه النسيان فنسي إحسانا لله تعالى إليه، ووقع في البغي والطغيان والجحود والكفران. فهذه الأحوال من نتائج طبيعته ولوازم خلقته، وبالجملة فهؤلاء المساكين معذورون ولا عذر لهم".[1] أمّا في الآيتين الأخريين فكان التركيز على لفظ التخويل ودائما في بنائه للماضي وهذا يدلّ دائما على أنّ الفعل حدث وسوف يتكرّر كلّما تكرّرت الظروف التي وقع فيها. وكما هو ملاحظ فالخطاب في الآيات الثلاث زاوج بين فعلي الكشف في الآية الأولى، ودلالته راجعة لكون الإنسان كان جاهلا لطبيعة الضرّ الذي أصابه، وكأنّه كان مغطى وغير ظاهر فبمجرّد ما يكشف له ضرّه يتغيّر حاله وسلوكه. ثمّ استعمل التخويل في الآيتين المتبقيتين، وهو كما قال الزمخشري[2] من باب التفضيل بإعطاء الشيء على غير جزاء. وهو بحسب أبي السعود في تفسيره يرجع إلى "التَّخولِ وهو التَّعهدُ أي جعله خائلَ مالٍ من قولهم فلانٌ خائلُ مال إذا كان مُتعهِّداً له حسنَ القيامِ به أو من الخَولِ وهو الافتخارُ أي جعله يخُولُ أي يختالُ ويفتخرُ".[3] ومن ثمّة يمكن القول بأنّ الضرّ في الآية الأولى بمفهوم الكشف قد يشير إلى المرض، بينما في الحالة الثانية مع التخويل فالضر قد يشير إلى الفاقة والاحتياج.

---

[1] تفسير الرازي ج17 ص222.

[2] ينظر الكشّاف ج5 ص310.

[3] تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم) أبو السعود العمادي دار إحياء التراث العربي ج7 ص244.

ثمّ تأتي في القرآن الكريم تلك الصورة المعاكسة للصورة الأولى، وهي الصورة التي يتحوّل فيها الإنسان وسلوكه من حالة التمتّع بالنعم إلى حالة إصابته بالشرور وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾.[1] وفي قوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾.[2] فهو في حالة الإنعام معرض مبتعد مبالغ في الابتعاد، لكن بعد أن يمسّه الشرّ تجده مبالغا في حالة اليأس (يئوسا)، بل ويقرن يأسه بالمبالغة في الدعاء (ذو دعاء عريض). ليأتي بعد ذلك التأكيد على حال الإنسان لكن بترقية المفهوم من النعمة إلى الرحمة مع التوكيد على فعل التذوّق للرحمة في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾.[3] فكما هو ملاحظ في هذه الآية التركيز على الفعل "أذقنا" في الرحمة بعكس الآيات السابقة "أنعمنا" أي استعمال الفعل مباشرة، فلم يقل "رحمنا" والغرض من ذلك والله أعلم أنّه أراد التعبير عن إحساس بالرحمة بلفظ الحاسة وهو الذوق، وهو إحساس غير تام بل مؤقّت وزائل، وذلكما كانت الإشارة إليه بكلمة "نزعناها" فالحال هي المبالغة في اليأس والكفر (ليؤوس كفور) بعد نزع تلك الرحمة وزوال ذلك الإحساس. أمّا عن تقديم اليأس على

[1] الإسراء83.

[2] فصلت51.

[3] هود الآية9.

الكفر لأنّ اليأس كما قال صاحب روح المعاني[1] هو من باب الكفران للنعمة السالفة.

ثمّ يصوّر لنا القرآن الكريم سلوك الإنسان الذي يمسّه الضر في مواقف معيّنة، وقد اختار القرآن موقفا معيّنا تمثّل في حال الإنسان وهو متضرّر في البحر في قوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ .[2] فهو في هذه الحال كثير الرّجوع إلى الله، لكن مباشرة بعد النجاة يتحوّل إلى إنسان معرض مبالغ في إعراضه وكفره. ليظهر بعد ذلك في القرآن الكريم سلوك ذلك الإنسان الذي آتاه الله من كلّ النعم في قوله: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ .[3] فكما قال صاحب الإتقان "إذا حصلت النعم الكثيرة فالله معطيها والإنسان آخذها، فحصل عند أخذها وصفان، كون الإنسان ظلوما وكونه كفارا لعدم وفائه بشكرها".[4] وكما هو معلوم فالظلم لغة معناه "وضع الشيء في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدول عن

---

[1] ينظر روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني أبو الفضل محود الألوسي دار إحياء التراث العربي بيروت ج12 ص15.

[2] الإسراء الآية67.

[3] إبراهيم الآية34.

[4] إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن محمد ين محمد الغزي تحقيق خليل محمد العربي الفاروق الحديثة القاهرة الطبعة الأولى 1415هـ ج2 ص274.

وقته أو مكانه".[1] وهو على صيغة المبالغة (فعول) لأنّه بالغ في وضع النعم في غير موضعها. وإضافة إلى ذلك فهو منكر لنعم لله مبالغ في كفره.

وللإنسان صورة أخرى هي حبّه وإقباله الشديد على التنعّم بالخيرات، لكن بمجرّد ما يزول ذلك الخير فهو متحوّل إلى حالة أخرى قال فيها عزّ وجلّ: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾.[2] فحاله بعد حلول الشرّ في حياته بدلا من الخير هي مزاوجة بين اليأس والقنوط (فيؤوس قنوط) وهي مزاوجة بين لفظين يتقاربان من الناحية الدلالية. وكما قال الألوسي في تفسيره فالتقارب يحمل "من جهة التكرار المعنوي فإن القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس في تضاءل وينكسر ولما كان أثره الدال لا يفارقه كان في ذكره ثانيا بطرق أبلغ وقدم اليأس صفة للقلب وهو أن يقطع رجاءه من الخير وهي المؤثرة يظهر على الصورة من التضاؤل والانكسار".[3]

وبين حالتي اليأس والابتهاج أو الإسراف كخطوط عريضة مرسومة أو مجسّدة للسلوك العام للإنسان في القرآن الكريم، تظهر صفة عامة أخرى تغلب على سلوكه ونشاطه العقلي ألا وهي ظاهرة النسيان. فغالبا ما ينسى الإنسان أصله وبأنّه لم يكن موجودا في هذا الكون لولا حكمة الله سبحانه وتعالى في خلقه ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا﴾.[4] والنسيان هذا

---

[1] مفردات في غريب القرآن مادة (ظلم) ج2 ص315.

[2] فصلت الآية49.

[3] روح المعاني ج25 ص4.

[4] مريم الآية67.

موجود عنده منذ وجد على هذه الأرض مع سيّدنا آدم عليه السلام ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ .[1] وعهد الله إلى آدم هو عدم الأكل من شجرة واحدة فهي مثلما قال سيّد قطب "تمثّل المحظور الذي لا بدّ منه لتربية الإرادة، وتأكيد الشخصية، والتحرّر من رغائب النفس وشهواتها.. فكلّما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكّم فيه والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلّم الرقي البشري. من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعدّه لخلافة الأرض باختبار إرادته، وتنبيه قوّة المقاومة فيه، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزيّنها الشيطان، وإرادته وعهده للرحمن. وها هي ذي التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى فنسي".[2]

2. السلـــــوك:

السلوك بحسب ما شرحه لسان العرب[3] يرجع إلى المدخل المعجمي [سلك] وغالبا ما يستعمل في باب الطريق فيقال: سلك الطريق يسلكه سلكا وسلوكا ويتخذ بذلك معنى السير بإتباع اتجاه معين أي النفاذ في الطريق. ويستعمل كذلك ليدل على مفهوم الدخول فيقال: سلكت الشيء في الشيء فانسلك أي أدخلته فيه فدخل. ومن الأمثلة التي يستشهد بها في باب دلالة السلوك على

---

[1] طه الآية115.

[2] ينظر في ظلال القرن تفسير سورة طه.

[3]ينظر فيما يخص دلالا ت "السلوك" مادة (س ل ك) لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري دار صادر بيروت ط1 ج10 ص442. وينظر كذلك مفردات في غريب القرآن مادة (سلك)ج1 ص239. والتوفيق على مهمات التعاريف محمد عبد الرؤوف المناوي تحقيق محمد رضوان الداية دار الفكر المعاصر بيروت 1410هـ ط1 413.

الدخول ما جاء في التنزيل العزيز ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾[1]

والله يسلك الكفار في جهنم أي يدخلهم فيها. ويقال سلكت الخيط في المخيط أي أدخلته وسلك يده في الجيب ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[2]. ونحوهما يسلكها وأسلكها أدخلها.

أمّا من وجهة نظر علم النفس[3] فكلمة سلوك تعني الاستجابة أو مجموعة ردود الفعل التي يبديها كائن حي إزاء أي موقف يواجهه.

3. منطلقـــات سلوك الإنسان:

ينطلق سلوك الإنسان من أحكامه المختلفة، وهي إمّا أن تكون دوافع وانفعالات غريزية (عواطف كالخوف، والمحبّه..) ومن دوافعه التي تساعده على التعلّم والتمثيل والاقتباس والتفكّر وهي في مجملها قدرات فكرية بالدرجة الأولى. بينما تتدخّل في تشكيل البنية العامة التي يصدر عنها سلوكه وأحكامه مجموعة كبيرة من المعطيات فمنها ما له علاقة بالجانب الوراثي للفرد، ويمكن أن يتعدّى هذا الجانب الوراثي إلى عديد العمليات البيولوجية التي يقوم بها الإنسان. كما تلعب البيئة على كل مستوياتها (جغرافية، أسرية ومدرسية..) دورا كبيرا في بناء السلوك، حيث ينمو وينضج فيكون بذلك الإنسان مرتبطا ومتصرّفا بحسب ما

---

[1] الشعراء 200.

[2] القصص 32.

[3] ينظر معجم علم النفس والتربية مجمع اللغة العربية جمهورية مصر ص19. La psychologie moderne de A à Centre d'étude et de promotion de la lecture Paris 1971. P155.

تمليه عليه المبادئ التي يسير عليها المجتمع الذي ينتمي إليه، أي بحسب طبيعة أعراف المجتمع وتقاليده الفعلية وحتّى اللّغوية، كذلك يمكن أن يرتبط السلوك بمجموعة خبرات الطفولة وما تراكم فيها من ترسبات ناتجة عن ما عايشه الإنسان من أحداث، وما تعلّمه الإنسان من دروس مستخرجة من تجاربه اليومية. ولذلك لكي يفهم سلوك الإنسان[1] جيّدا يجب أن يكون فيه إلمام على الأقل بمجموعة من الحقائق البيولوجية لنشأته، كآثار فعل التربية فيه والمناهج التربوية التي اتبعت في إعداده وفي بلورة شخصيته.

4. المسالمـــة:

المسالمة هي أجمل ما يمكن أن يتمناه المرء، ينشده، يتغنى به، ويعمل جاهدا على الحصول عليه لإحلاله ثمّ إشاعته ولهذا اللفظ في اللغة العربية بالرجوع إلى لسان العرب[2] معاني عدّة تشير كلّها إلى أشياء جيّدة، فالمسالمة عند تعلّقها بصفات المرء وأفعاله، يمكن أن تشير إلى التبرّؤ، العافية والترك؛ أي أن يكون بريئا متبرئا من كلّ الأفعال والصفات غير المرغوب فيها، تاركا لها مبتعدا عنها، مطالِبا بالعفو ساعيا لإشاعته. أمّا عندما يستعمل مفهوم المسالمة في مجال علاقة

[1] ينظر الاضطرابات السلوكية والانفعالية د. خولة أحمد يحيى دار الفكر الأردن 1421هـ 2000م ط1 ص16. الدافعية والانفعال إدوارد ج موراي ترجمة د. أحمد عبد العزيز سلامة دار الشروق القاهرة 1408هـ1988م ط1 ص23.الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان ص15..السلوك الإنساني ص53.الشخصية مقوّماتها، سلوكها وعلاقتها بالتعلّم ص7. البنية النفسية عند الإنسان ليونغ ص5.

[2] ينظر لسان العرب مادة (س ل م) ج15 ص289.

الإنسان بغيره، فدلالته يمكن أن تتخذ اتجاه المصالحة حيث يبحث المرء عن أنجع السّبل للتصالح مع من حوله ممن عاداه.

ويوضع لفظ المسالمة كذلك في بعض السياقات اللغوية للدلالة على الإذعان والانقياد وطاعة أوامر وتوجيهات الحاكم أو السلطان وعدم مخالفتها كالقول (سلّم أمره لـ..) أضف إلى كل ذلك أو بالأحرى كخلاصة لكل ما سبق ذكره من دلالات لغوية فالمسالمة هي في مجملها تخلّص فيه تسامي وتعالي على الأمور التافهة الدنيئة مع خلو شبه تام من كل الآفات والعيوب وملامح النقص وانتفاء لعوارض الفساد التي تصيب الإنسان في دينه ونفسه فلا يكون بذلك متعديا ولا آثما ولا ساعيا وراء إصابة الناس بمكروه بل هي على النقيض من ذلك تماما لأنّ فيها اجتماعا لمعاني الخيرات وسداد القول والقصد الذي لا لغو فيه.

ويكفي فخرا أن هذه الكلمة هي رمز للمبادرة بالاستقبال لأنّها تستعمل للتحية من باب التوكّل، وهو أقصى ما يصل إليه المرء عند مباشرته الأعمال وعند الانتهاء منها، كذلك لاجتماع كلّ معاني الخير فيها.

والمسالمة هي القوّة التي تدفع الإنسان إلى التكامل والترابط والتعاضد للوصول إلى درجة التوحّد، والهدف من ذلك هو السعي المشترك لاستئصال الشرور ومكافحة الفساد. وهي كذلك أحد الطموحات الرئيسة للبشرية لإنقاذها وإبعاد الحزن عنها، بتفادي شبح الحرب. ومن ثمة الحفاظ على الحضارة الإنسانية من الزوال والاندثار. وهي الشرط الأساسي لضمان مستويات عليا من الرّفاهية

والرخاء الماديين بغية النمو والتقدّم والازدهار على أحسن وجه فمواثيق الأمم المتحدّة في باب حديثها عن القيم والمبادئ تنبّه على ضرورة احترام الناس لبعضهم البعض والامتناع عن التهديد عملا بمفاهيم التسامح، الحريات الأساسية واحترام الآخر وحقوقه بقبول التعايش معه بالرّغم من وجود اختلافات وتباينات فيما بينهم، انطلاقا من تنوّع توجهاتهم الفكرية واعتقاداتهم وطرق تفكيرهم خاصة على المستويين الديني والثقافي، وحسن المعاملة والجوار. وهذا ما تنشده البشرية أي الحرية المتمثّلة في العيش بكرامة في مأمن من الجوع والخوف من العنف أو القمع أو الظلم ولا يكون ذلك بحسب ما نصّت عليه معاهدات ووثائق الأمم المتّحدة[1] إلاّ بالرجوع إلى إرادة الشعوب والشرعية السياسية، والتي تجسّد مبادئ المساواة وتكافؤ الفرص وتقاسم المسؤوليات، دون التمييز على أساس العرق، الجنس، اللغة، مع التضامن بتوزيع التكاليف والأعباء بصورة عادلة، والتعاون لحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وذات الطابع الإنساني.

أمّا عن ورود هذا اللّفظ في القرآن فهو بصياغاته المختلفة يعتبر من أكثر الألفاظ استعمالا. ومن أوّل الصّيغ التي يمكن الإشارة إليها هي صيغة "السِّلْم" في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ

[1] ينظر الإعلانات والاتفاقيات الواردة في قرارات الأمم المتحدة (الجمعية العامة13سبتمبر2000) الدورة الخامسة والخمسون البند 60(ب) جدول الأعمال 2/55. إعلان الأمم المتحدة بشأن الألفية/(الجمعية العامة 24أكتوبر2005) الدورة الستون البند 64 جدول الأعمال 1/60. نتائج مؤتمر القمة العالمي لعام 2005 (الجمعية العامة 26فيفري2009) الدورة الثالثة والستون البند 64 جدول الأعمال 116/63.

الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .[1] فأصل كلمة السّلم في هذه الآية كما قال صاحب كتاب معاني القرآن[2] هو الصلح والمسالمة. ثمّ جاءت بالصيغة نفسها لكن بفتح السين "السَّلم" وتكرّر ذكرها خمس مرّات. كما جاءت بصيغة أخرى وهي "السَّلام" وبدلالات مختلفة منها استعمالها اسما من أسماء الله وذلك في قوله تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .[3] واستعمل بالصيغة نفسها لكن للدّلالة على التحية في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ .[4] وجاء بدلالته على النّجاة والخلاص في قوله تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .[5] ودلّ كذلك على الأمان والطمأنينة والراحة النفسية وعدم الخوف في قوله: ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .[6] وكما قال صاحب كتاب المواقف فالمخاطبة بلفظ السلام تعتبر بمثابة دعوة من الله عزّ وجل لعباده "من إنس وجن، في الحال والاستقبال، إلى دار السلام، بمعنى السلامة، وهي الرحمة المحضة العامة، التي تعمّ العباد كلّهم بعد نهاية الغضب الإلهي. يدعوهم في الحال.. إلى الأعمال والأقوال والاعتقادات

---

[1] البقرة208.

[2] ينظر معاني القرآن أبو جعفر النحاس تحقيق محمد علي الصابوني جامعة أم القرى مكة الطبعة الأولى 1409هـ ص153.

[3] الحشر الآية23.

[4] النساء94.

[5] المائدة16.

[6] الأنعام127.

الصالحة التي هي أسباب نيل السلامة بمعنى الرحمة الكاملة الخالصة، من غير أن يقدمها شوب غضب، ويدعوهم في الاستقبال إلى نيلها بالفعل، ثمّ أخبر _تعالى_أنّه_ وإن دعا الجميع في الدنيا، بمعنى دعاهم إلى الأعمال، وإتباع الرسل فيما أرسلهم به_ فقد فرّق بينهم بحكمته وإرادته فيهدي من يشاء هدايته، وهم المؤمنون، إلى صراط مستقيم أي طريق قريب الوصول سهل المشى إلى السلام، فيصلون إليها من غير مشقّة ولا تقدّم غضب. ويضلّ من يشاء، وهم الكافرون العاصون للرسل _عليهم السلام_ فلا يصلون إلى الرحمة الكاملة إلاّ من طريق غير مستقيم بعيد، وبعد نفوذ الغضب الإلهي".[1]

وقد أعطانا الرسول عليه الصلاة والسلام دروسا عن المسالمة الصائبة التي تضمن حقوق الإنسان، وتحفظها في أعلى مستوياتها. وقد لخّص لنا المفهوم العام لمصطلح المسالمة في تشكيل لغوي بسيط يحمل دلالات واسعة حيث أنّه يرى بأنّ الإنسان لا يمكن أن يتصّف بالمسالمة ولا يمكن أن يكون مسالما حتّى يسلم "النّاس من لسانه ويده".[2] وبمنظور أكثر اتساعا فمعطيات أو مبادئ المسالمة إذا زادت درجة الاقتناع والإيمان بها يمكن أن تتعدّى إلى حبّ الناس أو الإنسانية، بالحفاظ على

[1] المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف الأمير عبد القادر الجزائري حققه عبد الباقي مفتاح دار الهدى الجزائر الطبعة الأولى 1426هـ 2005م ج1 ص189.

[2] صحيح البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله دار إحياء التراث العربي ج1 ص13. صحيح مسلم مسلم بن الحَجَّاج بن مسلم القشَيري النيسابوري أبو الحسين دار الكتب العلمية 1992 ج2 ص9. السنن الكبرى أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري دار الكتب العلمية بيروت 1991م1411هـ ط1 ج6 ص530.

دمائهم وأموالهم، والمداومة على الظهور بخلق حسن والتواضع للناس، وذلك بإظهار الليونة التامة في المعاملة والتحكّم في الغضب مهما كانت مسبباته. وقد يتعدّى الأمر في مفاهيم المسالمة بحسب ما يأمرنا به ديننا الحنيف دائما إلى أن يشمل الحفاظ على علاقات الناس فيما بينهم حتّى في بابي الملبس والإطعام.*

5. العدوانيـــــــة:

بالرجوع إلى المعنى اللغوي لمصطلح "العدوانية"، بالنظر إلى ما جاء في لسان العرب[1] فهو من المدخل المعجمي "عدا" والذي يتخذ مفاهيم كثيرة، وتشير أولى دلالاته إلى معنى الجري والتسابق والتفاوت فيقال "تعادى القوم تباروا في العدو" أي بمعنى التسابق والتفاوت. ويمكن أن يتخذ اللفظ مفهوما أوسع فيكون للدلالة على الأسبقية للإشارة إلى الأوّل من الرّجال، وهذا ما قد يشير مبدئيا إلى مفهوم الابتداء في الفعل أو الأسبقية في البدء، ويمكن أن تمتدّ هذه الأسبقية إلى معنى التجاوز أي تجاوز الحدود. ويتسع المفهوم أكثر ليصل إلى الدلالة على الظلم، فيعدون عدوا أي يظلمون ظلما. والعادي هو الظالم بالمكروه والغضب والذي يسعى دائما إلى البحث عن السبل المنافية للالتئام والمؤدية إلى الإخلال بالنظم العامة والباعثة إلى الاختلاف والتباعد.

---

* هذا القول مبني على ما جاء في الحديث النبوي الشريف المذكور في باب أمور الإيمان صحيح البخاري ج1 ص12. وعلى ما أشار إليه البيهقي في كتابه مختصر شعب الإيمان (باب حسن الخلق) ويدخل فيه كظم الغيظ ولين الجانب والتواضع. ينظر مختصر شعب الإيمان البيهقي عمر بن عبد الرحمن القزويني أبو المعالي تحقيق عبد القادر الأرناؤوط دار ابن كثير دمشق 1405 ط2 ص114.

[1] ينظر لسان العرب مادة (ع د ا)ج15 ص31.

أمّا عن نظرة القرآن الكريم للعدوان فقد جاء صريحا ومباشرا برفضه على عمومه وذلك موضّح في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ .[1] فهذا أمر واضح كما قال البغوي في تفسيره[2] بأن لا يكونوا البادئين بالظلم والقتل. ونلاحظ اعتماد القرآن في هذه الحالة على أسلوب النهي باستعمال "لا" فهو حرف ينهى به.[3] فالعدوان لا يقبله الإسلام إلاّ في حالات خاصّة والمتمثّلة في الظلم: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ .[4] ويتجلّى ذلك الظلم في المبادأة في فعل الاعتداء ومشروعية ردّ ذلك الاعتداء ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .[5]

وقد ذكر لفظ العدوان بهذه الصياغة في القرآن الكريم في آيات خمس وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ .[6] وقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ .[7] وقوله: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا

---

[1] البقرة الآية190.

[2] ينظر تفسير البغوي (معالم التنزيل) أبو محمد الفراء البغوي تحقيق خالد العك ومروان سوار الطبعة الثانية 1987م 1407هـ دار المعرفة بيروت ج1 ص161.

[3] ينظر رصف المباني في شرح حروف المعاني أحمد بن عبد النور المالقي تحقيق أحمد محمد الخراط مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ص267. وينظر الصاحبي في فقه اللغة ص77.

[4] البقرة 193.

[5] البقرة 194.

[6] البقرة85.

[7] المائدة2.

مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .[1] وقوله: ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ .[2] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ .[3]

ويمكن تلخيص هذه الآيات في الجدول الآتي:

ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِـــــ	الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ	
وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى		
يُسَارِعُونَ فِي		وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ
وَيَتَنَاجَوْنَ بِـــــ		وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ
فَلَا تَتَنَاجَوْا بِـــــ		

فمن ناحية التركيب نلاحظ بأن كلمة العدوان كلّما ذكرت في القرآن الكريم إلاّ وجاءت قبلها كلمة "الإثم" وكانت مقترنة بها وقد جاء تقديم الإثم على العدوان بحسب ما قال به الزمخشري لأنّ "الإثم ما يختص بهم. والعدوان ما

[1] المائدة62.

[2] المجادلة8.

[3] المجادلة9.

يتعداهم إلى غيرهم".[1] وبذلك يمكن القول بأنّ الإثم هو الإفساد الذي يطال الذات أو بالأحرى ظلم الإنسان لنفسه، والعدوان ذلك الإفساد الذي يتعدّى الذات فيمتد ليصيب الآخر فيكون بذلك من باب ظلم الآخرين.

وكما هو ملاحظ كذلك فالآيات فيها تركيز على مفهوم العدوان ونهي عنه، فالعدوان يكون بالفعل الظاهر مثلما هو الحال في الآية الأولى بين قتل النفس وإخراج الناس من الديار ولذلك استعملت كلمة "تظاهرون" أي القتل والإخراج فعلان ظاهران وظهورهما مثلما قال الرازي يتمثّل في تعاونهم في الإخراج من الديار وقتل البعض بعضاً وكلّ هذه الأفعال "مما تعظم به الفتنة واحتيج فيه إلى اقتدار وغلبة بين الله تعالى أنهم فعلوه على وجه الاستعانة بمن يظاهرهم على الظلم والعدوان".[2] ويكون بالقول الخافت الذي فيه إسرار وذلك ما مثّلته الآيتان بكلمة "المناجاة" وهي بحسب الراغب[3] تشير إلى إسرار القول.

هذا بالنسبة لكلمة العدوان في القرآن الكريم. أمّا من الناحية النفسية[4] فالعدوان يعتبر اضطرابا سلوكيا يتحدد في التهجّم على الآخرين رغبة في السيطرة، أو

---

[1] الكشاف ج2 ص264..

[2] تفسير الرازي ج3 ص591.

[3] ينظر مفردات في غريب القرآن مادة (نجو) ج2 ص483.

[4] ينظر مفاهيم كلمة العدوان من الناحية النفسية كتاب سيكولوجية العدوان (بحوث في ديناميكية العدوان لدى الفرد الجماعة الدولة) فرويد، لورنز، ولترز، ميلر وآخرون ترجمة عبد الكريم ناصف دار منارات للنشر الردن الطبعة الأولى 1986 ص85. وينظر العلاج السلوكي للطفل (أساليبه ونماذج من حالاته) عالم المعرفة العدد 180 د. عبد الستّار إبراهيم ود. عبد العزيز بن عبد الله الدخيل ود. رضوان إبراهيم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1993 ص27. وينظر معجم علم النفس والتربية مجمّع اللغة العربية مصر الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية 1984 ج1 ص13.

نتيجة للشعور بالظلم أو نحو ذلك. وقد توسّع علماء النفس وخاصة أصحاب فرضية التنفيس منهم إلى وصفه بأنّه تفريغ لشحنة الغضب أو بالأحرى تفريغ للمخزون وتخفيف للتوتّر الزائد.

وقد تعدّدت وجهات النظر في تعريف مصطلح العدوان فأعطته ملامح عدّة كان في مجملها على العموم الرفض والنزاع وعدم تقدير واحترام الآخر، وكثرة التهديد، والانحراف اجتماعي.

وبالرجوع إلى قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة[1] فهي تؤكّد على أنّ العدوان هو أفدح صور الاستعمال غير المشروع للقوّة وأخطرها. وهو ما يؤدّي في أغلب الحالات إفساد العلاقات الودية ورفض التعاون مع الآخر. ذلك ما يخلق مفهوم تهديد الآخر وإزالة العدل بين الناس. وهو ما يؤدّي إلى مجموعة من المظاهر التي تحاربها الإنسانية جمعاء كالحرمان من تقرير المصير، الحرية والاستقلال. وحتى عدم احترام المواثيق والمعاهدات يعتبر من العدوان.

كما يركّز توجّه الأمم المتحدة على مفهوم المبادأة أو الأسبقية في الفعل أو الاعتداء وهو مفهوم ركّز عليه القرآن الكريم قبل ظهور مواثيق الأمم المتحدّة في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾.[2] وفي أعقاب الصراعات المتتابعة والتي وجد فيها الإنسان نفسه تحت

[1] ينظر ميثاق الأمم المتحدّة وقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن فيما يخص هذا المجال.

[2] البقرة184.

تأثير نوع من التقابلات العدائية بين الإنسان مقابل الإنسان، وبين الجماعة في مواجهة الجماعة، والعرق ضد العرق، والأمة ضد الأمة. بدأ ينشأ فهم جديد لفكرة العدوان والمسالمة، فمقتضيات أمن الإنسان في الأمم المتحدة والتي كانت في السابق تعني الدفاع عن إقليم الدولة ضد العدوان الخارجي، أصبحت اليوم تشمل حماية الجماعات والأفراد من العنف والاعتداء حتّى على المستوى الداخلي.

لكن هل العدوان ركن حتمي من أركان علاقات البشر فيما بينهم؟

6. سلوك الإنسان بين المسالمة والعدوانية:

يتحوّل الإنسان بين المسالمة والعدوانية بحسب طريقة نموّه في المجتمع الذي ينتمي إليه وهذا ما ذهبت إليه أغلب الدراسات السلوكية والنفسية.[1] كذلك فطريقة تنشئة الإنسان هي التي تجعله مضطربا منفعلا سلوكيا أو ملتزما سلوكيا. وقد أثبتت الدراسات والأبحاث التي أقيمت في مجال السلوك الإنساني أنّ سوء التكيّف الاجتماعي يؤدي لا محالة إلى ظهور حالات من الأشخاص المضطربين سلوكيا وانفعاليا، هذا الاضطراب السلوكي الذي تغدوا معه سلوكيات الإنسان غير متوافقة مع توقعات المجتمع أو بالأحرى مع المعايير الاجتماعية المتبّعة أو المحدّدة للسلوك المقبول اجتماعيا من السلوك المرفوض.

[1] ينظر الانحرافات السلوكية (الأسباب والعلاج) صباح عبّاس دار البيان العربي بيروت 1414هـ1993م ط1 ص12. وينظر الاضطرابات السلوكية والانفعالية ص16.

الفصل الأول

تحولات سلوك الإنسان

من الفطرة إلى العدوانية

العدوانية هي شكل من أشكال سلوك الإنسان، وكذلك المسالمة، لكن الشيء المحيّر هو أيّهما أصل في الإنسان، وأي المفهومين يميل إليه الإنسان أكثر؟ فالملاحظات الأولى في حياتنا اليومية من خلال ما نعايشه، تشير إلى ميل غالبية الناس إلى المسالمة وبحثهم الدائم عن الراحة النفسية، التي لا تتأتّى إلاّ بالتحكّم في انفعالاتهم وتوجيهها في الطريق السليم، مما سيؤدّي بالضرورة إلى خفض سلوكهم العدواني نحو الذات ونحو الآخرين.

أضف إلى ذلك فحقيقة وجود الإنسان في هذا الكون، تشير إلى حالات يتميّز بها، فهو في أقصى درجات إنسانيته في نشاطه العفوي، عندما يحاول فرض شخصيته مع أبناء جلدته، بحبه للمصلحة العامة، بتعاونه وعمله على إشاعة الخير للبشرية فيكون مسالما نواياه طيبة. وفي اتجاه آخر أناني ميال إلى العدوان والتدمير والوحشية، ومهاجم غايته السيطرة والقوّة والتحكّم في الآخرين، حيث تسيطر عليه غريزته العدوانية التي يقال بأنّه لا يمكن استئصالها، لأنّها موروثة من أسلافه المفترسين. وفي حالات أخرى مدافع منعزل خائف متردّد بجبن وانهزامية.[1]

ولذلك جاءت الإشارة في هذا الفصل إلى بعض الملامح التي تتعلّق بسلوك الإنسان من المسالم إلى العدواني بالكيفية التي صوّرها القرآن الكريم أوّلا بحسب ألفاظه وتراكيبه التي الدالة على ذلك والتي جاءت متسلسلة. وبالرجوع إلى السنّة النبوية الشريفة ثانيا.

[1] ينظر فيما يخصّ هذه المعطيات كتاب الشخصية مقوّماتها، سلوكها وعلاقتها بالتعلّم ص89. وينظر تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ص17. والدافعية والانفعال ص19. والإنسان ذلك الكائن الفريد ص16.5.

1. الفـــطـــرة:

وأوّل الملامح والصفات التي أشار إليها الإسلام فيما يتعلّق بسلوك الإنسان بين عدوانيته ومسالمته هي حالة الاعتدال، اعتدال هو أصل في ذلك السلوك الطبيعي للإنسان مع بداية وجوده في هذا الكون، وقد عُبِّر عنه بلفظ يمكن اعتباره من غريب ألفاظ* اللغة العربية، ألا وهو كلمة "الفطرة" هذه الكلمة التي جاء ذكرها في القرآن الكريم بهذه الصيغة الصرفية في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. ثمّ أكمل التعبير عنها سيّد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام في حديثه عن الطبيعة التي يولد عليها الإنسان، مركّزا في السياق ذاته على أنّ كلّ النّاس يولدون على الفطرة؛ أي لهم حالة واحدة عامة لا يختلفون فيها ولا يتباينون، فالتغيّر والاختلاف يأخذ منحاه بعد الولادة وفي سنوات التربية بتأثير الوالدين وذلك ما عبّر عنه الرسول عليه الصلاة والسلام بالقول «ما مِن مَولودٍ إلاّ يُولَدُ على الفِطرَةِ، فأبَواهُ يُهوِّدانهِ أو يُنَصِّرانِه أو يُمجِّسانه..."[2] وفي رواية يولد على الملّة.

---

* والدليل على ذلك أن مفهوم هذه الكلمة بصيغها التصريفية المتعدّدة لم يكن معروفا عند عامة الناس حيث قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدري معنى الفاطر حتى احتكم إلي أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها وأنا ابتدأت حفرها. ينظر تفسير الرازي ج18 ص518.

[1] سورة الروم30.

2صحيح البخاري دار إحياء التراث العربي ج1 ص465. صحيح مسلم دار الكتب العلمية 1992م ج4 ص2047. الموطّأ مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي مصر ج1 ص24. سنن الترمذي محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي تحقيق أحمد محمد شاكر دار إحياء التراث العربي بيروت ج4 ص447. مصنّف ابن أبي شيبة أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي تحقيق كمال يوسف الحوت مكتبة الرشد الرياض 1409هـ ط1 ج6 ص484. المبدع إبراهيم بن مفلح الحنبلي أبو إسحاق المكتب الإسلامي بيروت 1400هـ ج3

لكن ماهي هذه الفطرة أو الحالة العامة التي يولد عليها الإنسان؟ فهذا اللّفظ من النّاحية اللّغوية وبحسب ما قدّمه لنا لسان العرب[1] من شرح له قد يحمل في عمومه على معنى الشق، ففطر الشيء معناه شقه وذلك بالرجوع إلى المعنى من خلال دلالة اللّفظ في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾[2] فيقال معناه انشقت، لكن إذا ما أخذ هذا اللّفظ في سياق آخر وبصياغة أخرى في القرآن الكريم دائما نجده يستعمل مقترنا في تركيب لغوي مع لفظ الانشقاق، وذلك في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾.[3]

فالتركيب اللّغوي واضح وفيه مزاوجة بين لفظي الانشقاق والانفطار وفي سياق لغوي واحد، وبحسب ما جاء في هذه الآية فالانفطار يستعمل للدلالة على حالة تصل إليها السماوات، بينما الانشقاق يستعمل للدلالة على تلك الحالة التي ستكون عليها الأرض؛ فإذن ومبدئيا هنالك فرق بين دلالة الانفطار ودلالة الانشقاق.

ص328.سنن البيهقي الكبرى أحمد بن الحسن أبو بكر البيهقي تحقيق محمد عبد القادر عطّا مكتبة دار الباز مكّة المكرّمة 1994م 1414هـ ج6 ص202. صحيح ابن حبّان محمد بن حبّان تحقيق شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت1993م 1414هـ ج1 ص337. سنن أبي داوود سليمان أبو داوود تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الفكر ج4 ص229.

[1] ينظر لسان العرب مادة (فطر) ج5 ص55. وينظر كذلك القاموس المحيط مادة (فطر) محمد أشرف العظيم آبادي مؤسسة الرسالة 1993. وينظر التعريفات علي بن محمد بن علي الجرجاني تحقيق إبراهيم الأبياري دار الكتاب العربي بيروت 1405هـ ط1 ص215.

[2] الانفطار1.

[3] مريم90.

ومن الاستعمالات اللّغوية لهذه الكلمة بحسب ما جاء في لسان العرب[1] ما يكون للدلالة على الرّجل الذي لا يصدر منه الأذى والذي يسمّى [الفطاري] وهو الذي لا خير عنده ولا شر.

أمّا عن الصيغة الصرفية التي جاءت عليها هذه الكلمة؛ أي "فطرة" فهي على وزن [فِعْلة] وهي صيغة في اللغة العربية تشير إلى المصدر الدال على هيئة الفعل ونوعه، وذلك قياسا باستعمال هذه الصيغة في كلمات أخرى كالقول مثلا "جِلْسة" فإنّها تعني هيئة الجلوس فالقول: (جلست جِلْسة زيد) يعني أنّ الجلوس كان على الهيئة التي يجلس بها زيد.[2] ومن ثمّة فالكلمة بحسب صيغتها الصرفية تعني تلك الهيئة التي خلق بها الإنسان، أي أنّ الله قد خلق الإنسان بهيئة خاصة، بما فيها تلك الخصائص التي أودعها فيه عند خلقه.

ويقدّم لنا صاحب كتاب الإسلام والفطرة تفصيلا لدلالات اللّفظ "فطرة" بصيغه المختلفة وفي سياقات متعدّدة فهو يرى "بأنّ التعبير عن الفطرة واشتقاقاتها في القرآن الكريم يأتي على ثلاثة أنماط:

النمط الأوّل: وهو أكثر مواردها ما كان تعبيرا عن الخلق والإبداع على غير منوال، وعلى غير مثال سابق وذلك في قوله تعالى إشارة إلى خلق السماوات والأرض: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .[3] وفي الإشارة إلى خلق الإنسان ابتداء من العدم، وانتهاء

---

[1] ينظر لسان العرب مادة (فطر).

[2] ينظر الفطرة مرتضى المطهري ترجمة جعفر صادق الخليلي مؤسّسة البعثة بيروت الطبعة الثانية 1412هـ 1992م ص11.

[3] الأنعام 79.

إلى إعادته من البلى بقوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا*أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ .[1] وفي معرض بيان النعم وإظهار الشكر عليها كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .[2]

النمط الثاني: وهو الذي يليه في حجم وروده، وهو ما يشير إلى انتقاض السنن القائمة، والقوانين العادية في نظام الكون أو حركة الفلك. إمّا على سبيل العبرة والعضة، والإشارة إلى قانون الإمكان كما هو في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ .[3] وإمّا على سبيل الإشارة إلى التغيير الحتمي، اليقيني، المؤذن بانتهاء الحياة الدنيا، وحلول المعاد كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ﴾ .[4]

النمط الثالث: هو ما يشير إلى الارتباط الوثيق بين الدين، والخلق إذ أن منزل الدين وشارع شرعته هو صاحب الخلق، ومنشئ الوجود في فطرته، ومن كان كذلك وجب الرجوع إليه فيما يريد، والوقوف عند ما شرّعه لهؤلاء العبيد.. ذلك النمط هو ما ينصّ عليه قوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ

---

[1] الإسراء50. 51.

[2] يس22.

[3] مريم90.

[4] الانفطار1.

النَّاسَ﴾ .[1] ومن الملحوظات الجديرة بالاهتمام _هنا_ أنّ المعاجم القرآنية تشير إلى أنّ النمط الأوّل قد ورد في القرآن الكريم في أربعة عشر موضعا. وأنّ النمط الثاني قد ورد في خمسة مواضع وأنّ النمط الثالث وهو موضوع بحثنا لم يرد إلاّ في موضع واحد منفرد به وهو هذه الآية ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ﴾ ".[2]

وقد ذهب أبو السعود في تفسيره للّفظ (الفطرة) بأنّه الجبلة* المتهيئة لقبول الدين فالفطرة بحسب قوله هي "الخلِقةُ وانتصابُها على الإغراءِ أي ألزموا أو عليكم فطرةَ الله فإنَّ الخطابَ للكلِّ كما يُفصح عنه قولُه تعالى منيبين، والإفراد في أقِم لما أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاة والسَّلام إمامُ الأمَّةِ فأمره عليه السَّلامُ مستتبع لأمرِهم، والمرادُ بلزومِها الجريانُ على موجبِها وعدمُ الإخلالِ به بإتّباع الهَوَى وتسويلِ الشَّياطينِ، وقيل على المصدرِ أي فطرَ الله فطرةً. وقولُه تعالى: ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ صفةٌ لفطرةَ الله مؤكدةٌ لوجوبِ الامتثالِ بالأمرِ فإنَّ خلقَ الله النَّاسَ على فطرتِه التي هي عبارةٌ عن قبولِهم للحقَّ وتمكُّنُهم من إدراكِه أو عن ملَّة الإسلامِ من موجباتِ لزومِها والتمسُّك بها قطعاً فإنَّهم لو خُلُّوا وما خُلقوا عليه أدَّى بهم إليها وما اختاروا عليها ديناً آخر ومن غَوى منهم فبإغواءِ شياطين الإنسِ والجنِّ".[3]

---

[1] الروم30.

[2] الإسلام والفطرة "تأمّلات تكشف الترابط الوثيق بين الآيات القرآنية والآيات الكونية" محمد زكي الدين محمد قاسم دار الصفوة القاهرة الطبعة الأولى 1411ه 1991م ص23.

* للجاحظ رأي خاص فيما يتعلّق بموضوع الجبلّة حيث يرى بأنّ أكثر الناس مجبولون على الأخلاق السيئة. ينظر تهذيب الأخلاق أبو عمر بن بحر الجاحظ علّق عليه أبو حذيفة إبراهيم بن محمد دار الصحابة للتراث مصر 1410ه 1989م ط1 ص12.

[3] تفسير أبي السعودج7 ص49.

وقد وصل العلم الحديث إلى أنّ الطفل يولد وعقله صحيفة بيضاء تنطبع عليها آثار البيئة الخارجية عن طريق الحواس التي هي أبواب المعرفة.[1] ومن ثمّة وانطلاقا من ذلك البياض الذي اعتمد عليه العلم في تصويره للحالة التي يكون عليها الطفل في المراحل الأولى لما بعد ولادته، فقد أشار إليه الحديث النبوي الشريف عندما اختار الرسول صلّى الله عليه وسلّم اللّبن حيث رأى إبراهيمَ عليه السلام ليلة أسري به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أُتيتُ بإِناءَين أحدُهما لَبن والآخَرُ فيهِ خمر، فقيلَ لي: خُذ أيَّهما شئتَ، فأخذتُ اللبنَ فشربتُه، فقيلَ لي: هُدِيتَ الفِطرةَ).[2] وهذا ما يتيح لنا القول بأن الانفطار يمكن أن يشير إلى الميل إلى البياض، ويحتمل بذلك السماء انفطرت أي أصبح لونها مائلا إلى البياض، أضف إلى ذلك فالرسول عليه الصلاة والسلام بحسب ما هو متواتر في حادثة شقّ الصدر وما روي فيها، فالجزء الذي نزع من قلبه هو عبارة عن علقة سوداء في صميمه المسماة بسويداء القلب.. وقد شق عن قلبه وأخرج من ذلك القلب عند غسله مضغة سوداء.[3] من ثمّة يمكن القول بأن الصلاح يعبّر عنه بالبياض وهو الفطرة، بينما يعبّر عن الفساد في القلب باللون الأسود.

---

[1] ينظر السلوك الإنساني ص9.

[2] صحيح البخاري ج3 ص1243. صحيح ابن حبّان ج1 ص240. سنن الترمذي ج5 ص300. مسند أبي عوانة يعقوب بن إسحاق الأسفرائني أبو عوانة دار المعرفة بيروت ج1 ص130. سنن الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام التميمي الدارمي السمرقندي أبو محمد دار الكتب العلمية ج2 ص128.

[3] ينظر السيرة الحلبية برهان الدين الحلبي دار المعرفة ج1 ص128.

وقد تعدّدت الآراء[1] المفسّرة لمصطلح الفطرة فكانت من بينها، أنّ الفطرة تشير إلى السعادة والشقاء. ويمكن أن تؤدّي معنى الإقرار بالوحدانية حين أخذ الله النّاس من صلب آدم ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾.[2] فكانت بذلك الفطرة هي الخلقة المبتدئة التي ابتدأ الله عليها خلقه، وهذه الخلقة المبتدئة كانت على الحقان، فالله لم يأمر بأمر إلاّ وقد خلق سببه ومقتضياته في جبلة العبد، وجعله محتاجا إليه وفيه صلاحه. فالقلوب فيها أقوى الأسباب لمعرفة الأمور ومحبّتها، ولهذا سميت معروفا، وفيها نهى عن أمور تنكرها مثل الكفر الذي هو أصل الجهل والظلم. فالفطرة على ذلك هي السلامة والاستقامة.

ويمكن اختصار الفطرة مباشرة في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.[3] فمصطلح التسوية في هذه الآية يمكن حمله للدلالة على الاعتدال والوسطية التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ

---

1 ينظر فيما يخصّ الآراء الشارحة لمعاني كلمة (الفطرة) كتاب فتح الباري ابن حجر أبو الفضل العسقلاني تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب دار المعرفة بيروت 1379هـ ج3 ص248. كشّاف القناع منصور بن يونس بن إدريس البهوتي تحقيق هلال مصيلحي مصطفى هلال دار الفكر بيروت 1402 ج3 ص56.الفواكه الدواني أحمد بن غنيم بن سالم النفراوي المالكي دار الفكر بيروت 1415هـ ج2 ص305.شرح عمدة الأحكام تقي الدين أبي الفتح ابن دقيق العيد دار الكتب العلمية بيروت ج1 ص84. شرح النووي على صحيح مسلم أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرّي النووي دار إحياء التراث العربي بيروت 1392 ط2 ج2 ص212. نيل الأوطار محمد بن علي بن محمد الشوكاني دار الجيل بيروت 1973هـ ج1 ص126. كتب ورسائل وفتاوى ابن للفقه أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس تحقيق عبد الرحمن محمد قاسم العاصمي النجدي الحنبلي مكتبة ابن تيمية ج20 ص44 .121. التمهيد لابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب 1387هـ ج18 ص68. شرح الزرقاني محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني دار الكتب العلمية بيروت 1411 ط1 ج2 ص19.

2 الأعراف 171.

3 الشمس7. 8.

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .[1]

فهذه الوسطية مثلما قال سيّد قطب[2] يمكن أن تكون بمعنى الحسن والفضل أو بمعنى الاعتدال والقصد أو من الوسط بمعناه المادي الحسي.

أمّا الفجور والتقوى فيرجعان إلى خيارات الإنسان انطلاقا من قول الرسول عليه الصلاة والسلام «كُلٌّ عَامِلٍ مُيَسَّرٌ لِعَمَلِهِ».[3] فمن اختار الفجور فسيجد الطريق مفتوحا أمامه فتزيّن له الأمور ويخيب بذلك عمله، ومن اختار التقوى سيبارك الله له عمله ويسره له ويزيده من فضله.

هذا عن الفطرة وسلامة سلوك الإنسان واعتداله ووسطيته في مراحل الولادة الأولى. لكن الإنسان له سنّ معيّنة يمكن أن يتحوّل فيها من الفطرة إلى حالات أخرى بين الصلاح والمسالمة وبين الفساد والعدوانية، فقد جاءت إشارة إلى ذلك في الحديث النبوي الشريف، حيث يوصي الرسول عليه الصلاة والسلام بتعليم الصبي تعاليم السلم والخير، وإبعاده عن مظاهر العدوان ابتداء من الفترة السنّية الممتدّة بين السنوات السبع حتّى العشر.[4] وقد ركّزت على هذه التوصية بالذات ولو أنها جاءت في باب الحديث عن الصلاة ذلك لأنّ الصلاة هي رياضة النفس، وهي التي تضبط سلوك الإنسان وتوجّهه إلى الأحسن وذلك طبقا لما جاء

---

[1] البقرة143.

[2] ينظر في ظلال القرآن تفسير سورة البقرة المجلّد الأول ج2 ص124..

[3] صحيح مسلم ج 16 ص169.

[4] نصّ الحديث مذكور في سنن الدارمي أبو محمد الدارمي تحقيق أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي دار الكتاب العربي بيروت 1407هـ ط1 ج1 ص393.سنن الترمذي ج2 ص259.سنن البيهقي ج3 ص83. الكافي في فقه ابن حنبل عبد الله بن قدامة المقدسي أبو محمد تحقيق زهير الشاوش المكتب الإسلامي بيروت 1988م 1408 ط5ج4 ص155.المغني عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد دار الفكر بيروت 1405 ط1 ج9 ص23.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنْكَرِ﴾ .[1] فهذا تأكيد واضح على أهمية الصلاة في صياغة سلوك الإنسان، كذلك الصلاة هي تعبير عن خضوع الإنسان بدليل كونها الركن الثاني من أركان بيان إسلام المسلم وهو ربط واضح بين الفطرة والإسلام أو بالأحرى وفيما يخص موضوع البحث فهو ربط واضح بين الدين والفطرة والمسالمة، وذلك ما هو مجسّد في الآية السالفة الذكر ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وبحسب ما رأى صاحب كتاب الإسلام والفطرة فهنالك ربط "بين فطرة النفس البشرية، وطبيعة هذا الدين وكلاهما من صنع الله، وكلاهما موافق لناموس الوجود، وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه.

والله الذي خلق القلب البشري، هو الذي خلق له هذا الدين، ليحكمه ويصرفه، ويطِبّ له من المرض، ويقوّمه من الانحراف، وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير. والفطرة ثابتة والدين ثابت ولا تبديل لخلق الله.

فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة، لم يردّها إليها إلاّ هذا الدين المتناسق مع الفطرة، فطرة البشر وفطرة الوجود.. والتوجيه بإقامة الوجه للدين القيّم، ولو أنّه موجّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلاّ أنّ المقصود به جميع المؤمنين. لذلك يستمرّ التوجيه لهم مفصّلا".[2]

---

[1] العنكبوت 45.

[2] الإسلام والفطرة ص24.

2. إتّباع الآباء:

انطلاقا مما جاء في الحديث السابق عن الفطرة، نلاحظ أن من أهم الأشياء التي تتدخّل مباشرة في تغذية سلوك الإنسان وتعمل بفعالية على صياغته وتوجيهه إتّباع الآباء أو ما يسميه السلوكيون التعلم الاجتماعي.[1] هذا التعلّم قد يحدث دون ترتيب مباشر أو دون تأثير مباشر للظروف البيئية، وإنما من خلال الملاحظة أو ما يسمى (التعلم بالمحاكاة) أو (النمذجة)؛ أي السّير على خطى ومناهج مرسومة مسبّقا وجاهزة، تمثّلها المعتقدات والعادات والتقاليد والأحكام العرفية أو المتعارف عليها بين أفراد المجتمع لتسيير أمورهم والتعامل فيما بينهم، ولو كانت كلّ هذه المبادئ خاطئة وبعيدة كلّ البعد عن المنطق والصواب والعقل، وهذا ما أشارت إليه آيات الذكر الحكيم، حيث جاء ذكر ووصف لتقليد الآباء ومحاكاة أفعالهم وسلوكهم، وذلك في آيات متعدّدة. والآيات الأولى هي التي تتميّز بوجود حوار متبادل بين طرفين، طرف له دعوة إلى إتّباع أوامر الله عزّ وجلّ المؤكّدة على فعالية العقل والمنطق، وطرف يرفض هذه الدعوة ويصر على إتّباع آبائه، وقد ظهر ذلك في آيات ثلاث وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ .[2] وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا

[1] ينظر الدافعية والانفعال ص27.

[2] لقمان 21.

يَهْتَدُونَ ﴾ .[1] وفي قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ .[2]

ويمكن إجمال هذه الآيات في هذا الجدول:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ	اتَّبِعُوا	مَا أَنزَلَ	اللَّهُ	قَالُوا	بَلْ نَتَّبِعُ مَا	وَجَدْنَا	عَلَيْهِ آبَاءَنَا	الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ	
					أَلْفَيْنَا		أَوَلَوْ	آبَاؤُهُمْ لَا	يَعْقِلُونَ
	تَعَالَوْا إِلَى		اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ		حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا		كَانَ		يَعْلَمُونَ
									شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ

والملاحظ على هذه الآيات الثلاث هو طريقة الدعوة إلى ما أنزل الله، وطريقة الرد على هذه الدعوة، فهنالك نوع من التدرّج والترقّي في فعل الدعوة إلى التعاليم الجديدة، ففي آيتين كانت الدعوة عن طريق الأمر بفعل ﴿ اتَّبِعُوا ﴾ فالزمخشري

[1] البقرة 170.

[2] المائدة104.

في الكشّاف يرى بأنّ الضمير هنا هو "للناس وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم، لأنه لا ضال أضل من المقلد".[1] ومن ثمّة جاءت إجابتهم ﴿بَلْ نَتَّبِعُ﴾ فكانت الإجابة مقابلة وفيها نوع من التحدّي والرفض الواضح من خلال استعمال "بل" فدورها الرئيس داخل التركيب اللغوي هو الإضراب عن القول الأول، وإثبات للقول الثاني.[2] ومن ثمّة فهو إضراب عن إتّباع التعاليم الجديدة، وإثبات لفعل التقليد وبتحدّ وإصرار. بينما في الآية الثالثة فطريقة الدعوة إلى تغيير أفكارهم جاءت بطريقة فيها نوع من الابتعاد عن الأمر بالقوة بل بنوع من الليونة ﴿تَعَالَوْا إِلَى﴾ فكانت ردّة فعلهم فيها كذلك نوع من اللين ﴿حَسْبُنَا﴾ . وهو ما يشير مبدئيا إلى مقابلتهم في ردود أفعالهم اللغوية بين الألفاظ التي توحي بالتغليظ، والألفاظ التي فيها تليين يقابلها اللين.

وقد يظهر الإنسان في غالب الأحيان إصراره على عدم مخالفة آبائه ظنّا منه بأنّ سلوكهم هو الأصلح، من باب الاقتداء بهم وهو ما جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ .[3] بل قد يتعدّى بهم الأمر ليس إلى أن يكونوا القدوة فقط، بل ومصدر هدايتهم

[1] الكشّاف ج1 ص356.

[2] ينظر الصاحبي في فقه اللغة ابن فارس ص64.

[3] الزخرف الآية23.

وسبيل نجاتهم، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .[1]

إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ	مُقْتَدُونَ
	مُهْتَدُونَ

فهذا بمثابة الإصرار على عدم مراجعة سلوك آبائهم، والتمييز بين ما هو صالح منه وما هو فاسد، وقد ظهر ذلك جليّا من خلال تأكيدهم مرّتين على فعلهم باستعمالهم لـ "إنّا" (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ) فهي تفيد توكيد الخبر وتقريره[2] وهم بقولهم هذا يؤكّدون على تقليد آبائهم وعلى صلاحية منهجهم، ويقرّون في الإطار نفسه على كونهم قدوتهم ومصدر هدايتهم، ومردّ ذلك كما قال أبو السعود في تفسيره "هو عجزهم التام عن إقامة الحجة، وتشبّثهم بذيل التقليد، وتمّ تخصيص المترفين بتلك المقالة، للإيذان بأن التنعّم وحب البطالة، هو الذي صرفهم عن النظر إلى التقليد".[3] وقد يتعدّى الأمر إلى أن يصنّفوا سلوكهم الفاسد في دائرة ما حصّلوه من آبائهم، وهو امتداد لأوامر الله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .[4]

وذلك ما ذهب إليه الزمخشري بالقول في تفسيره لهذه الآية فالفاحشة "ما تبالغ

---

[1] الزخرف22.

[2] ينظر شرح قطر الندى أبو محمد بن هشام الأنصاري تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة الطبعة الحادية عشر 1383هـ ص 148.

[3] تفسير أبي السعود ج8 ص44.

[4] الأعراف الآية28.

في قبحه من الذنوب، أي إذا فعلوها اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم، وبأن الله تعالى أمرهم بأن يفعلوها، وكلاهما باطل من العذر لأن أحدهما تقليد والتقليد ليس بطريق للعلم. والثاني: افتراء على الله وإلحاد في صفاته، كانوا يقولون: لوكره الله منا ما نفعله لنقلنا عنه".[1]

وحتّى لو كانت مناهج الحياة التي تقدّم إليهم وتعرض عليهم فيها من الجدّة والمنفعة والفعالية عمليا ما يجعلها أفضل بكثير مما كانوا يتبعون فهم يرفضونها ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ .[2] وفي هذا الإطار يرى صاحب كتاب المواقف من خلال تفسيره لهذه الآية "أن الهدى أنواع، كما أنّ الضلال أنواع. الموصوفين بالهدى والضلال أنواع: فمهتد، وأهدى، وأعظم هدى، وضال، وأضل، وأعظم ضلالا. فالمهتدي هو الذي حصل على الهداية بالدليل العقلي والبرهان، والأهدى هو الذي حصل على الهداية بتصديق الرسل والإيمان، والأعظم هدى هو الذي حصلت له الهداية بالكشف والعيان.

والضال هو الذي شبّه الحقّ بمخلوقاته تشبيها مطلقا أو نزّهه تنزيها مطلقا وما اهتدى إلى الجمع بينهما بمعرفة مرتبة كل واحد منهما. والأضلّ هو الذي صوّر إلهه بصورة محسوسة كعابد الشمس والنار والأحجار والملائكة والجن.. والأعظم ضلالا هو المعطّل للخالق _تعالى_ والذي وجدوا عليه آبائهم هو عبادة الصور من

[1] ينظر الكشاف ج2 ص436..

[2] الزخرف24.

الأوثان والأصنام.. فالكل مجتمعون في الضلال، بمعنى الحيرة في طلب الحق _تعالى_.. فما انفك مخلوق أي مخلوق كان حتّى المخلوق الأوّل عن الضلال يعني الحيرة في الذات العلية، ولكن الضالون متفاوتون في الضلال".[1]

3. الـــطبع:

ومن الآية السابقة أي قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.[2] يتمّ المرور إلى مفهوم آخر أو إلى مصطلح يتدخّل مباشرة في بناء سلوك الإنسان، فالأمر قد تعدّى مرحلة كونه إتّباع للآباء وكفى بل أصبح راسخا ومتأصّلا في نفسيات البشر وأصبح من طباعهم بفعل التقليد والممارسة المتكرّرة والمستمرّة، وبذلك ظهر مصطلح "الطبع" ومعناه لغة أن تصوّر الشيء بصورة معيّنة. ومن مفهوم التصوير جاء وضع الطبع والطبيعة للدلالة على السجيّة والتي تعني نقش النفس بصورة ما من حيث الخِلقة أو من حيث العادة. ويستعمل الطبع كذلك للدلالة على الملأ فيقال طبعت المكيال بمعنى ملأته، والطبع المطبوع أي المملوء.[3]

فالطبع هو تلك الملامح التي يصنعها الإنسان في نفسه، ويختلف في البشر من حيث القوّة والضعف بالرجوع إلى طريقة إدراك الإنسان لعالمه الخارجي،

---

[1] المواقف ج1 ص310.

[2] الزخرف الآية24.

[3] ينظر مفردات في غريب القرآن مادة (طبع) ج2 ص301.

والكيفية التي يتفاعل بها الفرد مع بنية العالم الذي ينتمي إليه، وفقا لما تمليه عليه حواسه ويكون ذلك بالتدريج.[1]

وبذلك يمكن القول بأنّ الطبع يصنف من حيث الدراسة السلوكية[2] في باب التعلّم المعرفي والذي في مجمله يدور حول كيفية إدراك الشخص للأحداث البيئية، وتفسير الشخص ذاته لسلوكه وتبريره له، وأنماط التفكير لدى الشخص، والتحدث إلى الذات، انطلاقا من استعداداته البيولوجية المرتبطة بحالته العضوية.

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر لفظ "الطبع" بتصريفاته المختلفة وتكرّر 11 مرّة. وكان على صيغة طَبَعَ في أربع آيات هي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3] وقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4] وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ*أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ

[1] ينظر فيما يخصّ معاني كلمة (الطبع) كتاب المقدمة عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون دار إحياء التراث العربي ص577. وينظر كتاب. Science et comportement humain p25 .وينظر تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ص17. وينظر الشخصية مقوّماتها ص20.

[2] ينظر الدافعية والانفعال ص24. وينظر بنو الإنسان ص22.

[3] النساء 155.

[4] التوبة 93.

الْغَافِلُونَ﴾[1] وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.[2]

ويمكن تمثيل هذه الآيات في الجدول الآتي:

وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ	طَبَعَ اللَّهُ		عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا
رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ		عَلَى قُلُوبِهِمْ	فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
أُولَئِكَ الَّذِينَ			وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ
أُولَئِكَ الَّذِينَ			وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ

والملاحظ على هذا الجدول هو أنّ فعل "طبع" جاء بصيغة الماضي، وهذا الفعل يختصّ به الله سبحانه وتعالى، فالله هو الذي قام بفعل الطبع، مع التركيز على الجزء المخصوص الذي يقع عليه فعل الطبع، وهو في هذه الحالات الأربع يقع على القلب أضيف له في آية واحدة السمع والبصر وهي إشارة إلى حاستين يتميّز بهما الكائن الحي عوض القلب الذي يمثّل عضوا بحدّ ذاته. وتتحدّد مآلات أو مخارج الطبع بحسب الجدول إلى حالات أربع هي: الكفر وقلة الإيمان، عدم العلم، الغفلة وإتّباع الأهواء.

الصيغة الثانية في الطبع هي المضارعة للغائب أي ﴿يَطْبَعُ﴾ وجاءت في ثلاث آيات هي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا

[1] النحل الاية108.

[2] محمد الآية16.

كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ .[1]

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .[2] وقوله: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .[3]

ويمثّل ذلك كالآتي:

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى	قُلُوبِ	الْكَافِرِينَ
		الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
	كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ	

ويمكن تدعيم القول السابق بهذا الجدول بأنّ الطبع هو فعل من أفعال الله ولا يقع إلاّ على القلب. وهنا ظهور الإشارة إلى طبيعة القلوب التي يقع عليها الطبع أو بالأحرى القلوب التي لها القابلية والمهيأة ليقع عليها فعل الطبع، وهي التي يمتلكها بحسب هذه الآيات كلّ من الكافرين، والجاهلين الذين لا يعلمون والمتكبّرين الجبّارين.

ثمّ جاءت آيتان بصيغة المضارعة للمتكلّم ﴿نَطْبَعُ﴾ في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .[4] وقوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى

[1] الأعراف الآية101.

[2] الروم الآية59.

[3] غافر الآية35.

[4] الأعراف الآية100.

قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .[1]

كَذَلِكَ	نَطْبَعُ عَلَى	قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ
وَ		قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ

وهنا كذلك توكيد على أنّ الطبع يقع على القلوب، ومن القلوب التي لها قابلية الطبع قلوب المعتدين ومن ثمّة يتجلّى لنا لفظ العدوان. كما أنّ من وقع فعل الطبع على قلبه فهو لا محالة فاقد للإحساس بالسمع. فهنالك ربط واضح بين الطبع على القلوب وفقدان الحواس أرجعه أبو حامد الغزالي إلى أنّه "مهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستهين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصورا له ما عليها. فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك.. وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب..." [2]

وآخر آيتين في باب الطبع جاءتا بصيغة البناء للمجهول ﴿طُبِعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ . [3] وفي قوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ . [4] وفي

---

[1] يونس الآية74.

[2] إحياء علوم الدين ج3 ص3.

[3] التوبةالاية87.

[4] المنافقون الآية3.

كلتا الآيتين تدعيم لوقوع الطّبع على القلب دائما بالإضافة إلى ذلك فمن وقع عليه الطّبع فهو من الذين لا يفقهون.

ولذلك يؤكّد الرسول عليه الصلاة والسّلام على صلاح الجسد بصلاح القلب، وفساده بفساد القلب كذلك حيث قال صلّى الله عليه وسلّم (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وان فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب).[1] وفي هذا الاتجاه كذلك نلاحظ بأنّ الفكر المسيحي[2] يركّز على صلة القلب المباشرة بسلوك الإنسان، حيث يقال بأنّ المسيح عليه السلام أشار إلى ذلك، لكن ركّز على الجانب السيئ من الأفعال بالقول بأنّ الأفعال الفاسدة والشريرة مصدرها القلب.

4. مـــرض القلـــوب:

ذكر المضغة الفاسدة والمضغة الصالحة يقودنا مباشرة إلى الحديث عن طبيعة الحالة التي آل أليها القلب بعد فعل إتّباع الآباء فيه وغلبة الطبع علية، فالقلب في حالته الطبيعية هو ذلك القلب السليم الذي يذكّرنا القرآن الكريم بمنفعته لنا ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ *إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .[3] وبطبيعة الحال، فالقلب السليم، هو ذلك القلب الذي يمكنه إدراك الحقائق، عن طريق التفكير والتأمل في طبيعة هذا الكون، كما فعل إبراهيم عليه السلام الذي

---

[1] صحيح البخاري ج1 ص28. صحيح ابن حبّان ج1 ص532. شرح النووي ج11 ص27. سنن البيهقي الكبرى ج5 ص264.

[2] ينظر كتاب حرية من الأفكار الخاطئة لجي هندريك أرنولد ترجمة داليا وهيب PTW نيويورك 1997.

[3] الشعراء الآية88. 89.

استطاع إدراك المعارف وحقائق الوجود بالتأمّل والوحي وذلك لامتلاكه قلبا سليما ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ*إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .[1] ذلك القلب السّليم الذي جعله لا يتبع آباءه ويتبرأ مما يعبدون ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ .[2]

لكن كلّما وجد قلب سليم إلاّ وقابله قلب مريض تغلب عليه شهواته فيصبح منقادا لها دون تفكّر ولا تدبّر، وقد جاء في القرآن الكريم ذكر القلب في علاقته بالمرض في تركيب لغوي تمثّل في قوله تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ .[3] وتكرّر هذا التركيب في عشر آيات، تشير أغلبها إلى الطريقة التي كان يتصرّف بها من في قلوبهم مرض. وقد أشار القرآن الكريم إلى الحالات التي صارت عليها القلوب بعدما تمكّن منها المرض وبعد ما أصابها بفعل تتابع فعل الطبع عليها مع مرور الزمن فأصبحت بمرضها هذا قاسية كالحجارة ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .[4] ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ .[5] فهنالك علاقة واضحة بين طول الأمد وقسوة القلوب، وعن هذه العلاقة ذهب الرازي إلى القول بأنّ فيها "وجوها أحدها: طالت المدة بينهم وبين أنبيائهم فقست قلوبهم. وثانيها: مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله. وثالثها: طالت أعمارهم في الغفلة فحصلت القسوة في قلوبهم بذلك السبب. ورابعها: الأمد ههنا الأمل البعيد، والمعنى على

---

[1] الصافات الآية83. 84.

[2] الزخرف الآية 26.

[3] البقرة الآية10.

[4] الحديد الآية16.

[5] البقرة74.

هذا طال عليهم الأمد بطول الأمل، أي لما طالت آمالهم لا جرم قست قلوبهم. وخامسها: طال عليهم أمد خروج النبي عليه السلام. وسادسها: طال عهدهم بسماع التوراة والإنجيل فزال وقعهما عن قلوبهم فلا جرم قست قلوبهم، فكأنه تعالى نهى المؤمنين عن أن يكونوا كذلك".[1] أمّا عن طبيعة قسوة القلوب فهنالك تشبيه لها بالحجارة تشبيه كان مباشرا بالكاف "كالحجارة" ووصف القلوب بالقسوة مفاده مثلما قال الزمخشري "لبعدها عن الاعتبار وأنّ المواعظ لا تؤثر فيها. وقد عطفت الشدّة على الكاف والمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلاً. أو من عرفها شبهها بالحجارة، أو قال: هي أقسى من الحجارة. فإن قلت: لم قيل: أشد قسوة، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب؟ قلت: لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة. ووجه آخر: وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة، كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشدّ قسوة. وفي ذلك بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدّة القسوة".[2] قسوة جعلت القلوب تلجأ إلى تغطية الأمور بكفرها، فهي قلوب بَعُدَتْ وتغطّت وغيّب دورها الذي خلقت لأجله وهو الإحساس والإدراك ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ .[3] وأصبحت قلوبا غير صالحة لأنّها مخفية ومكنونة ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ .[4] أو بتعبير آخر هي قلوب عليها أغلفة ﴿وَقَالُوا

---

[1] تفسير الرازي ج29 ص462.

[2] الكشاف ج1 ص286.

[3] الحج الآية 46.

[4] الأنعام الآية25.

قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ .[1] هذه القلوب المتحجّرة المغطّاة المغلّفة أصبحت بعيدة كلّ البعد عن مصادر المعرفة والإدراك ففقدت فعاليتها في تحصيل المعارف فهي بذلك قلوب أصحابها ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ .[2] والقلب الذي فقد كلّ معالم الإدراك، وبعدت عنه كلّ أبواب المعرفة، هو لا محالة قلب مائل كلّ الميل عن الاستقامة وعن الحقائق وذلك ما أشار إليه القرآن الكريم بكلمة زيغ في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ .[3] وبذلك فالإنسان الذي وصل إلى مرحلة غابت فيها عنه وسائل الإدراك التي قد تمكّنه من المعرفة، فهو معرّض لظهور سمات الإحباط* الأوّلية عليه، فعدم قدرته على المعرفة وإدراك الحقائق سوف يسبب له الحسرة أو كما قال تعالى ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ .[4] والإنسان المتحسّر المحبط تجده يعيش حياة ممتلئة بالشكوك والظنون، وقلبه غير مطمئن ودائم الاضطراب، وكيانه مهتز وقراراته كلّها يشوبها نوع من التردّد ذلك لأنّ هذا النوع من الناس كما صوّرهم القرآن الكريم قد ﴿ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ .[5] هذا الإحباط وهذه الحسرة والتردد، قد يجعلان الفرد فاقدا للثقة غير متقبل للأمور رافضا لها، وهي حالة يمكن وصفها بحالة الإنكار والتي مثّلت في الذكر الحكيم بكلمة

---

[1] البقرة 88.

[2] الأعراف الآية 179.

[3] آل عمران الآية 7.

*فيما يخص مفهوم الإحباط فقد جعله عديد علماء النفس مصدرا للسلوك العدواني، وينتج من عدم قدرة الفرد على إشباع رغباته أو عندما يفشل في تحقيق رغباته ينظر سيكولوجيا العدوان ص30.

[4] آل عمران156.

[5] التوبة الآية 45.

(القلوب المنكرة) في قوله تعالى: ﴿ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ .[1] كل هذه السلبيات تجعل من سلوك الإنسان يأخذ منحنيات نازلة إلى الأسوأ، سلوك يتميّز بالاختلال والاضطراب لأنّه يصدر عن فكر مشوّش تسوده في غالب الأحيان الغفلة، وهي سمة يمكن أن توجد في القلب كذلك وذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ .[2] فإنّ الغفلة كما فسّرها أبو السعود[3] تؤدّي بصاحبها إلى الإفراط والتفريطِ، وتؤدّي إلى إتّباع الهوى المؤدِّي إلى التجاوز والتباعُدِ عن الحق والصواب. ولا تكون القلوب في غفلة إلى إذا كانت قلوبا ﴿ لَاهِيَةً ﴾ .[4] وهذه أغلب سمات القلوب المريضة والتي تدفع بصاحبها إلى إصدار سلوك مخالف للسلوك المقبول من الناحية الاجتماعية، والذي يمكن أن يوصف بالعدوانية والاندفاع غير المدروس، أو غير المتحكم فيه والذي يشبه ذلك السلوك الذي يصدر عن الكفّار الذين تتميّز قلوبهم بالحمية والذين قال فيهم الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ .[5] وهي من أكبر حالات العدائية التي شهدها التاريخ.*

---

[1] النحل الآية 22.

[2] الكهف الآية 28.

[3] ينظر تفسير أبي السعود ج5 ص218.

[4] الأنبياء الآية3.

[5] الفتح الاية26.

* الحمية كما شرحها كتاب التبيان في تفسير غريب القرآن هي الأنفة والغضب. بينما فسّرها الراغب الأصفهاني على الحَرَارَة المُتَوَلدَة منَ الجَوَاهِرِ المَحْمِيَّةِ كالنار والشمس وَمنَ القُوَّةِ الحارَّةِ في البدن. وَيعُبِّرَ بها عن القوَّة الغَضَبِيَّةِ إذا ثَارَتْ وَكَثُرَتْ بِالْحَمِيّةِ فقيلَ حَمِيتُ على فلانٍ أي غَضِبْتُ عليه. مفردات في غريب القرآن ج1 ص132. وقال الزهري: حميتهم: أنفتهم عن الإقرار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم، والذي امتنع من ذلك هو

5. إتّباع الأهـــــواء:

والقلوب المريضة تؤدّي بأصحابها للوصول إلى مرحلة يصبحون فيها تحت سيطرة الأهواء، هذه الأهواء التي ستؤدّي بهم إلى فساد قراراتهم واتجاه أحكامهم إلى الخطأ في تقييم الأمور. وقد جاء ذكر هذا اللّفظ في القرآن الكريم في آيات عديدة وبصيغ مختلفة وبداية الأمر كانت مع ذلك العناد والرّفض الذي يخلقه إتّباع الهوى والذي أدّى بأصحابه إلى عدم قبول الفكر الجديد أو بالأحرى التعاليم الجديدة ﴿كُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ .[1] ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ .[2] ويمكن إيجاز ما جاء في هذين الآيتين كالآتي:

كُلَّمَا	جَاءَكُمْ	رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى	أَنفُسُكُمُ	اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ
	جَاءَهُمْ		أَنفُسُهُمْ	فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ

والشيء الملاحظ، هو أن السّبب الأوّل أو الدّافع الرّئيس للرّفض هو عدم توافق ما تهوى الأنفس مع المعطيات الجديدة، أو مع ما يقدّمه الرّسل، ولو كانت هذه المعطيات صائبة، وفيها صلاح للنّفس البشريّة. وكما هو مشار إليه في المعاني اللّغوية لكلمة الهوى فهي بين الهبوط والسقوط والميل إلى الشيء ويمكن أن

سهيل بن عمرو. وقال ابن بحر: حميتهم: عصبيتهم لآلهتهم، والأنفة: أن يعبدوا وغيرها. وقيل: قتلوا آباءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا في منازلنا، واللات والعزى لا يدخلها أبداً؛ وكانت حمية جاهلية لأنها بغير حجة وفي غير موضعها، وإنما ذلك محض تعصب لأنه صلى الله عليه وسلم إنما جاء معظماً للبيت لا يريد حرباً ينظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي دار الفكر.

[1] البقرة الآية87.

[2] المائدة الآية70.

يتحمّل كذلك معنى الإسراع. ويقال بأنّ الهَوَى في الإنسان "هو محبتهُ للشيء وغَلَبَتُه على قلبه وذلك بميل نفسه إلى الملذّات* من الشهوات من غير داعية الشرع أو هو بنزوع نفسه لسفل شهواتها".[1] وبالرجوع إلى الجزء الأخير من الجدول نجد بأن الأشياء التي لا تميل إليها النفس تقابل بالرفض في أقصى درجاته، رفض ناتج عن الاستكبار يؤدّي إلى ردود فعل عدوانية تتمثّل في التكذيب بالدرجة الأولى، وقد يتعدّى فعل التكذيب إلى القتل ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

والإنسان كلّما اتبع هواه فهو لا محالة نازل إلى أدنى مستويات الإنسانية والحياة. وقد يستمرّ به هذا النزول إذا لم يعدل عنه حتّى يصل به إلى هلاكه وذلك ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾.[2] فالمعنى هنا كما قال الرازي في تفسيره[3] هو الإنكار الناتج عن إتّباع الهوى لا لدليل، وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد لأن المقلد متبع للهوى لا الحجة ومن ثمّة الهلاك ودلالته التردّي. والهلاك الحقيقي، هو أن يتحوّل الإنسان من عبادة الله سبحانه وتعالى إلى عبادة أهوائه ﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾.[4] فالهوى كما يقول صاحب المواقف هو ميل النفس إلى ما يضرّها أو يهلكها رأسا وفي هذا الموقف "وصف للنفس وهي

*هنالك من النظريات ما هو قائم على مبدأ اللذة والتي ترى أنّ الإنسان يسعى إلى تحصيل اللذة وإتّباع الملذات وتجنّب الألم، وتلعب البيئة دورها من خلال إثارتها فطريا ففيها مثيرات يستلذها المرء فيقبل عليها وأخرى يمجها فيعمل جاهدا على تلافيها. ينظر الدافعية والانفعال ص23.

[1] التبيان في تفسير غريب القرآن شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري تحقيق د. فتحي أنور الدابولي دار الصحابة للتراث طنطا القاهرة 1992 ط1 ص377.

[2] سورة طه الآية 16.

[3] ينظر تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) الفخر الرازي دار إحياء التراث العربي ج22 ص24.

[4] الجاثية الآية23.

موصوفة به، وحيث كان الهوى صفة قاهرة، أمرها نافذ وحكمها مطاع، تنوسيت النفس الموصوفة به، وصار الذكر والحكم له.. أي جعل ما يجب على الإنسان ويلزمه في حق إلهه وخالقه من الطاعة وكمال الانقياد وامتثال الأوامر لهواه. وجعل ما يحب أن يقابله الهوى من العصيان وعدم الانقياد والنفور عن سماع الأوامر الإلهية. فعكس القضية، فعظمت الرزيّة.. فيقال الهوى إلهه، من حيث أنّه مطاع نافذ الأمر في الإنسان، ولذا قيل: ما عبد شيء من دون الله _تعالى_ أعظم من الهوى، وهو الثائر على الروح في مملكته الإنسانية، فيفسدها عليه دائما، فالهوى كالهواء، فراغ ومن اتبع الهوى حصل على الهواء وأضلّه الله على علم".[1]

أضف إلى ذلك فالذي يجعل نفسه تحت إمرة الهوى أو بشكل آخر من يوكل أموره لهواه نظرا لكونه إلهه، فهو لا محالة في خسران دائم، لأنّه سيبني حياته على الظنون والاعتقادات الفاسدة﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ .[2] ومن ثمّة فالحالة التي سيؤول إليها كلّ متّبع للهوى، دون علم أو محاولة منه للتعلّم بداعي الاستكبار، هي نوع من الضلال، وذلك موضّح وجليّ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .[3] فالكلام مبني على المبالغة وبأسلوب استفهامي (ومن أضلّ) لكن الغرض منه يمكن أن يكون التعجب والتوعّد في الوقت نفسه. وإتّباع الهوى يقود الإنسان إلى الضلال لابتعاده عن النظرة العلمية

---

[1] المواقف ج1 ص388.

[2] النجم الآية23.

[3] القصص الآية 50.

المعرفية ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[1] فهم كما قال صاحب روح المعاني[2] قد ضلوا بأهوائهم الزائغة وشهواتهم الباطلة بغير علم مقتبس من الشريعة مستند إلى الوحي أو بغير علم أصلا. فالنظرة العلمية التي هي طريق الهداية الحقيقي، لا تنال إلاّ بالتوكّل على الله الواحد عزّ وجلّ ﴿ بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾[3]. فهو كما أشار إلى ذلك صاحب كتاب حجج القرآن[4] موضع من المواضع العشرين التي نفى الله فيها الهداية. فالتركيب في الآية يحتمل الدلالة على الاستفهام للإنكار فأصل التركيب ﴿ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ كما أشار إلى ذلك صاحب الإتقان[5] والذي هو في ظاهره استفهام يحتمل دلالته على النفي بصيغة "لا يهدي الله من أضلّه هواه" فالضلال والفساد يرجعان إلى الحالة النفسية للإنسان ومن ثمّة فالهداية والصلاح لا يكونان إلاّ لمن يرغب فيهما.

ولكي يتفادى الإنسان الوقوع في أخطاء قد تفسد مسيرته الحياتية من خلال الانصياع لأهوائه، وترك نفسه تسترسل مع هواها مما يسبب له طمسا على

---

[1] الأنعام الآية119.

[2] ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني محمود الألوسي دار إحياء التراث العربي بيروت ج8 ص14.

[3] الروم الآية29.

[4] ينظر كتاب حجج القرآن لأبي الفضائل أحمد بن محمد بن المختار الرازي تحقيق أحمد عمر المحمصاني دار الرائد العربي بيروت الطبعة الثانية 1982 ص19.

[5] ينظر اتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن محمد بن محمد الغزي تحقيق خليل محمد العربي دار الفاروق الحديثة القاهرة الطبعة الأولى 1415هـ ج2 ص212.

حواسه* يدخل بعده في دوّامة الاضطرابات السّلوكية التي تؤدّي لا محالة إلى إنتاج أفراد غير صالحين وفاسدي الأخلاق. ما عليه إلاّ الرجوع إلى الطريق الصائب، المتمثّل في الابتعاد عن إتّباع الهوى، وذلك ما جاء في الأمر الإلهي المباشر في آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ .[1] وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ .[2] وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .[3] وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ .[4]

ويمكن تفصيل الآيات السابقة التي جاءت في النهي عن إتّباع الأهواء في الجدول الآتي:

<table dir="rtl">
<tr><td rowspan="3">وَلَا تَتَّبِعْ</td><td rowspan="2">أَهْوَاءَ</td><td>هُمْ</td><td></td></tr>
<tr><td rowspan="2">الَّذِينَ</td><td>كَذَّبُوا</td></tr>
<tr><td>لَا يَعْلَمُونَ</td></tr>
<tr><td colspan="3">الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ</td></tr>
</table>

* طمس الحواس مصطلح استعمله محمد الغزالي في كتابه الجانب العاطفي من الإسلام (بحث في الخلق والسلوك والتصوّف) محمد الغزالي دار الدعوة الإسكندرية 1410هـ 1990م ط1 ص126. حيث يرى بأن المجتمع الحالي يغلب عليه الهوى باسترضاء الغرائز الدنيا.(وبالنسبة لي فهذا الأمر موجود منذ القدم وهو موضّح في القرآن الكريم وليس وليد عصرنا الحالي فقط).

[1] المائدة الآية48.

[2] الأنعام الآية150.

[3] الجاثية الاية118.

[4] ص الآية26.

ومن خلال قراءتنا لهذا الجدول نجد بأن المحور الرئيس للآيات هو النهي عن الإتّباع، وكان هذا النهي في البداية بالإشارة إلى الجمع (هم) ثمّ جاء التفصيل بعد ذلك ليبيّن طبيعتهم دون إضمار بل بإظهارهم، فهم بذلك بين التكذيب وعدم العلم. فقد اتبعوا الهوى فقادهم إلى التكذيب، وذلك راجع لعدم علمهم وعدم قدرة عقولهم وقلوبهم على إدراك الحقيقة، ثمّ جاء النهي عن الهوى وإتّباعه مباشرة بالإشارة إليه معرّفا، لأنّه سبب الضلال الأوّل، ففي هذه الآية بالذات كما أشار إلى ذلك الزركشي في البرهان "مقدمتان ونتيجة لأن إتّباع الهوى يوجب الضلال والضلال يوجب سوء العذاب فأنتج أن إتّباع الهوى يوجب سوء العذاب".[1]

ثمّ جاءت الإشارة بعد مرحلة النهي عن إتّباع الهوى، إلى المصير الذي سيلقاه الإنسان الذي انساق وراء هواه، بعد أن وضّح الله له عدم صلاحية هذا الاتجاه الفاسد في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ .[2] وفي قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .[3] وفي قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ .[4]

---

[1] البرهان في علوم القرآن أبو عبد الله الزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعرفة بيروت 1391هـ ج3 ص470.

[2] البقر 120.

[3] البقرة145.

[4] الرعد37.

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ	مِنْ بَعْدِ	مَا	جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ	إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ	
	بَعْدَ	مَا		مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا	وَاقٍ
	بَعْدَ	الَّذِي			نَصِيرٍ

وكما هو ملاحظ حسب المخطط المرسوم في هذا الجدول، توجد إشارة إلى العاقبة التي سيؤول إليها من اتبع الهوى بعد أن أثبت له بالعلم واليقين عدم جدوى ونفعية هذا الاتجاه، فالتركيب من بدايته مشروط بـ "لئن"، والشرط فيه نوع من الترهيب ببيان الحال التي سيكون عليها من خالف هذا الشرط، فالبيان الأوّل لمتبع الأهواء أنّه سيكون من الظالمين، والملاحظ على الإخبار بأنه في حالته الثالثة أي الحالة الإنكارية.[1] فالكلام فيه مؤكّد بمؤكّدين هما "إنّ" و"اللاّم" كما يلاحظ على هذه الآية الأولى استعمال "من" قبل الظرف "بعد" خلافا للآيتين الأخريين، حيث حذف هذا الحرف منهما، وكما هو مصنّف في دلالة حروف المعاني.[2] فالدلالة الأولى لهذا الحرف "من" هي ابتداء للغاية لكن بحسب موقعها في هذا التركيب فهي قد تدلّ على التعجّب، ولذلك جاء الإخبار بحالته الإنكارية تأكيدا وتعجّبا من الحجم الهائل للعلم والآيات المقدّمة والمقنعة والتي لا تترك أي مجال للشك وعدم الاقتناع. أمّا البيان الثاني فهو في الآيتين المتبقيتين وفيه إشارة إلى غياب الوقاية، وزوال الدّعم والنصرة، ومن ثمّة فمتبع الهوى غير محمي، ومعرّض للخسارة لا محالة. والواقي مثلما أشار إلى ذلك الدكتور

[1] ينظر شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي دار الفكر بيروت لبنان ص11.

[2] ينظر حروف المعاني أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجّاجي تحقيق علي توفيق الحمد مؤسّسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى 1984م ص50.

السامرائي[1] أعمّ من النصير، فهو يكون للعاقل أو غيره، فقد يكون من الجمادات أو غيرها. أمّا النصير فلا يكون إلاّ عاقلا قادرا.

كذلك ففي الأوّل كانت الإشارة بوصل الكلام بـ"ما" فهو اسم موصول مشترك، يشترك فيه المذكّر والمؤنّث، المفرد والمثنّى والجمع ويستعمل عادة للتفخيم؛ أي فخامة حجم العلم المقدّم إليهم بالدّلائل ثمّ بعد ذلك كان وصله بـ"الذي" وهو اسم موصول مختص بالمفرد المذكّر ودلالته زيادة تقرير فخامة قيمة العلم الذي قدّم لهم.[2]وردّ الدكتور السامرائي[3] سبب الاختلاف في استعمال الاسمين الموصولين إلى السياق الذي وردت فيه كلمة "العلم" ففي البقرة كان العلم بدين الإسلام وهو ما قابل ملّة اليهود والنصارى، وهو بذلك معلوم. وأمّا العلم في آية الرعد فهو غير معين وغير محدّد. فجاء في العلم المحدّد المعلوم بالاسم الموصول المختصّ. وجاء في غير المعيّن بالاسم الموصول المشترك وفي ذلك تناسب واضح في اقتران المعاني مع بعضها البعض، فوجود النصير المختصّ قابل الاسم الموصول المختص. ووجود الواقي العام قابله الاسم الموصول المشترك. كما النصير أعم في النعمة من الواقي لأنّه إذا نصره فهو لا محالة قد وقاه. فناسب بذلك كلّ تعبير موضعه.

---

[1] ينظر أسئلة بيانية في القرآن الكريم الدكتور فاضل صالح السامرائي مكتبة الصحابة الشارقة الطبعة الأولى 1429هـ 2008م ص19.

[2] ينظر فيما يخص دلالات "ما" و"الذي" كتاب الإيضاح في علوم البلاغة جلال الدين أبو عبد الله بن عمر القزويني دار إحياء العلوم بيروت 1998 ط4 ص16. دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد التنجي دار الكتاب العربي بيروت 1995 ط1 ص158. شرح عقود الجمان ص16

[3] ينظر أسئلة بيانية في القرآن الكريم ص18.

ثمّ جاء النهي عن إتّباع الهوى في القرآن الكريم بصيغة الجمع، وذلك ما يوحي مبدئيا بأنّه تعميم للحالة بعد أن لوحظ وجودها في حالات خاصة سابقة أعطت النتيجة نفسها وهذا ما يمكن القول عنه بأنّه أقصى درجات العلمية في بابها الاستقرائي أي الانتقال من الخاص إلى العام بعد ملاحظة نسبة تكرّر الحالة والنتائج الصادرة عنها. فجاء النهي بصيغة الجمع في قوله تعالى:﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى ﴾ .[1] وفي قوله: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .[2] فهذا نهي عام عن إتّباع الهوى لأنّه مصدر الضلال. وقد أسهب الرّازي في تفسير الآية الثانية، حيث أنّه يرى بأنّ الأهواء هي المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة. ذلك لأنّ لفظ "الهوى إذا ذكر في القرآن الكريم كان مذموما، فالهوى لا يوضع إلاّ في مواضع الشر، فلا يقال: فلان يهوى الخير، إنما يقال: يريد الخير ويحبه. ومن ثمّة سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار. كما أنّ الله سبحانه وتعالى وصف متبعي الهوى بدرجات ثلاث في الضلال، فبيّن أنّهم كانوا ضالّين من قبل ثم ذكر أنهم كانوا مضلين لغيرهم، ثم ذكر أنهم استمروا على تلك الحالة حتى أنهم الآن ضالون كما كانوا، ولا نجد حالة أقرب إلى العبد من اللهو القرب من عقاب الله تعالى من هذه الحالة. نعوذُ بالله منها، ويحتمل أن يكون المراد أنهم ضلوا وأضلوا، ثم ضلوا بسبب اعتقادهم في ذلك

[1] النساء الآية135.

[2] المائدة الآية77.

الإضلال أنه إرشاد إلى الحق، ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الأول الضلال عن الدين، وبالضلال الثاني الضلال عن طريق الجنة".[1]

6. الإقبال على الحياة الدنيا:

إتّباع الهوى ينتقل بنا إلى الحديث عن ميزة أخرى من ميزات سلوك الإنسان، والتي تؤثّر سلبا على تفكيره وتصرّفاته، فكما لاحظنا الأهواء تدفع صاحبها إلى البحث عن إشباع الرّغبات، ومن ثمّة فهو بذلك غارق في الملذّات مقبل على الدنيا بإعجاب، باللهو واللعب، دون وضع حساب لأي شيء آخر. وذلك ما وضّحه لنا الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ .[2] وهذا لا يعني أنّ كلّ النّاس يبتغون الدّنيا ويقبلون عليها دون مراقبة ما تمليه عليهم أهواءهم بل يوجد صنف آخر من النّاس يرفض هذا الاتجاه فالله سبحانه وتعالى صنّف الناس إلى صنفين ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ .[3] ثمّ فصل بين الصنفين الصنف الأوّل هو المحب للدنيا ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ .والثاني وهو الأصلح وهم الذين يعملون لدنياهم لينجحوا في آخرتهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ .[4]

---

[1] تفسير الرّازي مفاتيح الغيب ج12 ص410.

[2] الأعراف الآية51.

[3] آل عمران الآية152.

[4] البقرة الآية201.

فالذين يفضّلون الحياة الدنيا هم أولئك الذين غرّتهم أهواءهم وانساقوا وراءها فأقبلوا على زينة الحياة الدنيا ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ .[1] وهذا التزيين خلق فيهم نوعا من الغرور المرضي ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ .[2] وكلّ ذلك الغرور راجع بحسب ما جاء في القرآن الكريم إلى حبهم الشديد لهذه الحياة الدنيا إلى درجة رضاهم واطمئنانهم بها ﴿ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ .[3] ذلك الاطمئنان الذي عبّر عنه الألوسي[4] بأنّ المراد به أنهم سكنوا فيها سكون من لا يراح له، آمنين من اعتراء المزعجات غير مخطرين ببالهم ما يسوئهم من العذاب. فسلوك من أحب الدنيا "فحبه رأس كل خطيئة، لأنه انهمك في المعاصي والآثام وتابع الهوى والإجرام ولم يبال بما جمع من الحرام، إن تهدد بالعذاب لم يرهب، وإن رد إلى الخير لم يرغب، حمله حب الدنيا على هذا، فهو في سكرته يتمادى".[5] وتلك هي خياراتهم تفضيلهم لهذا النمط من الحياة ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾ .[6] هذه الحياة التي من تبعها فقد أقحم نفسه في باب الانصياع للشهوات وزجّ بحياته في اللعب واللهو ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ .[7] وإنما قدم اللعب في الأكثر مثلما فسّر ذلك صاحب البرهان لأن

---

[1] البقرة212.

[2] الأنعام الآية 130.

[3] يونس الآية 7.

[4] روح المعاني ج11 ص72.

[5] ينظر كتاب شرطي التعريف في فضل جملة العلم الشريف محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن عبد الله دار المنهاج جدّة الطبعة الأولى 1997 ص92.

[6] النحل الآية107

[7] الأنعام الآية32.

البرهان[1] لأن اللعب زمان الصبا، واللهو زمان الشباب، وزمان الصبا متقدم على زمان الشباب. مع العلم أنّ تلك الحياة الدنيا لا تعدو أن تكون مجالا وميدانا للعب واللهو، وذلك ما وجّهنا إليه القرآن الكريم وذكّرنا به الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ ليختتم الآية بالتأكيد على أنّ هذه الحياة الدنيا ما هي ﴿ إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ .[2] فالغرور كما قال الراغب[3] هو كل ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان. وقد أعطاه أبو حامد الغزالي تعريفا جميلا في كتابه إحياء علوم حيث قال فيه "الغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد أنه خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه".[4] أمّا أمّا عن الكيفية التي يتجسّد بها إتّباع الأهواء في هذه الحياة الدنيا، فذلك يتمثّل في حبّ الإنسان لملذّاتها والتي زُيّن له الإقبال عليها كما هو موضّح في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ .[5] فحب الحياة الدنيا هذا كذلك يجعل الإنسان يخطئ في تصرّفاته فيصبح سلوكه منحرفا فيبتعد بذلك عن الطريق الصحيح، ويحاول

---

[1] ينظر البرهان في علوم القرآن ج1 ص121.

[2] الحديد الآية 20.

[3] ينظر مفردات في غريب القرآن ج2 ص358.

[4] إحياء علوم الدين ج3 ص324.

[5] آل عمران الآية14.

إبعاد الآخرين معه ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ .[1] وحتّى الصراعات القائمة بين الناس والتناحر فيما بينهم سببها أو علتها الأوّلى، هي محاولة إشباع الرّغبات والحصول على المتعة، ولو على حساب الآخرين، بتجاوزهم وذلك ما جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .[2] فالبغي بحسب ما فسّره الراغب هو "طلب تجاوزِ الاقتصاد فيما يُتَحَرَّى؛ تجاوزه أو لم يتجاوزه، فتارة يعتبر في القدر الذي هو الكمية، وتارة يعتبر في الوصف الذي هو الكيفية يقال بغَيْتَ الشَّيْء إذا طلبت أَكثر ما يجب".[3] وكل مقبل على هذه الحياة الدنيا فهو خاسر لا محالة، وهؤلاء المقبلون هم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى ﴿ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ .[4] فهو خسران في الدنيا والآخرة.

ولكي ينجح الإنسان في حياته، يجب عليه أن يبتعد عن ملذّات هذه الدّنيا، وهو أمر واضح كلّ الوضوح من الله عزّ وجلّ إلى الناس أجمعين في قوله: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ .[5] فتلك الأشياء التي قد تبدوا للإنسان للإنسان جميلة، ففي الواقع هي مجرّد متعة زائلة أراد الله بها إلاّ فتنتهم* وقد

---

[1] إبراهيم الآية3.

[2] يونس الآية23.

[3] مفردات في غريب القرآن مادة "بغي" ج1 ص55.

[4] الكهف الآية103.

[5] فاطر الآية5. لقمان الآية33.

* وينظر أبو حامد الغزالي إلى الدنيا من باب العداوة حيث أنّها عدوة لله وعدوة لأولياء الله وعدوة لأعداء الله. أما عداوتها لله فإنها قطعت الطريق على عباد الله. ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها. وأما عداوتها لأولياء الله عز وجل: فإنها تزينت

أعلمنا الله بذلك في نهيه بقوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ .[1] فالإعجاب بحسب الزركشي[2] مسند إلى الأموال، ومن ثمّة فأصل المعنى، لا تعجب بأموالهم، كما التركيب التقديم والتأخير لأنّ المراد هو لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنّما يريد الله ليعذّبهم بها في الآخرة.

7. التكذيب بقيام السّاعة وإنكار البعث والعذاب:

وكما هو ملاحظ، فسلوك الإنسان مترابط والبواعث إليه كذلك، فالإقبال غير المراقب أو غير المضبوط على الحياة الدنيا، سيخلق صفة جديدة في سلوكه، وهي المتمثّلة في رغبته الشديدة في البقاء أو الخلود في هذه الدنيا، ومن ثمّة عدم تصديقه لقيام السّاعة وإنكاره التام للبعث، هذا الترابط في السلوك بين حبّ الحياة الدنيا ورفض منطق الموت موضّح في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ .[3] وهذا كذلك نوع آخر من أنواع انحطاط سلوك الإنسان وخسرانه ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ .[4]

لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها. وأما عداوتها لأعداء الله: فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها. وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها. فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد. ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد. فهم على فراقها يتحسرون ومن مكائدها يستغيثون ولا يغاثون. ينظر إحياء علوم الدين ج3 ص169.

[1] التوبة الآية 55.

[2] ينظر البرهان في علوم القرآن ج3 ص282. 340.

[3] الأنعام الآية29.

[4] الأنعام 31.

فهو كما قال الثعالبي في تفسيره[1] حكم من الله عز وجل على المكذبين بالخسران، وفي اللفظ إغلاظ، وقي لأن هذا الكلام من كلام المحشورين على جهة التوبيخ لأنفسهم". فبالرّغم من تأكيد المرسلين ورجال الله الصالحين على قدوم يوم ستقوم فيه السّاعة، وذلك من خلال أوامر الله سبحانه وتعالى لعباده ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾.[2] ثمّ أمرهم باتقاء ذلك اليوم في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ .[3] إلاّ أنّ الإنسان قد تطغى عليه ظنونه التي تتواصل معها عقليته الرافضة فيذهب إلى القول ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ .[4] وحتّى إن كانت تلك الساعة موجودة، فهو يتساءل من باب التكذيب دائما عن موعدها، وقد تكرّر ذلك في مواقع عدّة من القرآن الكريم وبالتركيب اللغوي نفسه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .[5] وهذا كما قال الزركشي[6] في البرهان من باب الاستبطاء، وهذا كلّه لأنّهم وصلوا إلى درجة العمه ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [7] وهي

---

[1] تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ج2 ص180.

[2] الحجر الآية85.

[3] البقرة الآية48.

[4] الكهف الآية36.

[5] الأنبياء الآية38. سبأ الاية29. فاطر الآية 48. الملك الآية25.

[6] ينظر البرهان في علوم القرآن ج2 ص342.

يَعْمَهُونَ ﴾[1] وهي صفة تلحق بالناس الذين فقدوا الثقة في أنفسهم وأصبحوا بذلك متردّدين في التعامل مع أمورهم لشدّة حيرتهم.[2]

ويمكن تلخيص تساؤلات الإنسان الرافضة للموت والبعث في مجموعة من الآيات كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ .[3] وقوله: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ .[4] وقوله: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ .[5] وقوله: ﴿أَئِذَا ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ .[6] وقوله: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ .[7]

ونوجز كلّ هذه الآيات في هذا الجدول:

<table>
<tr><td rowspan="4">أَئِذَا</td><td colspan="3">كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا</td></tr>
<tr><td rowspan="3">مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا</td><td rowspan="2">وَعِظَامًا أَئِنَّا</td><td>لَمَبْعُوثُونَ</td></tr>
<tr><td>لَمَدِينُونَ</td></tr>
<tr><td colspan="2">ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ</td></tr>
</table>

[1] النمل الآية 4.
[2] مفردات في غريب القرآن ج2 ص348.
[3] مريم الآية66.
[4] الإسراء الآية49 والآية98.
[5] الصافات الآية16.
[6] الصافات53.
[7] ق الآية3.

فهم بحسب ما جاء في الجدول، يتساءلون إن كان هنالك بعث بعد الموت، ثمّ يتساءلون مرّة أخرى إن كانوا مدينين؛ أي تساؤل عن الحساب والجزاء. والاختلاف بينها يعود إلى "أن الأول حكاية كلام الكافرين وهم منكرون للبعث، والثاني قول أحد الفريقين لصاحبه عند وقوع الحساب والجزاء وحصوله فيه".[1]

ثمّ جاء قولهم بإنكار البعث أو إعادة الإحياء والذي هو النشر وإنكارهم للعذاب وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ*إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾.[2] وقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ* إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.[3]

إِنْ هِيَ	إِلَّا مَوْتَتُنَا	الْأُولَى وَمَا نَحْنُ	بِمُنشَرِينَ
أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ	إِلَّا مَوْتَتَنَا	الْأُولَى وَمَا نَحْنُ	بِمُعَذَّبِينَ

فهذا نفي واضح بـ "ما" لما هو قادم ومستقبل من فعل النشر وفعل العذاب. كما يلاحظ الرفع والنصب على كلمة "موتتنا" وهذا ما يحدث اختلافا في دلالة "ما" فهي في الآية الأولى مبتدأ وخبر، أو كما قال الزمخشري في الكشّاف كأنهم "وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى. فهم تساءلوا ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة، فلا فرق إذاً

[1] ينظر أسرار التكرار في القرآن محمود بن حمزة بن نصر الكرماني تحقيق عبد القادر بن احمد عطا دار الاعتصام القاهرة الطبعة الثانية 1396هـ ص179.

[2] الدخان الآية34 و35.

[3] الصافات الآية58 و59.

بين هذا وبين قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ في المعنى. يقال: أنشر الله الموتى ونشرهم: إذا بعثهم ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾[1] خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور: من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أي: إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك حتى يكون دليلاً على أنّ ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق، وقيل كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله وينشرهم".[2] أمّا "ما" في الآية الثانية غرضها الاستثناء[3] أي أنّهم ميّتون لكن مستثنون من العذاب.

8. الاستهـــــزاء:

من الملامح أو ردود الأفعال التي أظهرها الإنسان منذ وجوده في هذا الكون، والتي سجّلها القرآن الكريم بقوّة، كسلوك بشري فاسد، ظاهرة الاستهزاء، التي صدرت كثيرا من المستكبرين وأصحاب النظرة الاستعلائية وذوي العقول الصغيرة وإتّباع الهوى. وكانت موجّهة لكلّ مسالم ولنا هذين المثالين من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَانِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[4]. وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾.[5]

---

[1] الدخان36.

[2] الكشّاف ج5 ص473.

[3] ينظر أسرار التكرار في القرآن ص192.

[4] الأنبياء الآية36.

[5] الفرقان الآية41.

ويمكن تفصيل الآيتين بهذا الجدول:

وَإِذَا	رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا	إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي	يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ
	رَأَوْكَ		بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا

ففي الآيتين تكرّر فعل الرؤية، وهو كلّ ما يراه الإنسان في أمره ومن ثمّة فالرؤية إدراك المرئيّ[1] وهو بذلك يرجع مباشرة إلى طبيعة إدراك الذي يرى. لكن الاختلاف بينهما يكمن في كون الآية الأولى جاءت لتخصيص فعل الرؤية بالكافرين، أمّا في الحالة الثانية فكان الإضمار للإشارة بشكل عام أي (رأوك). وسبب التكرار[2] راجع إلى أنه ليس في الآية الأولى ذكر الكفار هنا فصرح باسمهم، وفي الفرقان قد سبق ذكر الكفار فخص الإظهار بهذه السورة والكناية بتلك. والملاحظ كذلك أن الاستهزاء لم يكن مباشر أي بالتوجّه إلى المستهزئ بهم بل كان من خلال أحاديثهم، وذلك ما صنعه من حيث الدلالة العلاقة بين فعلي الرؤية، والتي تكون عن قرب، والاتخاذ وربّما يكون ذلك عن طريق الأحاديث الدائرة بينهم، ودليلنا على ذلك استعمال الإشارة بـ (أهذا) والتي تستعمل للقريب[3] ودلالتها في بعض الحالات التحقير أو كما قال الزمخشري[4] فهي للاستصغار، وكأنّه إشارة إلى شخص بعينه قريب منهم بمسافة معيّنة أو شخص

[1] ينظر الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري تحقيق محمد إبراهيم سليم دار العلم والثقافة القاهرة ص76.

[2] ينظر أسرار التكرار في القرآن ص142.

[3] ينظر دلالات اسم الإشارة هذا شرح عقود الجمان ص17.

[4] ينظر الكشّاف ج4 ص351.

يقف في مكان معين بالقرب منهم، مع ظهور نوع من التحقير في الإشارة إلى عدم قبول النبوّة أو الرسالة للمشار إليه.

وسلوك الاستهزاء قديم، وعانى منه عديد عباد الله الصالحين، الذين أوكلت لهم مهمة تنوير عقول الناس وترشيدها، وقد أشار القرآن الكريم إلى تعرّض الرسل للاستهزاء في آيتين وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.[1] وقوله: ﴿وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.[2]

ويمكن تمثيل ذلك كالآتي:

وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ	فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا	مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ
مِنْ قَبْلِكَ	فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا	ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ

وعاقبة المستهزئين في كلتا الآيتين هي نفسها وتمثّلت في العقاب الذي ألمّ بهم ونزل عليهم لأنّ حاق معناه أحدق بهم.[3] فالشيء الذي كانوا يستهزئون به، وهو الحق، هو الذي كان سببا في هلاكهم. وقد فصّل الزركشي في ذلك حيث رأى بأنّ الحكمة من التعبير بالسخرية دون الاستهزاء، راجع لكون "الاستهزاء هو إسماع الإساءة، بينما السخرية قد تكون في النفس، ولهذا يقولون سخرت منه كما

---

[1] الأنعام الآية10.

[2] الرعد الآية32.

[3] النهاية في غربي الأثر أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري تحقيق أحمد الزاوي محمود محمد الطناحي المكتبة العلمية بيروت 1399هـ 1979م ج1 ص415. مفردات في غريب القرآن ج1 ص137.

يقولون عجبت منه، ولا يقال تجنب ذلك لما في ذلك من تكرار الاستهزاء ثلاث مرات، لأنه قد كرر السخرية أربعا في قوله تعالى ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ .[1] وإنما لم يقل نستهزئ بكم لأن الاستهزاء ليس من فعل الأنبياء، وأما قوله ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [2] فالعرب تسمى الجزاء على الفعل باسم الفعل كقوله ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [3] وهو مجاز حسن وأما الاستهزاء الذين نحن بصدده فهو استهزاء حقيقة لا يرضى به إلا جاهل، أمّا كلمة حاق فغرضها حاق بهم من الله الوعيد البالغ لهم على ألسنة الرسل ما كانوا به يستهزئون بألسنتهم فنزلت كل كلمة منزلتها". [4]

ثمّ ذكر الاستهزاء في أواخر آيات عديدة هي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .[5] وفي قوله: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .[6] وقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ . [7]

---

[1] هود38.

[2] البقرة15.

[3] التوبة67.

[4] ينظر البرهان في علوم القرآن ج3 ص381.

[5] الأنبياء الآية41.

[6] الأنعام الآية5.

[7] هود الآية8.

وقوله: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .[1] وقوله: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .[2] وقوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .[3]

ويمكن تمثيل تلك الآيات في الجدول الآتي:

كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ	وَ		بِهَا	
وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ	إِلَّا	كَانُوا	بِهِ	يَسْتَهْزِئُونَ
وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ				
فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ	مَا			
فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ				
وَحَاقَ بِهِمْ				

ومن خلال قراءتنا لهذا الجدول نلاحظ بأنّ الاستهزاء مرّ بمراحل بحسب الورود في الآيات ف في البداية كانت الإشارة إلى التكذيب بآيات الله والسخرية بها، هذه الآيات كان من ينقلها كذلك عرضة للسخرية وفي التوضيح الأوّل كانوا أنبياء أمّا في الحالة الثانية فثمّة انتقال من مرحلة النبوءة إلى مرحلة الرّسالة أي استهزاء بالرّسل ثمّ جاء بعد ذلك الحديث عن العقوبات التي تعرّض لها المستهزئون.

---

[1] الحجر الآية11.

[2] الزخرف الآية7.

[3] الروم الآية 10.

ومن يعمل صالحا ويسير على تعاليم الله سبحانه وتعالى فسيحميه من المستهزئين وذلك ما ختم الله قوله به في باب الاستهزاء﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.[1] فالكلام مؤكّد بـ"إنّا" والكفاية كانت بإفنائهم وإبادتهم وإزالة كيدهم.[2]

9. التعجّب:

الاستهزاء يقودنا إلى الحديث عن مظهر آخر من مظاهر سلوك الإنسان الغريب والذي أبداه مع مرّ الأزمنة ويمكن القول بأن الاستهزاء تولّد عنه إنّه سلوك التعجّب والاستغراب حيث وجد عند الإنسان منذ القدم. فقد رفض بعض الناس أن تكون هنالك ميزة تفوّق إنسان على آخر من الناحية العقلية الفكرية كما رأوا أنّه من غير المألوف أو من غير المعقول أن يختار الله سبحانه وتعالى بشريا لتولي مهام الهداية وإشاعة تعاليمه في محيطه ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾.[3] وإذا ما تتبعنا التركيب اللغوي فهو كما قال الزركشي[4] في البرهان بمثابة حصر مانع إيمانهم في استغرابهم لعدم جواز النبوّة لبشر مثلهم فتعجّبوا من هذا الوضع ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾.[5] ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا

---

[1] الحجر الآية95.

[2] ينظر تفسير الرازي ج19 ص165.

[3] الإسراء الآية94.

[4] ينظر البرهان في علوم القرآن ج2 ص66.

[5] ص الآية4.

شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴾ .[1] وتعجّبهم راجع إلى كون الرسالة نزلت على واحد من طبيعتهم وذلك ما أكّده الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَا إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ .[2] والملاحظ على الآيات الثلاث اعتماد الخطاب فيها على "أن" وهي مصدرية[3] في هذه التراكيب والأصل هو "عجبوا من مجيء وعجبا وحينا" والغرض من استعمال "أن" هو زيادة تقرير فعل التعجّب والاستغراب. وقد تواصل تعجّبهم مع مزاوجة تعجّبهم بتساؤلات فيها نوع من الدهشة والاستغراب تمثّل هذه المرّة في سبب اختيار رجل منهم لحمل الرسالة ولماذا هو بالذات وليس آخر وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا ﴾ .[4] فهم كما قال الزمخشري قد "أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾[5] وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوّة من بينهم".[6]

10. <u>التمنـــــي</u>:

عدم قبول الإنسان لأخيه الإنسان بأن يكون مرشدا ودالا له على طريق الهداية، وتعجّبه من ذلك، جعله يبحث عن بدائل أخرى فوق إنسانية تتجاوز

---

[1] ق الآية2.

[2] يونس الآية2.

[3] ينظر رصف المباني ص111.

[4] ص الآية8.

[5] الزخرف31..

[6] الكشّاف ج5 ص244

قدراته، فطالبوا بمعجزات ودلائل هذه الدلائل جاءت الإشارة إليها في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ .[1] وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .[2] وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ .[3] وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ .[4] وقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ .[5] وقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ .[6] وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ .[7]

وتلخّص هذه الآيات في الجدول الآتي:

---

[1] الأنعام الآية8

[2] الأنعام37.

[3] يونس الآية20.

[4] هود الآية12.

[5] الرعد الآية7

[6] الرعد 27.

[7] العنكبوت الآية50.

وَقَالُوا		مَلَكٌ	وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ
وَقَالُوا		آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ	قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ
وَقَالُوا		آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ	قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
وَيَقُولُونَ	لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ		فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِنَ الْمُنتَظِرِينَ
وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا			إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ
وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا			قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ
أَنْ يَقُولُوا		كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ	إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

ومن خلال الجدول السابق نلاحظ بأنّ مطالبهم تعدّدت بين الآيات أو الدلائل والمعجزات والمال والملائكة. وقد اعتمدوا عل "لولا" وهي في حالات التركيب هذه حرف امتناع لعدم وجوب[1] فهم يمتنعون عن الإيمان حتى تكون تلك المطالب التي يطالبون بها واجبة. وكأنّهم يقولون بأنّه إذا توفّرت تلك المطالب سوف يؤمنون.

وقد وصل التكبّر بالإنسان ورفضه للتفوّق الفكري من بني جنسه إلى أقصى درجات رفضه فأصبحت تمنياته تطالب بتحقيق أشياء تفوق الطبيعة البشرية كمطالبته بنزول الملائكة أو أقصى من ذلك بالرؤية المباشرة لله سبحانه وتعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[2]. والفرق بين هذه الآية والآيات السابقة أنّ الإنزال كان مطالبا له أي "أنزل عليه" لكن في هذه الآية يريدون أن تنزل الملائكة عليهم هم وفي

[1] ينظر رصف المباني ص293.

[2] سورة الفرقان الآية21.

ذلك قال الزمخشري[1] بأنّهم لا يأملون لقاء الله لا بالخير لأنهم كفرة. أو لا يخافون لقاءه الشر ذلك لأنّ الرجاء في لغة تهامة معناه الخوف. ولذلك اقترحوا من الآيات أن ينزل الله عليهم الملائكة فتخبرهم بأن محمداً صادق حتى يصدقوه. أو يروا الله جهرة فيأمرهم بتصديقه وإتّباعه. ولا يخلو: إما أن يكونوا عالمين بأن الله لا يرسل الملائكة إلى غير الأنبياء، وأن الله لا يصحّ أن يرى. وإنما علقوا عالمين بأن الله لا يكون. وإما أن لا يكونوا عالمين بذلك وإنما أرادوا التعنت باقتراح آيا تسوى الآيات التي نزلت وقامت بها الحجة عليهم. وقد أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه. وتجاوزوا الحدّ في الظلم بالعتو وأكّد على الفعل بالمصدر ووصفه بالكبر وذلك لزيادة قوّة الفعل مثلما أشار إلى ذلك السامرائي "فبالغ في إفراطه يعني أنهم لم يخسروا على هذا القول العظيم، إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتوّ، واللام جواب قسم محذوف. وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية. وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ التعجب. ألا ترى أن المعنى: ما أشدّ استكبارهم، وما أكبر عتوّهم.."[2].

11. التكذيب والاتهام بالسِّحر:

رفض الإنسان لأن يكون إنسانا آخر من طبيعته متفوّقا عليه من النّاحية الفكرية يطالب بأنّ يظهر هذا الآخر المتفوّق فكريا دلائل ومعجزات وآيات تفوق القدرة البشرية تدعّم توجّهاته الجديدة التي يدعو إليها أو أن يختار حامل آخر

[1] ينظر الكشاف ج4 ص341.

[2] ينظر بلاغة الكلمة في التعبير القرآني الدكتور فضل صالح السامرائي شركة العاتك القاهرة الطبعة الثانية 1427هـ 2006م ص56.

للرسالة لكن أن يكون هذا المرشد من غير البشر. هذه المعجزات والآيات التي طالب بها الإنسان وألحّ عليها لمّا أوجدها الله سبحانه وتعالى ظهرت منطلقات جديدة بنى عليها من اتبعوا أهوائهم افتراءاتهم. فالآيات قد تجاوزت القدرة العقلية للمتلقّين وأصحاب العقول القاصرة مما أدّى بهم أي بأصحاب النظرة الضيّقة ومحدودي العقول ينظرون إلى الأمر ليس من باب المعجزة والقدرة الإلهية وآيات الله في خلقه التي طالبوا بها؛ بل دفعهم ذلك إلى إظهار سلوك جديد وتمثّل في وصف تلك المعجزات والآيات بالافتراء والسحر ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ .[1] وأوصاف أخرى رسمها لنا القرآن الكريم.

والحالات التي اتهم فيها العباد الصالحون بالسحر متعدّدة فمنها ما كان الاتهام فيها بالسّحر المبين كما هو في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ .[2] وفي قوله: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ .[3] وفي قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ .[4] وفي قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ*وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ .[5]

---

[1] القمر الآية2.

[2] الأنعام الآية7.

[3] هود الآية7.

[4] سبأ الآية43.

[5] الصافات الآية14 و15.

وقوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .[1]

ويمكن تشكيل هذه الآيات في الجدول الآتي:

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا	إِنْ هَذَا إِلَّا	سِحْرٌ مُبِينٌ
وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا		
مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ		
وَقَالُوا		
وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ	هَذَا	

فأغلبية الآيات فيها توكيد بقولهم على الإبانة في السحر والدليل على ذلك استعمالهم لـ "إنّ" المؤكّدة قبل الإشارة والاستثناء بـ "إلاّ" وفي ذلك تصريح وإشارة واعتراف ضمني بكون هذا السحر مستثنى من السحر الذي عرفوه من قبل، بل هو سحر من نمط آخر، وذلك يدل كما قال سيّد قطب "على الذعر الذي كان يضطرب في نفوسهم، من تأثير هذا القرآن فيهم وفي إتّباعهم".[2] وليس تأثير القرآن فقط بل تأثير كلّ معجزة أتى بها أي نبي أو رسول من قبل.

ثمّ لاحظت ذلك الإحصاء الذي قدّمه القرآن الكريم للحالات العامة التي وصف بها عباد الله الصالحين وأفكارهم الجديدة الحالات الأولى كانت بالإشارة إلى ماذا كانوا يقولون والفعل "قال" في الماضي أي "قالوا" والآيات التي جاء فيها

[1] الأحقاف الاية7.

[2] التصوير الفني في القرآن ص14.

هي قوله: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ .[1] وقوله: ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .[2] وقوله: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ .[3] وقوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .[4] وقوله: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ .[5] وقوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ .[6]

ويمكن تمثيل ذلك في الجدول الآتي:

قالوا	ما هذا إلا إفكٌ مفترى
	معلمٌ مجنون
	أضغاث أحلامٍ بل افتراه بل هو شاعرٌ
	إنما أنت مفترٍ
	ساحرٌ أو مجنون

[1] الإسراء الآية47.

[2] سبأ الآية43.

[3] الذاريات الآية52.

[4] النحل الآية101.

[5] الأنبياء الآية5.

[6] الدخان الآية14.

ونلاحظ أنّ الاتّهامات في هذا المجال تمحورت حول الإفك والافتراء والجنون، الأحلام، الشّعر، والسحر.

بعدها "قال" في المضارعة بصيغة "يقولون" ودائما في علاقته بالاتهام وتكرّر في آيات عديدة كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ .[1] وفي قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ .[2] وفي قوله: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ .[3] وفي قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ .[4] وفي قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ .[5] وفي قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ .[6] وفي قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .[7] وفي قوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ .[8]

يمكن إجمالها في الجدول الآتي:

---

[1] يونس الآية38.

[2] المؤمنون الآية70.

[3] الصافات الآية36.

[4] الشورى الآية24.

[5] الأحقاف الاية11.

[6] الطور الآية30

[7] الطور الآية33.

[8] القلم الآية51.

يقولون	تقوّله
	شاعرٌ
	أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعرٍ مجنونٍ
	به جنّة
	إنّه لمجنون
	هذا إفكٌ قديمٌ
	افتراه
	افترى على الله كذبا

فهذه ادّعاءات متعدّدة تسير إلى اصطناعه وتقوّله واتهامه بقول الشعر والجنون. وبين هذه الاتهامات تأتي أوامر الله سبحانه وتعالى موضّحة لكيفية الرد على ذلك في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ*وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ*وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ .[1] وفي قوله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ .[2] فهذا أحسن ردّ على من ادّعى. وهذه هي الخطوط الخطوط العريضة لتحوّل سلوك الإنسان بين المسالمة والعدوانية كما جاءت في القصص القرآني.

[1] المعارج الآية40. 41 . 42.

[2] الطور الآية29.

الفصل الثاني

حل الإنسان بين مسألة وتحوانيه في نظام الأخوة

يتمّ في هذا الفصل التطرّق لمظاهر المسالمة والعدوانية في المرحلة الأولى لوجـــود البشرية في هذا الكون، هذه المرحلة التي تشمل حياة عدد من الأنبياء هم آدم عليه السلام مع إضافة قصة أبنائه في زمنه ثمّ المرور بنوح عليه السلام وتنتهي بإبراهيم عليه السّلام ومعه لـــــــوط عليه السلام، لأنّه كان في زمنه. ولقد سمّيت هذه المرحلة "مرحلة الأقوام" لأنّ الخطاب فيها بحسب ما جاء في القرآن الكريم كان موجها لكل نبي مع قومه مثل نوح في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ .[1] وإبراهيم ولوط في قوله تعالى: ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ .[2] والشيء الذي يمكن الإشارة إليه في هذه المرحلة هو طبيعة سلوك العدوانية والمسالمة، حيث كان في البداية بين خلقين من طبيعتين مختلفتين، ألا وهما آدم والشيطان، ثمّ ظاهرة العدوانية من الإنسان تجاه نفسه، كما فعل آدم عليه السّلام بظلمه لنفسه، بعدها العدوانية والمسالمة بين خلقين من طبيعة واحدة، وهما ابنا آدم عليه السلام، وأخرى بين فرد ومجموعة من الناس، كما هو الحال مع نوح وإبراهيم عليهما السلام. والميزة العامة لهذه المرحلة كما سبق الإشارة إلى ذلك، هي أنّ أغلب الأنبياء فيها أرسلوا إلى الأقوام التي كانوا ينتمون إليها، فنوح عليه السلام كان قد أرسل إلى قومه ليغيّر منهجهم ونظرتهم إلى الحياة، وكذلك إبراهيم ولوط عليهما السلام.

---

[1] الشعراء105.

[2] الحج43.

1. آدم عليه السـلام:

أوّل مظاهر العدوانية والعنف كانت مع بداية وجود الإنسان في هذا الكون هذا الوجود الذي تشخّص في سيّدنا آدم وزوجه، فبعد خلقهما مباشرة، حذّرهما الله سبحانه وتعالى من تعرّضهما للاعتداء، وسيكون مصدر هذه العدوانية الشيطان الذي سيعمل على إيصالهما إلى حالة الشّقاء في حال ما إذا اتبعاه وذلك ما أكّده الله عزّ وجلّ لهما في قوله: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ .[1] وفي قوله: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ .[2] فالخطاب والإخبار في الآيتين جاء مؤكّدا بـ "إنّ" دلالة على توكيد عدوانية الشيطان لآدم وزوجه، لكن الفرق بين التركيبين في الآيتين يتمثّل في ذكر كلمة "الشيطان" في الآية الأولى ثمّ بناء الإخبار بإبدال كلمة الشيطان باسم الإشارة "هذا" في الآية الثانية، والغرض من ذلك دلاليا أنّ الشيطان في الحالة الأولى لم يكن حاضرا في موقف الخطاب بل كان التحذير منه ومن أفعاله بغير حضوره، وفي الحالة الثانية كان تعريفه بالإشارة بـ "هذا"[3] وذلك دلالة على قربه وحضوره فأشير إليه مباشرة، والغرض كذلك تمييزه أكمل تمييز لإحضاره في ذهنهما إغلاقا لباب التحجج بعدم معرفته. وكذلك قصد تحقيره بعدم ذكره بل بالإشارة إليه فقط. وفي الخطاب كذلك إشارة إلى بداية تقرّب الشيطان من آدم بغرض الاعتداء عليه.

---

[1] الأعراف آية22.

[2] طه آية 117.

[3] ينظر دلالات "هذا" شرح عقود الجمان ص17

وبدأت مظاهر هذه العدوانية مع منطق الرّفض الذي أبداه الشيطان بمعصيته، وكان الدّافع إلى هذه المعصية القياس والمقارنة، وهو قياس إبليس على أن السجود لآدم ساقط عنه[1] لمّا أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسّجود ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾[2] وكان هذا الرفض بدافع الاستكبار {استكبر} أي أستفعل الكبر في نفسه وخلقه فيها، فعظمت حاله وأصبح ينظر إلى نفسه بكبرياء وعظمة.[3] ذلك الكبرياء وتلك العظمة المزيّفان والافتراضيان جعلاه يرفض أوامر الله سبحانه وتعالى، ويبدي نوعا من العصيان بمخالفة الأمر بالسّجود حيث أنّه رفض ذلك ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ ﴾[4] . فهذا استثناء واضح بـ "إلاّ" حيث استثنى إبليس من الساجدين ووصفه بعد ذلك بالرافض المستكبر، وكان دافع استكباره، التمييز على أساس طبيعة المادة التي خلق بها كلّ واحد منهما، ولمن تكون العلوية والفضل، ومن ثمّة جاء مبدأ المفاضلة فأنكر أن تكون الأفضلية لآدم عليه السّلام، هذه الأفضلية التي كرّمه الله بها أي رفض مفهوم الاصطفاء بمبدأ الكرامة ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾[5] فهذا التركيب يكاد يكون بمثابة التساؤل بسخرية أو كما قال الزمخشري فالأصل هو "لم كرمته عليّ وأنا خير منه؟"[6] كما يمكن التركيز على اسم الإشارة في هذا التركيب، فأسلوب الاحتقار واضح من خلال

---

[1] ينظر الأحكام علي بن أحمد بن حزم الأندلسي أبو محمد دار الحديث القاهرة 1404هـ ط ج8 ص 574.

[2] سورة طه آية 116.

[3] لسان العرب ج5 ص126.

[4] ص 74.

[5] الإسراء 62.

[6] الكشاف ج3 ص528.

الإشارة بـ "هذا" فهي من خلال السياق الذي وردت فيه تشير إلى الاحتقار، وذلك لصلتها مباشرة بـ "الذي" فهو يمكن أن يدل على عدم المعرفة وبالتالي النكران، فكأن المشار إليه وهو آدم والذي كرّمه الله هو نكرة بنظر الشيطان، فمن اللائق أن تكون الكرامة له. ومن ثمّة نسبها إليه ظنّا منه بأنّ النّار أفضل وأشرف من الطين ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ .[1] وقد حاول القرطبي في تفسيره إجراء مقارنة خلص فيها إلى أن الطين أفضل من النار من وجوه متعدّدة "فجوهر الطين الرزانة والسكون والوقار والأناة والحلم والحياء والصبر وذلك هو الداعي لآدم عليه السلام بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة والارتفاع والاضطراب، وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء. كما أنّ الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أذفر، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة نارا وأن في النار ترابا. كذلك النار سبب العذاب وهي عذاب الله لأعدائه وليس التراب سببا للعذاب. والطين مستغن عن النار والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب".[2]

---

[1] الأعراف12.

[2] تفسير القرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي أبو عبد الله تحقيق أحمد عبد العليم البردوني دار الشعب القاهرة 1372هـ ط2 ج7 ص171.

عدوانية الانتقام بالإغواء:

ثمّ ظهرت صور إبليس العدواني، المتمثّلة أساسا في مفهوم الانتقام أو ردّة الفعل الانتقامية، وذلك بالرد على أحد الأفعال التي كان يظن بأنّها هي التي جعلته يستكبر ألا وهو فعل الإغواء، وكان يزعم بأن الله تعالى هو الذي أغواه وهو الذي خلق فيه هذا الاستكبار ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾[1] ثمّ أقسم بعزّة الله تعالى أنّه سيغوي كلّ الناس وأكّد القسم على ذلك باللاّم "لأغوينّهم"، وذلك ردّا على الإغواء الذي كان يظنّ بأنّه طاله ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]. وبداية طريق الإغواء كانت بالصدّ والتضليل عن الصراط المستقيم ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[3] وفي ذلك توكيد قسمي آخر على تسخير كلّ وقته وجهده لتضليل الناس، وتلك هي دلالة القعود في هذه الآية. والمعنى في ذلك كما ذكره الزمخشري "فبسبب وقوعي في الغيّ لاجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي، كما فسدت بسببهم".[4] ويكون ذلك القعود بأن يزيّن لهم الأمور ويبعدهم عن إدراك الحقائق ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[5] وهو توكيد قسمي آخر يضاف إلى التأكيدات السابقة (لأغوينهم، لأقعدنّ، لأزيّنن)، وكما هو معلوم فالإغواء معناه "الجهل الناتج عن الاعتقادات الفاسدة والتي ستؤدّي بصاحبها إلى فساد

---

[1] الأعراف آية 16.

[2] ص الآية 82.

[3] الأعراف آية 16.

[4] الكشّاف ج2 ص428.

[5] الحجر آية 39.

قراراته التي يتخذها".[1] وبحسب ما قال به المفسّرون هو إيقاع الغي في القلب بالعناد والاستكبار فيصبح بذلك هالكا ضالا خائبا كثير إتباع الهوى، وهو ما يؤدّي إلى فساد النفس والأمور التابعة بما فيها فساد المعيشة.[2] ومن ثمّة الوصول إلى حالة الشقاء التي أشار إليها القرآن سابقا "فتشقى". وفي معرض حديثه عن حالة الإغواء رأى صاحب المواقف[3] بأن "الإغواء هو الإضلال عن المقصود والمطلوب منه. وبنو آدم في تعريض إبليس لهم ونفوذ ضرره فيهم على أقسام: منهم من يتعرّض له فينفذ ضرره فيه ظاهرا وباطنا، وهم عامة بني آدم، سواء منهم المؤمن وغير المؤمن. ومنهم من يتعرّض له ظاهرا وباطنا فينفذ فيه ضرره ظاهرا لا باطنا، وهم الكمّل من الأولياء ورثة الأنبياء، فإنّهم يقلبون ما يأتيهم به من الشرّ إلى الخير، فيربحون بتعرّضه، فيجد لذلك غيظا وحسرة. وهذا أشدّ ما يلاقي إبليس من أولياء الله، حيث رجع سهمه عليه، وعاد وبال فعله إليه. ومنهم من يتعرّض له ظاهرا لا باطنا، لعلمه بأنّ ترّضه لهم في بواطنهم لا ينفذ لعصمتهم، وهم الأنبياء _صلوات الله وسلامه عليهم_ ولذا استثناهم بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ .[4] قرئ باسم الفاعل واسم المفعول. وثمرة هذا الاستثناء _وإن حصلت لبعض الكمّل غير الأنبياء_ فذلك من بركة متابعتهم الأنبياء..." وقد

[1] ينظر مفردات في غريب القرآن مادة "غوي" ج2 ص369.

[2] تفسير القرطبي ج4 ص174. الطبري ج8 ص33.ابن كثير ج2 ص205.زاد المسير ج3 ص173. أحكام القرآن للجصاص ج4 ص202. فتح القدير ج2 ص192.

[3] المواقف ج1 ص306.

[4] الحجر40.

أحصى صاحب كتاب حجج القرآن[1] مواقع إزلال الشيطان للناس وإغوائه وإضلاله وتعرضه لهم في ثلاثة وعشرين موضعا في القرآن الكريم.

طريقـــة الانتقـــام:

الأمر الآخر الذي يمكن الإشارة إليه فيما يخص سلوك الإنسان في بداية وجوده وارتباطه بالمسالمة والعدوانية، هو تلك العلاقة التي تربطه مباشرة بعاملي الإسكان والإطعام، حيث يعتبر الأكل عاملا من العوامل التي تتدخّل مباشرة في صياغة سلوك الكائن الحي. وكما معروف ومصنّف من ناحية الدّراسة السّلوكية يعتبر الأكل كذلك من أهم الأشياء التي يعتمد عليها الإنسان ليحافظ على توازنه وتواجده البيولوجي.[2] وذلك ما ركّز عليه الخطاب القرآني الذي وجّهه الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السّلام، حيث أمره بالسكن في الجنّة والأكل من خيراتها، مع التركيز على مصطلح الأكل، ونهاه عن الاقتراب من شجرة معينة فناداه قائلا: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[3] أضف إلى ذلك فالله سبحانه وتعالى نبّه آدم على ضرورة احترام التعليمات وباحترامه هذا لن يمسّه الشقاء طول حياته وستكون كلّ ضروريات الحياة متوفّرة له بشرط أن لا يتجاوز الحدود التي رسمت

---

[1] ينظر حجج القرآن أبو الفضائل أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي دار الرائد العربي بيروت الطبعة الثانية 1982 ص33.

[2] كما هو معلوم فبداية التجارب التي أقيمت بغرض دراسة سلوك الإنسان انطلاقا من التجارب التي أقيمت على الحيوان كانت معظمها تعتمد على درجة الحرمان من الأكل ودرجة استجابة المحروم بعد تقديم الأكل له. ينظر Science et comportement humain/Skinner.

[3] الأعراف الآية 19.

له وهي عدم الاقتراب من الشجرة ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[1] ففي التركيب اللغوي اقتران واضح بين الجوع والظمأ، وهما من باب الأكل والشرب وكلاهما في مجال التغذية، وبين العري والضحى، وهما من باب اللباس والسكن، وهذه الأمور هي الأصل في حياة الإنسان الكريمة. وقد أرجع عديد المفسّرين التركيب في هذه الآية والمزاوجة بين هذه الكلمات إلى وجود علاقة بين الجوع والعري تتمثّل في الخلو، لأن الجوع خلو الباطن والعري خلو الظاهر، وبين الظمأ والضحى في الحرارة لأن الأوّل حرّ الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر. أمّا عن سبب ذكرها بلفظ النفي بحسب ما رأى ابن كثير[2] فذلك ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها.

وانطلاقا من إحدى نقاط ضعف الإنسان والتي يمكن أن ينقاد بسببها بسهولة لأنّها تمثّل مصدر قوّته التي يقاوم بها، جاء مفهوم الانتقام بتزيين الأمور حيث أنّ الشيطان صوّر لآدم وحواء صورة جميلة للأكل من تلك الشّجرة التي نهاهما الله سبحانه وتعالى عن الاقتراب منها، ولبس الشيطان ثوب النّاصح الذي يريد لهما الخير ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[3] ففي هذه الآية بالذات يتجسّد الأسلوب الإخباري القسمي المؤكّد، فقد استعمل القسم (قاسمهما) وهي بهذه الصياغة تدل على المحاورة والقسم بعدها وليس (أقسم

---

[1] طه الآية 118 و119.

[2] ينظر البداية والنهاية إسماعيل بن عمر بن كثير مكتبة المعارف بيروت ج7 ص78.

[3] الأعراف آية 21.

لهما) مباشرة، ثمّ أكّد كلامه بمؤكّدين هما "إنّي" واللام في "لمن"، وفي ذلك إشارة إلى أنّهما قد رفضا مقترحات الشيطان في بادئ الأمر وفي حوارهما الأوّلي. وقد يدعّم هذا الرأي الطريقة التي اتبعها في عملية إغوائه لهما. فقد بدأ أوّلا تزيينه عن بعد ودون الإشارة إلى مكان معيّن بل بإعطائه جماليات الشيء الذي سيقدّمه لهما، وركّز على مفهومي التملّك والخلود ﴿قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[1] فالأسلوب كما هو ملاحظ من حلال الخطاب مبني على المكر والخديعة، فطريقة التساؤل تشير إلى ذلك (هل أدلّك) وكأنّه دليل حقيقي ولا يريد بهما إلاّ الخير. والملاحظ أنّ كلمة شجرة التي هي محور الآية جاءت غير معرفة؛ أي وكأنّه كان يتحدّث عن شجرة غير معروفة مبدئيا بشكلها، بل معروفة بأهميتها المتمثّلة في صفتي الخلد والملك الدائم. لكن بعد أن دلّهما إلى تلك الشّجرة أصبحت معروفة، فأراد تقريبهما إليها أكثر بالإشارة إليها عن قرب واستعمل في ذلك اسم الإشارة (هذه) ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[2] فاسم الإشارة يدل على القرب والتخصيص، مع العلم أن النهي كان بعدم الاقتراب من الشجرة نفسها المشار إليها ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فكانا بمثابة المغرّر بهما ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾[3] فقد تكرّر فعل دلّ مرّة أخرى بعد أن كان قد قدّمه الشيطان كخدمة في البداية (هل أدلّك)، وفي ذلك قال صاحب التبيان في تفسير غريب القرآن

---

[1] طه آية 120.

[2] الأعراف آية 20.

[3] الأعراف آية 22.

"فدلاهما بغرور يقال لكل من ألقي إنسانا في بلية قد دلاه في كذا، والغرور هو إظهار النصح مع إبطان الشر".[1] وقد استغلّ الشيطان مرّة أخرى إحدى نقاط ضعف الإنسان، وهي النسيان فسبب عدم تفطّن آدم للحيلة، هو نسيانه لما نهاه الله عنه، وذلك ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[2] ففي هذه الآية تحقيق وتقرير لظاهرة النسيان والعهد هنا كما قال الجصّاص[3] المراد به الأمر وقد يكون يمينا ودلالة الآية على أن المراد في هذا الموضع اليمين ظاهرة من باب عدم نقض الأيمان بعد توكيدها. وانطلاقا من ذلك النسيان كان فعل التغرير بهما وطريقة اقترابهما من تلك الشجرة مقسّما إلى مراحل وصلت بهما إلى الاقتراب من الشجرة فالتذوّق منها كمرحلة أولى ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾[4] ف "لمّا" في هذه الحالة هي حرف وجوب لوجوب[5]؛ أي وجوب الذوق بوجوب العقاب. ثمّ ظهر فعل الأكل منها كمرحلة ثانية ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾.[6] ونحن نعلم بأن مرحلة التذوق تسبق مرحلة الأكل، ويدعّم مفهوم التغرير بمراحل الجزء الثاني من الآيتين حيث جاء فيه كلام عن عصيان الأوامر وعاقبة ذلك العصيان ففي حالة الذوق ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن

---

[1] التبيان في تفسير غريب القرآن ص202.

[2] طه الآية 115.

[3] ينظر أحكام القرآن أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص تحقيق محمد الصادق قمحاوي دار إحياء التراث العربي بيروت 1405هـ ج5 ص11.

[4] الأعراف 22.

[5] ينظر رصف المباني ص283.

[6] طه آية 121.

تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ أمّا في حالة الأكل ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ .[1] والملاحظ أن الاختلاف بين الحالتين يكمن في كلمة "بدت" حيث أنّ الثانية كانت مسبوقة بـ "الفاء"، وهذا ما يدل على أن عاقبة العصيان لم تكن بعد فعل التذوّق بل كانت مباشرة بعد الأكل، وهذا ما يشير مبدئيا إلى أن الله سبحانه وتعالى أمهلهم فرصة لتصحيح خطأهم بعد التذوّق، لكنهما لم يصحّحا خطأهما وقاما بفعل الأكل فكان العقاب بعد العصيان. وفي تفسيره لهذا الموقف رأى صاحب المواقف بأنّ "الحق _تعالى_ شهد لآدم _عليه السلام_ بالنسيان.. أي قصدا للمعصية. والإجماع على أنّ الناسي غير عاص ولا مؤاخذ فيما بينه وبين الله تعالى.

مسالمة النـــدم وطلب المغفـــرة:

المظهر الآخر الذي يمكن الإشارة إليه في سلوك الإنسان في بداية وجوده، هو ذلك السلوك الذي يمكن تصنيفه في باب المسالمة، والمتمثّل في سرعة الندم بعد الوقوع في الخطأ والمعصية والإسراع في طلب العفو والمغفرة، وذلك ما قام به سيّدنا آدم عليه السلام وزوجه حيث بعد وقوعهما في الخطأ وإحساسهما بغضب الله عليهما سارعا إلى طلب المغفرة ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[2] وهما بذلك يقرّان ويؤكّدان بأن فعل المعصية الذي أوقعهما الشيطان فيه، هو ظلم لأنفسهما وهما الخاسران الوحيدان

[1] الأعراف الآية22. طه الآية121.

[2] الأعراف الآية23.

بفعلهما هذا، فكان سعيهما وراء الحصول على الخلود والملك الذي لا يفنى قد قادهما إلى خسران هذا النعيم والنزول إلى الحياة التي تفنى والملك الذي يزول كعقاب لهما بإخراجهما من الجنّة. وهكذا كما يقول صاحب المواقف دائما هي حال "الأنبياء كانوا يبكون ويتضرّعون ويتوبون ويقترفون ويستغفرون مما صدر منهم.. إنّما ذلك لكمال معرفتهم بقدر الرّبوبية، وما يجب لها من الإعظام والإجلال. فهم يشاهدون حسناتهم سيّئات، إذا نسبوها لما تستحقّه الألوهية، فكيف إذا ظهر منهم ما صوّرته غير صورة طاعة". [1]

وهذه هي أولى مظاهر العدوانية التي أشار إليها القرآن الكريم والتي كانت متمثّلة في اعتداء الانسان على نفسه بظلمه لها، ووقوعه في المعصية التي أفسدت عليه معيشته. تلك المعصية التي كان الشيطان المخطّط الرئيس لها، ذلك الشيطان الذي ما يزال وسيظلّ مُخطّطا لكل حدث فيه عدوانية حتّى قيام الساعة وهذا من أحكام الله تعالى في هذه الدنيا حيث طلب منه إبليس أن يمهله وقتا ليختبر قدراته في تزيين الأمور ومن ثمّ إغواء النّاس ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [2] فقبل الله طلبه هذا لمدّة زمنية محدّدة ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ *إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [3] وكان بالتوكيد والجمع (إنّك من المنظرين) وذلك يدلّ على أنّ المنظرين كثيرون وليس الشيطان وحده. ومن ثمّة جاءت دلالة الإجازة للشيطان بأن يزيّن للناس إن كانت له القدرة على ذلك

[1] المواقف ج1 ص307.

[2] الحجر الآية36

[3] الحجر الآية37 و38.

وباتباع كلّ الطرق ليكونوا معه من المنظرين ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1] وستكون له القدرة على زرع سلوكه العدواني في الإنسان وإشاعته كلّما كان ذلك الإنسان من غير عباد الله المخلصين. وقد أقرّ الشيطان بعدم قدرته على عباد الله وأخرجهم من دائرة الإغواء بقوله ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[2] لعلمه أنّه لا سلطان له عليهم. إمّا أنّه أدرك ذلك من فطرته كما أشار إلى ذلك صاحب المواقف[3] أو بعد ما أكّده الله سبحانه وتعالى بعدم مقدرة الشيطان على المخلصين لله ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ .[4] وبذلك ففعل الإغواء يبقى رهينا بدرجة إخلاص العبد لله عزّ وجلّ.

2. ابنا آدم وعدوانيـــة القتـل:

ثاني حالة من حالات السلوك العدواني والمسالم التي شهدها بنو الإنسان في بداية وجودهم في هذه الدنيا، وصوّرها لنا القصص القرآني كانت مع ابني سيّدنا آدم عليه السّلام. والعدوان كان في أبشع مراحله ومظاهره، حيث ابتدأ بالتهديد والوعيد وانتهى بالقتل، والدّافع إلى ذلك هو الغيرة والحسد. ونشأت تلك الغيرة انطلاقا من مفهوم المفاضلة كذلك حيث قبلت هديّة أحدهما

---

[1] الإسراء الآية64.

[2] الحجر الآية40.

[3] ينظر المواقف ج1 ص309.

[4] الإسراء الآية65.

ورفضت هدية الآخر ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾[1] فتغلغلت الغيرة التي آلت إلى حسد في نفسية من لم يتقبّل منه، وكان الحلّ الوحيد الذي فكّر فيه هو التخلّص من الشيء الذي كان سببا في عدم قبول هديته، وكان هذا السبب بحسب ما رأى هو المنافسة من أخيه، ظنّا منه بأنّه لو كان لوحده لكانت الهدية واحدة، وبذلك فهي مقبولة مبدئيا، ولا مفاضلة في الخيار الواحد، فقرر التخلّص من منافسه، وحتى الطريقة التي استعملها في كلامه هي بالصياغة نفسها المستعملة من طرف الشيطان من قبل (لأقتلنّك) بالتوكيد على فعل القتل، وهو الأسلوب نفسه الذي استعمله الشيطان سابقا. لكن هذا الأخ الذي وضع في موضع العداوة التي وصلت إلى التهديد بالقتل، سار في منحى معاكس تميّز بالهدوء وضبط النفس، فكانت معه ردّة الفعل الهادئة ظهرت معها أولى ملامح الإنسان المسالم الذي يحللّ الأمور بقلب سليم قبل اتخاذ قراراته، مدركا بذلك بأن الهدية لم تقبل بسبب وجود المنافس، بل بسبب طبيعة الإنسان الذي قدّم الهدية من حيث تقواه، وهذا ما كان دافعا له بعدم الردّ على سلوك أخيه العدواني ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[2] وكما هو ملاحظ فنظرة الإنسان المسالم لها أبعاد كثيرة وواسعة تتجاوز حدود الدنيا، فكلامه كان عن خوفه من الله سبحانه وتعالى وليس خوفا منه، والكلام في هذا الرد الحكيم جاء مشروطا "لئن"

[1] المائدة الآية27.

[2] المائدةالآية27و28.

وقد جاء الشرط بلفظ الفعل "بسطت" والجزاء بلفظ اسم الفاعل "بباسط" والغرض من ذلك كما قال الزمخشري هي "ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع. ولذلك أكده بالباء المؤكدة للنفي".[1] ومن ثمّة فقد عمل على إنقاض أخيه من الخطيئة التي سيقع فيها بفعله العدواني الآثم، والذي سيندم عليه في دنياه وسيعاقب عليه في آخراه ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾[2] والخطاب في هذه الآية مؤكّد بـ"إنّ" وفي ذلك توكيد على عدم الردّ على عدوانية أخيه، بل يريد ان يكون الخطأ مضاعف لأخيه فقط. فرفض العدواني عرض أخيه المسالم، وانصاع لما تمليه عليه نفسه المريضة المتّبعة للهوى، والتي كان أوّل فعل لها في الإنسان تسهيل الأمور ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[3]. وكان هذا هو أوّل سلوك عدواني صوّره القرآن الكريم بين إنسانين بعد ما كان صوّر لنا من قبل مع آدم عليه السلام اعتدائه على نفسه بظلمه لها، وانتهى السلوك العدواني بين اثنين إلى أبشع مظاهره أي بالقتل، القتل الذي قرنه الله عزّ وجلّ في إحدى آياته مع الإنسان في قوله ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[4] هذه الآية التي أردت الوقوف عندها للحديث عن علاقة ظاهرة فيها بين مصطلحي القتل والكفر والتي أردت ربطها مباشرة بما جاء بعد حادثة قتل ابن آدم لأخيه فالكفر في دلالاته

---

[1] الكشاف ج2 ص226.

[2] المائدة الآية29.

[3] المائدة الآية30.

[4] عبس الآية17.

اللغوية يشير إلى الستر والتغطية.[1] وكما هو ملاحظ في هذه الآية جاء بصيغة التعجّب، وهو ما يوحي مبدئيا بأن الإنسان يسعى في سلوكه إلى تغطية الحقائق والتستّر على أفعاله غير اللائقة وهو ما لوحظ على ردّة فعل ابن آدم مع أخيه بعد قتله، حيث أراد التستّر على فعلته المشينة هذه ولم يستطع الاهتداء إلى طريقة يخفي بها ذلك فأراد الله عزّ أن يبيّن له المستوى الذي نزل إليه بعد ما قام به كونه قد تدنّى إلى ما تحت السلوك الحيواني وأصبح عاجزا عن التفكير وإيجاد الحلول بل أصبح الحيوان أحسن منه في إيجاد الحلول فكان الغراب قدوة تتبع ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[2] فردّة فعله اللغوية كانت بالنداء والنداء بالويل، والويل كما قال ابن قتيبة[3] كلمة جامعة للشر كله. وقد وضعت في هذا السياق في موضع التَّحَسُّر والتّفجّع، كما أنّه عبّر بالعجز في إيجاد الحلول لإخفاء فعلته، والعجز هو "التأخّر والقصور عن فعل الشيء".[4] ومن ثمّة فقد أظهر تأخّره بل وقصوره عن إيجاد الحلول، ليتبع سلوك الحيوان كحلّ نموذجي لإخفاء عيوبه أو السلوك المشين والذي عبّر عنه القرآن بلفظ "السوءة" وإخفاؤه بلفظ "يواري". وكخلاصة عامة فالقتل أو العدوانية بصفة عامة هي سلوك أدنى من الحيوانية. كما نلاحظ كذلك في هذه الآية تدعيم لما سبق قوله عن حالة الإنسان بعد إظهاره للسلوك

---

[1] مفردات في غريب القرآن ج2 ص433

[2] المائدة الآية31.

[3] ينظر تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة المكتبة العلمية.

[4] ينظر مفردات في غريب القرآن مادة "عجز" ج2 ص322.

العدواني حيث مآله الندم على أفعاله "فأصبح من النادمين" فالفاء هي للتعقيب المباشر السريع؛ وذلك يدلّ على أنّ ندمه وهو تحسّره من تغيّر رأيه على الأمر الفائت[1] أعقب عملية القتل مباشرة، وليس بعد فترة زمنية طويلة.

3. نـــوح عليـــه الســـلام:

من المجتمعات التي تحدّث عنها القصص القرآني والتي تجسّدت فيها مظاهر السلوك بين العدوانية والمسالمة، قوم سيّدنا نوح عليه السّلام هذا النبي الذي بدأ معه التشريع الإلهي بما كان ينقله من توصيات ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[2]. حيث بعثه الله سبحانه وتعالى إلى قومه لأنّهم كانوا بعيدين كلّ البعد عن الهداية، فأراد أن يبين لهم سبلها وسبل النجاة عن طريق إسداء النصح لهم بتوجيههم إلى عبادة الله ودافعه إلى سلوك هذا الاتجاه المسالم خوفه على قومه وحبّه لهم وحرصه الشديد عليهم ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3] ودائما مع اعتماد الخطاب بالتوكيد، وفي ذلك إشارة إلى أنّ تقديم النصح قد كان على مراحل، وأنّه كان يقابل في كلّ مرّة بالرفض، ولذلك تعاد الكرّة مع التوكيد. فقومه واجهوه دائما برفضهم لهذا الاتجاه الجديد الذي دعاهم إليه، وقاموا بإظهار العداوة له عن طريق تهديده

[1] ينظر مفردات في غريب القرآن مادة "ندم" ج2 486.
[2] الشورى الآية13.
[3] الأعراف الآية59.

بالرجم ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾[1] فالكلام مشروط بـ "لئن" ومطلبهم هو التوقف عن فعله وإلاّ فعاقبته هي الرجم مع توكيدهم على ذلك "لتكونن"، وفي ذلك توكيد على أنّه سيكون من المرجومين، وفيه كذلك تشديد في العقاب، وقد صنّف في باب المرجومين بالجمع، وليس (ليكونن مرجوما) بل مع أسبقية "مِنَ" على المرجومين، والتي استعملت في هذا الموضع لتحديد الجنس[2]، فهو بهذا التركيب من جنس المرجومين، وذلك يدلّ على أنّ الرجم عقاب كان شائعا في زمنه، وليس مخصّصا لنوح فقط. ومن ثمّة فهم بعدوانيتهم تلك كانوا من أكثر الأقوام ظلما وطغيانا ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ .[3] فالخطاب قد أشار إليهم مباشرة "قوم نوح" ثمّ أعاد توكيد الصفة عليهم بالإضمار "هم" والصفة هي الظلم والطغيان وبناؤهما جاء على "أفعل" التفضيل (أظلم وأطغى)، كما أنّه قدّم الظلم على الطغيان في الخطاب والدافع إلى مثل هذا التركيب كما قال الرازي فبالنسبة للظلم "فلأنّهم هم البادئون به المتقدمون فيه «ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها» والبادئ أظلم، وأما الطغيان فلأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم، ولا يدعو نبي على قومه إلا بعد الإصرار العظيم، والظالم واضع الشيء في غير موضعه، والطاغي المجاوز الحد فالطاغي أدخل في الظلم فهو كالمغاير والمخالف فإن المخالف مغاير مع وصف آخر زائد، وكذا المغاير

---

[1] الشعراء الآية116.

[2] ينظر رصف المباني ص323.

[3] النجم الآية52.

والمضاد وكل ضد غير وليس كل غير ضداً".[1] كما أنّ لمفهوم الطغيان تكملة لمفهوم الظلم وإضافة له كالقول و(طغوا بظلمهم).

مسالمته تجـــاه قومـــــه:

وكما هو موضّح في القصص القرآني، فمجيء نوح عليه السّلام إلى قومه كان الغرض منه نقل رسالة لهم أمّنه الله عزّ وجلّ عليها، حيث كان يقول لهم ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ .[2] وهذا دائما استمرار للخطاب المعتمد على التوكيد في الإخبار بهذه الرسالة التي حمّله الله تعالى إيّاها، وكلّفه بإيصالها وتبليغها وإشاعتها في قومه، لإنذارهم بقدوم العقاب الدنيوي، وهذا ما أشارت إليه آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ*قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ .[3] وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ .[4] وقوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ .[5] بالإضافة إلى ذلك الدور المتمثّل في الرسالة المنذرة والمحذّرة من عاقبة ما يقومون به من أفعال دنيئة بإبعادهم عنها، كان لنوح عليه السلام دورا آخر تمثّل في تقديم النصيحة أثناء تبليغه للرسالة الموجّهة إلى قومه بغية أن تكون أفعالهم جيّدة ومقبولة أي إعطاؤهم البدائل التي وجب السير عليها للتخلّص من ترسّبات الأطر الاجتماعية القديمة التي كانوا يسيرون عليها

[1] ينظر تفسير الرازي مفاتيح الغيب ج29 ص285.
[2] الشعراء الآية107.
[3] نوح الآية1 و2.
[4] هود الآية 25.
[5] الشعراء الآية115.

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .[1] فدوره كما هو مجسّد من خلال الآية تمثّل فالتبليغ والنصح وعن النصح قال الزمخشري "يقال نصحته ونصحت له. وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبه لا غير".[2] وهنالك أمر آخر يخص الصيغة التي ورد عليها فعل النصح، فقد بني على الفعلية "أنصح" فصيغة الفعل تدل على التجدد ساعة فساعة[3]ومن ثمّة ففعل النصح كان مستمرّا ومتكرّرا ومتجدّدا.

مـــا هي مطالبـــه؟

والشيء الملاحظ على فعل الإصلاح والنصح المستمر الذي قام به نوح عليه السّلام في قومه، هو المدّة الزمنية التي قضاها في دعوتهم، حيث لبث فيهم زمنا طويلا ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾[4] فكلمة "لبث" تدل على الإقامة والملازمة الدائمة.[5] وقد طالبهم في هذه المدّة الطويلة التي عاشها معهم بأمور عدّة كانت كلّها قمّة في المسالمة والمنفعة. وأوّلها دعوتهم إلى التوحيد بالرّجوع إلى عبادة الله عزّ وجلّ وحده ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[6] فأسلوب النداء واضح في

---

[1] الأعراف الآية62.

[2] الكشاف ج2 ص456.

[3] ينظر تفسير الرازي مفاتيح الغيب ج14 ص302.

[4] العنكبوت الآية14.

[5] ينظر مفردات في غريب القرآن مادة "لبث" ج2 ص446.

[6] المؤمنون الآية23.

في قول نوح عليه السلام وأداته "يا"[1] والتي غالبا ما تستعمل للبعيد ويمكن استعمالها أحيانا للقريب حرصا من المنادي على إقبال المدعو عليه ومفاطنته وتنبيهه لما يدعوه إليه. كما أنّ تواضع نوح عليه السلام جعله ينسب نفسه إلى قومه في النداء "يا قوم" بدعوتهم لعبادة الله. ثمّ شدّد على أنّ العبادة لا تكون إلاّ لله ﴿أَنِ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[2] فهذا تركيب امتزجت فيه أساليب متعدّدة من تفسير ونفي واستثناء، فالتعبير والتفسير قامت بأدائه "أن"[3] المخفّفة بغرض الطلب، والنفي بـ "لا"، والاستثناء بـ "إلاّ" فطالبهم بعبادة الله الواحد ونفى العبادة لبقية المخلوقات. ثمّ طالبهم بعد ذلك بالتقوى ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[4] فهذا أسلوب من أساليب العرض من خلال استعماله لـ "ألا"[5] المخفّفة فهي تفيد في هذا السياق العرض حيث عرض عليهم التقوى. ثمّ انتقل من أسلوب العرض إلى أسلوب الأمر في الدعوة إلى اتقاء الله، مع دعوتهم بالأمر لطاعته ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.[6] أي طاعته بإتباع التعاليم التي جاء جاء بها. ليطلب منهم بأسلوب الأمر الذي فيه جانب من مع الدعوة إلى عبادة الله بالتقوى والطاعة ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.[7] ليأمرهم كذلك

---

[1] ينظر خصائص "يا" المفصل في صنعة الإعراب أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري تحقيق علي أبو ملحم دار ومكتبة الهلال بيروت الطبعة الأولى 1993 ص431. وينظر كذلك الخصائص أبو الفتح عثمان ابن جني تحقيق محمد علي النجار عالم الكتب بيروت ج2 ص196.

[2] هود الآية26.

[3] ينظر دلالات "أن" المخفّفة رصف المباني ص112.

[4] الشعراء الآية106.

[5] المرجع نفسه ص79.

[6] الشعراء الآية108.

[7] نوح الآية 3.

بالاستغفار﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ .[1] ويؤكّد على قدرة الله عزّ وجلّ اللامتناهية في فعل المغفرة.

المعطيات الجديدة:

وقد وعد نوح عليه السلام قومه بظهور ملامح جديدة ستغيّر حياتهم إلى الأحسن في حال ما إذا اتّبعوا نظام الحياة الجديد الذي دعاهم إليه. وأولى هذه الملامح التي تقدّم بها العفو عنهم والمغفرة لهم عن كلّ الذنوب التي ارتكبوها كما قدّم لهم اقتراحا آخر وهو أن يزيد الله لهم في أعمارهم وآجالهم وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .[2] لكن المغفرة ليست لكلّ الذنوب وذلك لأنه لم يقل" ذنوبكم" مباشرة بل قال "من ذنوبكم" و "من" في هذا السياق تدلّ على التبعيض[3]؛ أي بعض ذنوبكم. كما أن رغبة نوح في إصلاح قومه وخوفه وحرصه الشديد على خدمة قومه، دفعاه _بأوامر إلهية بطبيعة الحال_ إلى تقديم تفضيلات أخرى لقومه، فالمغفرة وتأخير الأجل سيدعّمان بالعيش الكريم، بتوفير كلّ مسببات الحياة، وأهم شيء فيها رزقهم بالغيث، وهو ما أكّد عليه نوح عليه السلام بقوله: ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾[4] ومن منطلق الرزق هذا، سيصبح هذا القوم من أفضل الأقوام التي أمدّها الله سبحانه وتعالى بنعمه كاملة، من مال

---

[1] نوح الآية10.

[2] نوح الآية4.

[3] ينظر رصف المباني ص323.

[4] نوح الآية11.

وبنين، وكلّ صفات الخير حيث خاطب نوح قومه في هذا الشأن قائلا لهم ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ .[1] وهذه هي قمّة رفاهية الإنسان، ومظاهر الحياة الكريمة.

عدوانية قومـــه:

التعجّـــب:

أوّل مظاهر العدوانية التي أبداها قوم نوح نحوه تمثّلت في تعجّبهم من أن تكون النبوّة لبشري مثلهم، وما زاد من تدعيم موقفهم المتعجّب في أن يكون إنسان مثلهم له الفضل باختياره لنقل الرسالة الإلهية، هو كونه اتّبع من طرف أناس يصنفهم قومه كضعاف أو كأدنى طبقات المجتمع، وهذا ما يوحي مبدئيا إلى أنّ مجتمعه كان مبنيا على أسس طبقية، وبذلك لا يمكن أن يدخلوا في مستويات جديدة من الحياة، ينزلون بها من مستواهم المعيشي الذي يظنّون بأنه عال، إلى طبقة يتساوون فيها مع من وصفوهم بأراذل الناس. بل كانوا يبحثون عن أن يكون لهم الفضل دائما، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى حكاية عن رد فعلهم الذي تميّز بالنظرة الاستعلائية ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ .[2] وفي قوله: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا

[1] نوح الآية12

[2] المؤمنون الآية24.

بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .[1]

وبالنّظر إلى هذين الآيتين فهما يشيران إلى تعجّب المجموعة الرافضة والتي عبّر عنها القرآن بـ[الملأ][2] إشارة إلى الجماعة التي تجتمع على رأي خادع للعيون والنفوس، لكن في الآية الأولى نلاحظ أن التعجّب كان بالإشارة إلى نوح عليه السلام فقط ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أي لم يكن الحوار مباشرا، كما نلمس في الخطاب شيئا من المقارنة والتسوية مع المُخَاطَبين "مثلكم". لكن في الآية الثانية نلاحظ أنّ الحوار كان مباشرا بالحديث إلى نوح عليه السّلام ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾ والمقارنة والتسوية شملت المتكلّم "مثلنا". وهذا ما يوحي مبدئيا بأنّهم كانوا في البداية يتوقّعون فشله في إيصال التعاليم إلى الناس وإشاعتها، ومن ثمّة عدم التحاور معه من باب عدم إعطائه قيمة، والدليل على ذلك أن الآية الأولى لم يأتي فيها ذكر لمن تبعّه. لكنهم بعد ذلك اضطرّوا ودفعوا إلى محاورته، لأنّهم أحسّوا بعلو شأنه وتوسّع دائرة تعاليمه، بكثرة أتباعه الذين وصفوهم بالأراذل، ولذلك ذكروا في الآية الثانية، ومن ثمّة أصبح لزاما عليهم محاورته لأنّه أصبح يمثّل خطرا عليهم وعلى مكانتهم الاجتماعية التي صنعوها لأنفسهم.

وقد ردّ عليهم نوح عليه السلام بالقول المباشر ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .[3] وهذا من

---

[1] هود الآية27.

[2] ينظر مفردات في غريب القرآن مادة "ملأ" ج2 ص473.

[3] الأعراف الآية63.

أساليب الاستفهام بالهمزة ووظيفة الاستفهام[1] في هذه الآية هي استنكار لتعجبهم وأقوالهم التي تبعت تعجّبهم، ومن ثمّة الرد على تساؤلاتهم واستفهاماتهم الدائرة.

الجـــدال والمـــلل:

وقد اتّبع نوح عليه السلام أسلوبا مسالما في ترغيب قومه لاتباع التعاليم والأفكار الجديدة التي يريد إيصالها إليهم، واعتمد في ذلك على أسلوب الحوار معهم وتذكيرهم في كلّ مرّة بما يدعو إليه، وذلك تفاديا للدخول في صراعات قد تؤدّي إلى ما لا يحمد عقباه، هذا ما دفع بقومه إلى الملل منه ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ .[2] وقد رأى قومه بأنّ طريقته التي يتّبعها والتي تعتمد على مبدئ الحوار بالتي هي أحسن، لا تعدّ إلا ضربا من الجدل[3] الذي لا فائدة منه لأنّه كان في كلّ مرّة يردّ حججهم التي يتحجّجون بها لرفض رسالته ﴿ قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ *قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ

---

[1] ينظر فيما يخص وظائف الاستفهام في القصة القرآنية كتاب "جماليات القصّة القرآنية د. يوسف حسن نوفل دار الشروق القاهرة الطبعة الأولى1424هـ 2003م ص105.

[2] يونس الآية71.

[3] الجِدَالُ المُفَاوضَةُ عَلَى سبِيلِ المُنَازَعَةِ والمُغَالَبَةِ وأصلُهُ مِنْ جَدَلْتُ الْحَبْلَ أَي أَحْكَمْتُ فَتْلَهُ ومنه الجَدِيلُ، وَجَدَلْتُ الْبِنَاءَ أحْكَمْتُهُ وَدِرْعٌ مَجْدُولَةٌ. وَالأَجْدَلُ الصَّقْرُ المُحْكَمُ الْبِنْيَةِ، وَالمِجْدَلُ الْقَصْرُ المُحْكَمُ البنَاءِ، ومنه الجِدَالُ فكأنَّ المُتَجَادِلَيْنِ يَفْتِلُ كلُّ وَاحِدٍ الآخَرَ عَنْ رَأْيِهِ، وَقِيلَ الأصلُ في الجِدَالِ الصُّرَاعُ وإسقاطُ الإنسانِ صاحِبَهُ عَلَى الجَدالةِ وهي الأَرْضُ الصُّلْبَةُ ينظر مفردات في غريب القرآن مادة "جدل"ج1 ص89.

إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ .[1] فهم تحجّجوا بالجدال وردّ عليهم بقدوم العقاب لا محالة.

التكذيب واتهامه بالجنون:

كما تعرّض نوح عليه السلام إلى نوع آخر من العدوانية تمثّل في اتهامه بالكذب وهو ما جاء ذكره في القرآن الكريم في قوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ .[2] وفي قوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ .[3] ففي الحالتين التكذيب مسبوق بالفاء وهي استئنافية، وتشير إلى أنّ تكذيبهم قد جاء مباشرة بعد سماعهم بأمره، دون التكلّم معه ومحاولة محاورته وتمحيص الأمور. ولم يتوقّف الحد عند التكذيب وكفى بل تعدّى ذلك إلى اتهامه بالجنون ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ .[4] وقالوا عنه كذلك ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾ .[5] فهم كما قال الزمخشري "قد جنّنوه وبالرغم من علمهم بأنه أرجح الناس عقلاً وأوزنهم قولاً. ثمّ دعوا إلى احتماله

---

[1] هود32. 33.

[2] الأعراف الاية64.

[3] يونس الآية73.

[4] النجم الآية9.

[5] المؤمنون الآية25.

والصبر عليه إلى زمان، حتى ينجلي أمره عن عاقبة، فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه".[1]

العصيان والمكر واتهامه بالضلال:

كذلك أبدى قوم نوح سلوكا عدوانيا آخر تمثّل في العصيان الذي دفعهم إلى اتباع زينة الحياة الدنيا من مال و بنين، وذلك ما أقرّ به نوح عليه السلام مخاطبا الله تعالى ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾[2] وقد زاوجوا عصيانهم بأسلوب المكر في معاملتهم وسلوكهم ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾[3] ووصل بهم عصيانهم ومكرهم هذين إلى حدّ اتهامه بالضلال، وهو ما جعل نوحا عليه السلام يعمل جاهدا لمحو تلك الصورة التي رسمت له بالعصيان والمكر محاولا إفهامهم وتذكيرهم بأنّه بعيد كلّ البعد عن الضلال، فهو لا يتعدّى أن يكون مجرّد رسول خصّه الله عزّ وجلّ بالرسالة ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ *قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[4]. فهم اتهموه بالضلال وإجابته جاءت عن الضلالة؛ أي حوار بين الجمع والمفرد، وذلك كما قال الزمخشري لأنّ "الضلالة أخصّ من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال: ليس بي شيء من

---

[1] الكشاف ج4 ص225.

[2] نوح الآية21.

[3] نوح الآية22.

[4] الأعراف الآية60. 61.

الضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر، فقلت: ما لي تمرة فإن قلت: كيف وقع قوله: {وَلَكِنّي رَسُولٌ} استدراكاً للانتفاء عن الضلالة؟"[1]

التولّي والأجر:

الحديث عن اتباع زينة الحياة الدنيا من مال وبنين يسوقنا إلى نوع آخر من السلوك العدواني لقوم نوح وهو التولي. ذلك ما دفع بنوح عليه السلام إلى محاولة ترشيدهم وذلك عن طريق التوجّه إلى القول بأنّه يدعوهم إلى منهج جديد لا يطالبهم فيه بأجر ولا يراد من ورائها ثمن أي أنّ الغاية من دعوتهم إلى اتباع هذا المنحى الجديد ليس الربح أو الحصول على المال، وذلك ما قاله نوح لقومه وتكرر في ثلاث سور في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ .[2] وفي قوله: ﴿وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ .[3] وفي قوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .[4] فكلمة "سأل" والتي هي محور الآيات الثلاث والمتداخلة في التركيب مع كلمة الأجر تغيّر تصريفها بحسب الآية، فكانت في الماضي في الآية الأولى "سألتكم" وفي المضارعة في الآيتين الأخريين "أسألكم" كما أنّ السؤال كان منفيا في الحالات

---

[1] ينظر الكشاف ج2 ص454.

[2] يونس الآية72.

[3] هود الآية29.

[4] الشعراء الآية109.

الثلاث في حالتين نفي بـ "ما" [1] نافية للماضي "ما سألتكم" و للمضارع "ما أسألكم" فهي إذا دخلت على الماضي تركته على مضيّه والمعنى أنّه لم يطلب منهم أجرا في ما مضى، وإذا دخلت على المضارع خلّصته للحال ويكن للاستقبال كذلك بمعنى أنّه لن يطلب منهم الأجر ومن ثمّة فالآيات مكمّلة لبعضها العض والغرض منها أنّه يريد منهم التقوى والطاعة بغير أجر لا في الماضي ولا في الحال ولا الاستقبال. وهنالك حالة كان نفي السؤال فيها بـ "لا"؛ أي "لا أسألكم" وهي نافية في هذه الحالة للمضارع وهي مدعّمة للأقوال السابقة في نفي طلب الأجر والمال.

العناد والاستكبار:

وقد اتبع نوح عليه السلام كلّ الطرق وفي كلّ الأوقات، بغرض هداية قومه ليتبعوا الطريق المستقيم، طريق السلامة والنجاة، لكن قومه استكبروا واستعملوا كلّ الوسائل لرفض ما كان يدعوهم إليه نبيّهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا *فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا *وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا *ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا *ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ . [2] فالملاحظ أنّ الإخبار في كلّ هذه الآيات اعتمد فيه على التوكيد، وقد تكرّر حرف التوكيد "إنّي" اربع مرّات في هذا الآيات، وهذا يدلّ على إصراره على هداية قومه مستعملا في ذلك كلّ

[1] ينظر رصف المباني ص310.

[2] نوح5. 6. 7 . 8. 9.

الوسائل، وفي كلّ الأزمنة، ورفض قومه الواضح لما يدعوهم إليه، فهم قوم يصرّون على رفض هذه التعاليم الجديدة ويستكبرون ويلحون في استكبارهم.

السخرية:

وبعد أن ضاق صدر نوح عليه السلام من جرّاء الأفعال الدنيئة التي كان يمارسها قومه، وبعد أن تأكّد نهائيا من عدم تقبّلهم له ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ .[1] توجّه بعد أن يأس من قومه بالدعاء إلى الله عزّ وجلّ كي ينصره على الذين كذّبوه ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ .[2] ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِي﴾ .[3] فاستجاب الله عزّ وجلّ له وأمره بأن يصنع سفينة ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ .[4] ﴿وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ .[5] وبالرغم من اقتراب العقاب إلاّ أنّ عنادهم واستكبارهم قد تواصل وبلغ ذروته، فأصبح سلوكهم يميل إلى السخرية من نوح عليه السلام، عندما كان يعمل على صناعة سفينة النجاة التي أمره الله

---

[1] هود الآية36.

[2] النجم الآية10.

[3] المؤمنون الآية26.

[4] المؤمنون الآية27.

[5] هود الآية37.

بإنجازها لأنّها ستكون الوسيلة الوحيدة لتفادي العقاب الإلهي، الذي هو قريب قدومه ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ .[1] فهذا تركيز واضح على ردّ السخرية فيما هو قادم من الزمن.

4. إبراهيم عليه السلام

أوّل شيء يمكن الإشارة إليه ونحن بصدد الحديث عن المسالمة، هو ظهور لفظ من مشتقات كلمة السلم نادى به إبراهيم عليه السلام في هذه المرحلة من تاريخ البشرية، ألا وهو "الإسلام" والذي يعتبر أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من رقي في جانب الأخلاق ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ .[2] والميزة العامة والتي هي من باب المسالمة والتي عرف به سيّدنا إبراهيم عليه السلام، وكما جاء ذكرها في القرآن الكريم، هي سلامة قلبه وخلوّه من كلّ الأمراض، سلامة قلبه تلك جعلته صادقا في تفكيره ومن ثمّة في سلوكه وتصرفاته ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ .[3] ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .[4] ففي هذا التركيب كما قال سيد قطب "صورة للاستسلام الخالص، تتمثّل في مجيئه لربّه، وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثّل في سلامة قلبه. والتعبير

[1] هود الآية38.

[2] النساء الآية 125.

[3] مريم الآية 41.

[4] الصافات الآية84.

بالسّلامة تعبير موح مصوّر لمدلوله، وهو في الوقت ذاته بسيط قريب المعنى واضح المفهوم. ومع أنّه يتضمّن صفات كثيرة من البراءة والنقاوة والإخلاص والاستقامة إلاّ أنّه يبدو بسيطا غير معقّد، ويؤدّي معناه بأوسع مما تؤدّيه هذه الصفات كلّها مجتمعات".[1]

دافعه المسالم:

وكما رأينا مع نوح عليه السلام، فالشيء الذي دفعه إلى الاهتمام أكثر بقومه، كان خوفه عليهم من الضلال الذي هم فيه، وكذلك الأمر مع إبراهيم عليه السّلام، فقد أبدى موقفه المسالم تجاه قومه، ودافعه إلى ذلك خوفه عليهم لأنهم مشركون، بالرغم من عدم مبالاتهم، فكان الخوف في بادئ الأمر على أبيه أقرب الناس إليه حيث خاطبه قائلا: ﴿يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ .[2] فبداية هذا التركيب يميّزها أسلوب النداء "يا أبت" والغرض منه هو تنبيه الأب من الغفلة التي هو فيها، ليأتي بعد هذا النداء التوكيد "إنّي أخاف"، فهذا امتزاج واضح بين التنبيه والتوكيد على خوفه من غفلة أبيه ومن العذاب الذي سيلحق به إن استمرّ في غفلته هذه. ليصبح خوفه بعد ذلك عاما وشاملا لقومه ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .[3] وتتجلّى هنا صورة من صور جماليات

---

[1] ينظر في ظلال القرآن سورة الصافات.

[2] مريم الآية45.

[3] الأنعام الآية81.

أسلوب الاستفهام، حيث بدئ الكلام كان بـ "كيف"[1] وهو تساؤل عن الحال بالدرجة الأولى، لكن استعمالها في هذا المقام جاء للدلالة على التعجّب، فهو يتعجّب من عدم خوفهم على أنفسهم وتخوّفه هو عليهم. والأمر كذلك في الحالة الثانية من الاستفهام في الآية نفسها "فأي الفريقين" وحاصل هذا الكلام كما قال الرازي "مالكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف؟ ولم يقل: فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم؟ احترازاً من تزكية نفسه فعدل عنه إلى قوله: (فأي الفريقين) يعني فريقي المشركين والموحدين".[2]

محور الرسالة:

ولقد كانت المشكلة الرئيسة التي يقع فيها قومه هي الشرك بالله، شرك جعل تركيزه الكلي منصبّا على محور العبادة ليحوّلها من الشرك إلى التوحيد. فكانت له تساؤلات ومسائلات عن ماهية الأشياء التي يعبدها قومه، وخروجه برأي عام يبتعد فيه عن كل ما يتبّعون، ويتبرأ به مما يعملون. وقد كان حوار إبراهيم في بداية دعوته خاصّا، فتوجّه به إلى صلة قرابته، وبالضبط إلى أبيه دائما، حيث عمل على دعوته إلى ترك عبادة الأصنام والابتعاد عنها، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ

[1] ينظر حروف المعاني ص35.

[2] تفسير الرازي مفاتيح الغيب ج13 ص49.

مُبِينٍ ﴾ .[1] وفي قوله: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ .[2]

إِذْ قَالَ	إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
	لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا

وكما هو ملاحظ فمنطلقات سيّدنا إبراهيم عليه السلام في الدعوة، كانت بتعجّبه من الشيء الذي يعبده أبوه، والمتمثّل في الأصنام، ليصنّف ذلك السلوك بالضال، ليشير بعد ذلك إلى فقدان المعبود لمعالم الإحساس المتمثّلة في السمع والبصر، مع ابتعاد صفات المنفعة فهو لا ينفع حتّى نفسه. وقد ركّز في حواره مع أبيه على أسلوب الاستفهام بالهمزة في الآية الأولى، و"لِمَ" في الثانية، استفهام غرضه الدلالي التعجّب دائما، فهو يتعجّب من المستوى العقلي والفكري الذي جعل أباه وقومه يعبدون به الأصنام. وعن الغرض من مزاوجة أسلوبي النداء والاستفهام في تركيب واحد فقد رأى أبو السعود بأنّه لتثبيت وتقريرً الفعل "وهو داخل تحت الإنكار لكونه بيناً له.. إنكاراً لتعزُّزِه بها".[3]

ثمّ توسّعت دائرة الحوار لتشمل بالإضافة إلى أبيه قومه، وكان ذلك في آيات ثلاث في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ .[4] وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ

[1] الأنعام الآية74.

[2] مريم الآية42.

[3] تفسير أبي السعود ج3 ص151.

[4] الشعراء الآية70.

لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ .[1] وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ .[2]

ويمكن تمثيل ذلك كالآتي:

إِذْ قَالَ	إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ	إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ
	لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ	مَا تَعْبُدُونَ
		مَاذَا تَعْبُدُونَ
		مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ

وإذا ما قرأنا الجدول بهذا الترتيب، سنلاحظ بأنّ إبراهيم عليه السلام بدأ أوّلا بإعلان براءته من الأشياء التي يعبدها قومه. ثمّ جاءت تساؤلاته التي فيها نوع من التعجّب وكما هو ظاهر ففي البداية كان التساؤل بـ"ما" أي تساؤل عام وكأنّه لا يعرف مبدئيا طبيعة الشيء الذي يعبدونه، ببنائه على عدم المعرفة أو كما قال النسفي في تفسيره فسؤاله كان عن أي شيء يعبدون "وإبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة الأصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس بمستحق للعبادة".[3] ليتحوّل بعدها التساؤل بالإشارة العامة بـ"ماذا"، فـ "ما" تفيد الاستفهام وغرضه تعجبي، و"ذا" تفيد الإشارة.[4] وهي إشارة إلى شيء قريب وحاضر ومُدرَك بالبصر. لكن دون ذكره أو تعيين نوعه، وذلك من باب تحقير المشار إليه والحط من شأنه

[1] الصافات الآية85.

[2] الأنبياء الآية52.

[3] تفسير النسفي ج3 ص188.

[4] ينظر معاني النحو الدكتور فاضل صالح السامرائي شركة العاتك القاهرة الطبعة الثانية 1423هـ 2003م ج4 ص225.

وقيمته. ثمّ الإشارة بالتخصيص إلى التماثيل مباشرة، وكأنّ قومه بغبائهم المصطنع وبلادتهم الافتراضية، لم يفهموا الإشارة الأولى أو لم يحدّدوا جيّدا الشيء المشار إليه في الأوّل، وذلك كما قال الزمخشري "تجاهل لهم وتغاب، ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها، مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها".[1]

ثمّ واصل حديثه عن فساد منطق عبادتهم، وعن أخطاء اختياراتهم الاعتقادية ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾.[2] تلك الاعتقادات الخاطئة الموروثة من آبائهم لينتهي إلى وصف سلوكهم بالإفك ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾.[3] والإفْكُ كما قال الراغب هو كل مصروف عن وجهه الذي يحقّ أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المعاب مُؤْتَفِكَةٌ.[4] ولذلك وصف إبراهيم فعلهم بالإفك، لأنّهم صرفوا اعتقادهم من الحق إلى الباطل، وصرفوا قولهم من الصدق إلى الكذب، وأفعالهم من الجميل إلى القبيح. وقد حمله صاحب بصائر ذوي التمييز[5] على معنى العبادة في مثل هذا التركيب. ليقول إبراهيم بعد ذلك لهم﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.[6] فهذا تضجّر واضح وتكرّه من خلال ابتدائه الكلام الكلام بـ"أف" والتي تتخذّ احتمالات دلالية ثلاثة. "أحدهما أنه اسم لفعل الأمر أي

---

[1] الكشاف ج4 ص149.

[2] الشعراء الآية75. 76.

[3] الصافات الآية 86.

[4] مفردات في غريب القرآن مادة "أفك" ج1 ص19.

[5] ينظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي تحقيق محمد علي النجار المكتبة العلمية بيروت ج2 ص101

[6] الأنبياء الآية 67.

كف واترك. والثاني أنه اسم لفعل ماض أي كرهت وتضجرت. والثالث أنه اسم لفعل مضارع أي أتضجر منكم".[1]

وقد ركّز إبراهيم عليه السلام في عملية تعديل السلوك الاعتقادي لقومه والعدول به إلى مساره الصائب، على محاولة الإشارة إلى مواقع خطئهم فيما يتعلّق بطبيعة الذي يتخذونه معبودا، فركّز على ماهيته وهي كونه وثنا ينتمي إلى عالم الجماد ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ .[2] ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ .[3] فهو إثبات واضح لعبادة الأوثان واتخاذها آلهة، ونفي لما سواها من العبادات، والدليل على ذلك التركيز على استفتاح الكلام في الآيتين بـ "إنّما" فهي غالبا ما تأتي إثباتا لما يذكر بعدها ونفيا لما سواه.[4] وكأنّ القول في الآيتين على معنى (ما تعبدون وما اتّخذتم من دون الله إلاّ إلاّ أوثانا). ليركّز بعدها على كون الأوثان مصنوعة بقدرة ومهارة يدوية إنسانية وهي النحت والتشكيل، وبذلك فالإنسان هو الذي يتصرّف فيه كيف ما يشاء وليس العكس، وكان ذلك بأسلوبي استفهامي تعجّبي ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ .[5] ثمّ ركّز على أشياء أخرى كعدم المنفعة وعدم امتلاك الرزق والتصرّف فيه، وفقدانه للحواس ودائما بالاعتماد على التوكيد والاستفهام

---

[1] ينظر اتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن ج1 ص483.

[2] العنكبوت الآية17.

[3] العنكبوت25.

[4] ينظر دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد التنجي دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثالثة 1420هـ 1999م ص252.

[5] الصافات الآية95.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .[1] ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ .[2] ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ .[3] ليصنّفهم في نهاية المطاف كعدو له مع التوكيد على ذلك ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .[4] فهو من الناحية البلاغية "قول اجتمع فيه حسن التخلص والمطلب معا".[5] كما أنّ الضمير اللاحق بالتوكيد، هو ضمير جمع "إنّهم" وبناء العداوة جاء على المفرد "عدو" ولم يقل "أعداء" وذلك من جماليات الخطاب والغرض منه أنّه جمعهم في التوكيد وأفردهم في العداوة، بمعنى أنّهم كلّما أظهروا العبادة لمعبود ما فذلك المعبود هو عدو له ففعل العداوة كما قال الزركشي[6] يعود على سيّدنا إبراهيم لأنّ الأوثان لا تعادي، والمعنى (فإنّي عدو لهم)، واستثنى حالة واحدة وأبعدها عن باب العداوة، وهي عبادة الله عزّ وجلّ. وهذا من حسن الانتقال من نفي العبادة لغير الله، وإثباتها له بالاستثناء.

ليقوم بالعمل على دعوة قومة إلى تحويل عبادتهم من الأوثان نحو عبادة الله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .[7] وقد اتبع في ذلك أسلوب الأمر حيث تكرّر مرّتين في الآية "اعبدوا"

---

[1] العنكبوت الآية17.

[2] الأنبياء الآية66.

[3] الشعراء الآية72.

[4] الشعراء77.

[5] ينظر اتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن ج2 ص293.

[6] بنظر البرهان في علوم القرآن ج1 ص44.

[7] العنكبوت16.

"اعبدوا" فهي دعوة لإفراد الله بالعبادة ثمّ اتقاء عقابه وعذابه بحسب ما رأى القرطبي.[1] فذلك هو الطريق الصائب.

ليقدّم لهم جملة من المعطيات التي جعلته يفضّل بها عبادة الله عزّ وجلّ على الأصنام، هذه المعطيات التي تتمحور على الخلق والهداية، الطعام والشراب: المرض والشفاء، الموت والبعث ومغفرة الخطايا ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ *وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ *وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ *وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ *وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.[2]

فهذا تواصل من إبراهيم مع الله سبحانه وتعالى حيث أنّنا نستشعر كما قال سيّد قطب "من صفة إبراهيم لربه، واسترساله في تصوير صلته به، أنه يعيش بكيانه كله مع ربه. وأنه يتطلع إليه في ثقة، ويتوجه إليه في حب، وأنه يصفه كأنه يراه، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه . . والنغمة الرخية في حكاية قوله في القرآن تساعد على إشاعة هذا الجو وإلقاء هذا الظل، بالإيقاع العذب الرخي اللين المديد.. (الذي خلقني فهو يهدين).. الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم؛ فهو أعلم بماهيتي وتكويني، ووظائفي ومشاعري، وحالي ومآلي: (فهو يهدين)إليه، وإلى طريقي الذي أسلكه، وإلى نهجي الذي أسير عليه. وكأنما يحس إبراهيم _عليه السلام_ أنه عجينة طيعة في يد الصانع المبدع،

[1] ينظر تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) أبو عبد الله القرطبي تحقيق أحمد عبد الحليم البردوني دار الشعب القاهرة الطبعة الثانية 1372هـ

[2] الشعراء الآيات من79 حتى82.

يصوغها كيف شاء، على أي صورة أراد. إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين. (والذي هو يطعمني ويسقين❖وإذا مرضت فهو يشفين). فهي الكفالة المباشرة الحانية الراعية، الرفيقة الودودة، يحس بها إبراهيم في الصحة والمرض. ويتأدب بأدب النبوة الرفيع، فلا ينسب مرضه إلى ربه _ وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح_ إنما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه.. ويشفيه.. ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يبتليه. (والذي يميتني ثم يحيين). فهو الإيمان بأن الله هو الذي يقضي الموت، وهو الإيمان بالبعث والنشور في استسلام ورضى عميق. (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين). فأقصى ما يطمع فيه إبراهيم _عليه السلام_ النبي الرسول، الذي يعرف ربه هذه المعرفة، ويشعر بربه هذا الشعور، ويحس في قرارة نفسه هذه القربى.. أقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين. فهو لا يبرئ نفسه، وهو يخشى أن تكون له خطيئة، وهو لا يعتمد على عمله، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئا، إلا أنه يطمع في فضل ربه، ويرجو في رحمته، وهذا وحده هو الذي يطمعه في العفو والمغفرة. إنه شعور التقوى، وشعور الأدب، وشعور التحرج؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة عظيمة، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل.

وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة: توحيد الله رب العالمين. والإقرار بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض. والبعث

والحساب بعد الموت وفضل الله وتقصير العبد. وهي العناصر التي ينكرها قومه، وينكرها المشركون".[1]

الحجاج والجدال:

كما تميّز سيّدنا إبراهيم عليه السلام بقدرته الهائلة والفائقة على الحجاج، بردّ كلّ مزاعم خصومه الذين دخلوا معه في جدال بالحجة الدامغة. وقد صوّر لنا القرآن الكريم حجاجه الذي دار بينه وبين ذلك الذي آتاه الله الملك فقاده ذلك إلى خلق الكبرياء فيه فيتجرّأ بالحجاج على الله سبحان وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .[2] كما له القدرة حتّى على ردّ حجاج الجماعة وليس الفرد فقط ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ .[3]

فتعدّد أساليب الخطاب في ردّ حجاج قومه واضح في الآية الأخيرة. حيث ابتدأه بالاستفهام بالهمزة والغرض من ذلك هو التصوّر والتصديق.[4] ليمر بعدها إلى أسلوب التحقيق والتوكيد بـ"قد" وفي ذلك توكيد على هداية الله عزّ وجل له

---

[1] في ظلال القرآن تفسير سورة الشعراء78.

[2] البقرة الآية 258.

[3] الأنعام الآية80.

[4] ينظر معاني النحو ج4 ص207.

وتحقّق تلك الهداية واقعيا. ليقرّ بعدم خوفه من عبادة الأوثان بأسلوب النفي (لا أخاف) وكذلك عدم خوفه من التأذّي، فالله هو الوحيد القادر على تغيير أحوال مخلوقاته، وقد عبّر عن ذلك بأسلوب الاستثناء (إلاّ أن يشاء ربّي..).

العدوانية بالرجم:

وقد ظهرت بوادر السلوك العدواني من أقرب الناس لإبراهيم عليه السلام وهو أبوه وتمثّل السلوك في تهديده بالرجم إن لم يكف عن دعوته ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[1] فأسلوب الاستفهام واضح بالهمزة لكن الشيء الملاحظ هو التقديم والتأخير في الإخبار بين المبتدأ والخبر فالأصل (أأنت راغب) وهذا ما يشير بأنّ الأهمية في تقديم الخبر لأنه كما قال الزمخشري "كان أهمّ عنده.. وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد".[2] كما يلاحظ على أسلوب النداء المتأخّر في التركيب، نداء إبراهيم باسمه (يا إبراهيم)، فهو لم يقابل نداء سيّدنا إبراهيم لأبيه (يا أبتي) في الآيات السابقة لهذه الآية، فكأنّه يتبرّأ من ابنه. ويتوعّده بأسلوب وقسمي بالعقاب في حالة عدم انتهائه عن فعله وقد شدّد على فعل العقاب المتمثّل في الرجم (لئن لم تنته لأرجمنّك) وهذه دلالة على المبالغة في العقاب بالرجم والذي يحتمل معنيين الرجم بالحجارة كدلالة أولى متعارف عليها والرجم باللسان دلالة إضافية تشير إلى الشتم.[3] وقد قابل إبراهيم

---

[1] مريم الآية46.

[2] الكشّاف ج4 ص25.

[3] ينظر الكشّاف ج4 ص25.

عليه السلام عدوانية أبيه تلك بأعلى مظاهر المسالمة وقد صرّح بذلك مباشرة ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .[1] فهو تقديم واضح للفظ السلام في التركيب وفي ذلك دلالة على أهميته القصوى في موضوع الخطاب وكما هو وارد في الآية فالفعل لم يتوقّف على إظهار المسالمة فقط، بل تجاوز إلى محاولة طلب المغفرة له. وإذا ما تمعّنا جيّدا إلى طبيعة التركيب فكلمة "السلام" توحي بدلالات متعدّدة منها التحيّة مبدئيا، ومقابلة العدوانية بالفعل المسالم كدلالة ثانية. وتشير كذلك إلى الانتهاء ضمنيا؛ أي انتهاء أمر الأب وانقضاء أمره باستمراره في كفره وعدم وجود امكانية رجوعه إلى الطريق المستقيم؛ طريق الهداية. من ثمّة قرّر إبراهيم عليه السلام العزلة والابتعاد عنهم والتفرّغ لعبادة الله عزّ وجلّ ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ .[2] فهذا مظهر من مظاهر طلب الابتعاد بلفظ الاعتزال ومعناه "تَجَنُّبُ الشيءِ عِمَالةً كانَتْ أو بَرَاءَةً أو غَيْرَهُمَا بالبدَنِ كان ذلك أو بالقَلْبِ".[3] وهذا التباعد والاعتزال كان بالمهاجرة بدينه حيث لم تؤثر فيهم نصائحه مثلما أشار إلى ذلك أبو السعود.[4] وكان رجاؤه واضح في استمرار حاله على أحسن وجه وقوله "عسى" دليل رجائه ذلك، فهو يستعمل لرجاء حصول الفعل في المستقبل القريب أو البعيد.[5] فرجاءه كان

---

[1] مريم الآية47.

[2] مريم الآية48.

[3] مفردات في غريب القرآن مادة "ع زل" ج2 ص334.

[4] ينظر تفسير أبي السعود ج5 ص269.

[5] ينظر معاني النحو ج1 ص245.

في عدم خيبة أمله وشقائه. وفي ذلك كما قال أبو السعود "تعريض بشقائهم في عبادة آلهتهم. وفي تصدير الكلام بـ"عسى" من إظهار التواضع ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على حقيقة الحق من أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب وأن العبرة بالخاتمة وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير ما لا يخفي".[1]

سلوك عبّاد الأصنام الرافض:

السلوك العدواني الذي أظهره قوم إبراهيم تمثّل مبدئيا في رفضهم للمنحى الاعتقادي الجديد الذي دعاهم إليه، ومن ثمّة إصرارهم على المواصلة في اتباع الطريق القديم وهو عبادة الأصنام ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ .[2] وهو سلوك آبائهم الذي لن يتخلّوا عنه، ولن يخالفوهم في ذلك ولو كانوا على خطأ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ .[3] فهم مثلما قال الرازي "لم يجدوا في جوابه إلا طريقة التقليد الذي يوجب مزيد النكير لأنهم إذا كانوا على خطأ من أمرهم لم يعصمهم من هذا الخطأ أن آباءهم أيضاً سلكوا هذا الطريق".[4] ليتهموه بعد ذلك بالتلاعب ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ .[5] فهم كما قال الزمخشري "بقوا متعجبين من تضليله إياهم،

---

[1] المرجع السابق ج5 ص269.

[2] الشعراء الآية71.

[3] الأنبياء الآية53.

[4] تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) ج22 ص152.

[5] الأنبياء الآية55.

وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة، لا على طريق الجدّ. فقالوا له: هذا الذي جئتنا به، أهو جدّ وحق، أم لعب وهزل؟"[1]

سلوكه مع الأصنام:

فدفعه رفضهم لترك عبادة الأوثان إلى البحث عن طريقة أخرى لإثبات عدم قدرة تلك الأوثان على حماية نفسها بطريقة فعلية، بعد أن كان يريد إقناعهم بعدم نفعها عن طريق التحاور معهم، فقرّر تحطيم الأصنام ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ*مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ*فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾. [2] ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.[3] وقد استعمل للتعبير عن تحطيم الأصنام كلمة (راغ) والرَّوْغُ بحسب الراغب هو "الميل على سبيل الاحتيال".[4] ومن ثمّة فالمعنى يمكن أن يتجه إلى الحيلة التي دبّرها حيلة، ليثبت عدم نفع الأوثان التي يعبدونها، وعدم قدرتها حتى على حماية نفسها، وهذه هي الحيلة التي اهتدى ومال إليها. وقرأها الزمخشري[5] على الذهاب الذهاب خفية من روغة الثعلب. وقد تكرّر فعل "راغ" مرتين وهذا من باب التوكيد اللفظي، فهو توكيد على اقباله عليهم، وهو كذلك استئناف للكلام لفعل راغ بعد فصله بسؤال الأكل (ألا تأكلون) ونفي النطق (ما لكم لا تنطقون) من باب الاستهزاء بها، ليستأنف فعله بتكراره (راغ)، والمعنى فراغ عليهم يضربهم ضرباً. أو

---

[1] الكشّاف ج4 ص150.

[2] الصافات الآيات من91 حتى93.

[3] الأنبياء الآية58.

[4] مفردات في غريب القرآن مادة "روغ" ج1 ص208.

[5] ينظر الكشّاف ج5 ص217.

فراغ عليهم ضرباً بمعنى ضارباً. ومعنى الضرب باليمين؛ أي الضرب الشديد القوي، لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما. ومن ثمّة فهي إشارة إلى القوّة والمتانة.[1]

سلوكهم بعد تحطيم أصنامهم:

الشيء الملاحظ على سلوكهم بعد تحطيم أصنامهم، هو اقتناعهم بأنّ تلك الأصنام ليست قادرة حقيقة على حماية نفسها، وهذا ما أراد إبراهيم عليهم السلام الوصول إليه عندما تعرّض للمسائلة ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ﴾ .[2] فكانت إجابته قمّة في الذكاء والحكمة ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ*فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ*ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [3] وهذا تدليل على ميله الواضح إلى الحيلة وقدرته الخارقة على استغلالها لتغيير فكرهم، وإثبات فساد اعتقادهم. (فرجعوا إلى أنفسهم) أي رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه. (فقالوا إنكم أنتم الظالمون) أي بعبادة من لا ينطق بلفظة ولا يملك لنفسه لحظة وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس من لا يرد عن رأسه الفأس.[4] كما القول (إنّكم أنتم الظالمون) يوحي بوجود نقاش بينهم أفضى إلى تبادل التهم فيما بينهم، ففريق يتهم الآخر بالظلم

---

[1] ينظر الكشّاف ج5 ص217.

[2] الأنبياء الآية62.

[3] الأنبياء الآيات63. 64 و65.

[4] ينظر تفسير القرطبي ج11 ص302.

والآخر يردّ عليه بمبادلة التهمة. وقد قرأ المفسّرون ومنهم الزمخشري التركيب (ثمّ نكسوا على رؤوسهم) على أوجه متعدّدة منها أنّ هنالك "إشارة إلى انقلابهم من حالة الاستقامة إلى حالة المجادلة بالباطل والمكابرة، وأنّ هؤلاء _مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق_ آلهة معبودة، مضارّة منهم. أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه، حين نفوا عنها القدرة على النطق. أو قلبوا على رؤوسهم حقيقة، لفرط إطراقهم خجلاً وانكساراً وانخزالاً مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام، فما أحاروا جواباً ما هو حجة عليهم".[1] وقد كان انقلاب حالهم بعد مدّة زمنية وليس في الحال وذلك لاستعمال "ثمّ" فهي حرف عطف يفيد الترتيب والتراخي ومعنى التراخي المهلة.[2] وهذا ما يدلّ على أنّ انتكاستهم جاءت بعد مهلة. كما يمكن قراءة الجملة على انتكاسة العقول التي هي على الرؤوس بمعنى أنّ الرؤوس هي حاملة العقول والأفكار، ومن ثمّة يحتمل أن يكون التركيب الغاية منه (ونكست العقول التي على رؤوسهم).

وبذلك وانطلاقا مما جاء في هذه الآيات فعقلهم قد أتيحت له فرصة الاطلاع على فكر جديد، يبرهن لهم على فساد اعتقاداتهم السابقة، وقد أقرّوا بفساد، لكن عقلهم عاود الرجوع إلى التقلّص*بعد ذلك إلى ما كان عليه من قبل، فنحن

---

[1] الكشّاف ج4 ص153.

[2] ينظر معاني النحو ج32 ص206.

* هنالك رأي قال به الكاتب الأمريكي "أوليفر هولمز" مفاده أنّ العقل عندما تتاح فرص الاطلاع على فكر جديد، فإنّه من المستحيل لهذا العقل أن يتقلّص بعد ذلك أبدا إلى ما كان عليه من قبل. وهذا ما لم يكن مع قوم ابراهيم عليه السلام. ينظر فيما يخصّ هذا الرأي العلاج السلوكي للطفل ص17.

نلاحظ هنا رجوعهم في رأيهم بعد أن أدركوا عدم قدرة الأصنام على أن تنفع ذاتها فما بالك أن يكون لها النفع في غيرها.

مكيدة القتل والحرق:

وقد أوصلهم ذلك الانتكاس على الرؤوس إلى التصرّف بشكل عدواني مع إبراهيم عليه السلام، وقد ظهر نمط جديد من أنماط السلوك العدواني يضاف إلى القتل وتمثّل في الحرق ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .[1] ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .[2] وقد زاوجوا في تصوير العقاب بين القتل والحرق والقتل عام والحرق وسيلة يمكن أن تؤدّي إلى القتل. كما أنّ الأمر بالحرق جاء على وزن "فَعَّل" وهي تشير إلى تكرّر الفعل.[3] وفي ذلك إشارة إلى المبالغة في العذاب. وذلك راجع إلى شدّة كيدهم له ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ ﴾ .[4] ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ ﴾ .[5] وقد واجهه قومه بالعدوانية فنال السّلام من عند الله سبحانه وتعالى ﴿ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ .[6] فهذا إبطال واضح مثلما أشار إلى ذلك الشيخ الشعراوي[7]

---

[1] العنكبوت الآية24.

[2] الأنبياء الآية68.

[3] بلاغة الكلمة في التعبير القرآني الدكتور فاضل صالح السامرّائي شركة العاتك القاهرة الطبعة الثانية 1427هـ 2006م ص38.

[4] الصافات الآية98.

[5] الأنبياء الآية70.

[6] الأنبياء الآية69.

[7] ينظر معجزة القرآن محمد متولّي الشعراوي أخبار اليوم إدارة الكتب ج1 ص8.

لفعالية النّار المتمثّلة في الحرق. ولقد شاء الله أن تظلّ النار متأجّجة محرقة قويّة. ثمّ يعطّل الله ناموس أو قانون إحراقها، فتعطّل بذلك إرادةُ الله خاصية إحراق النّار. فهذا انقلاب للعكس في خصائص النار من الحرارة إلى البرودة. فخرج إبراهيم عليه السلام منها سالما ولم يتأثّر بها.

حالات الخوف واليأس:

نوع أخر من أنواع سلوك الإنسان الذي عرف به منذ القديم، هو بلوغه في أوضاع معيّنة حالات من الخوف واليأس، وهو ما حدث مع سيّدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ *إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ *فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ *فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ *فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ *فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ *قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ .[1]

والجدير بالذكر أنّ إبراهيم عليه السلام أو أي مخلوق في هذه الدنيا إذا ما تجاوز الفترة أو السن التي يمكنه فيها الإنجاب، فهو لا محالة يائس أن يكون له ذلك بعد التجاوز. كما أن يأس زوج سيّدنا إبراهيم عليه السلام كان له سمة خاصّة به، والتي تتمثّل في تفكيره في من سيحمّله التوصيات لنقلها للأجيال التي ستأتي بعده، وهو ما كان له رحمة من الله سبحانه وتعالى بالرغم من عدم تصديق زوجه لذلك بادئ الأمر. حيث كانت رغبة إبراهيم عليه السلام في الحصول على أبناء

[1] إبراهيم الآيات من 24 حتى30.

وعبّر عنها بدعائه واستجابة الله لدعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ*فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ .[1]

وفي الأخير تبقى الإشارة في هذا النطاق، إلى نظرة إبراهيم عليه السلام المسالمة، حيث أنّه كان يحبّ خير البشرية جمعاء، في زمنه وفي غير زمنه، ولأكبر دليل على ذلك دعاؤه المستمر والذي تمحور حول الحفاظ على طلب الأمن والأمان، مع الإكثار من الرزق والنعم، والحفاظ على عبادة الله عزّ وجلّ وتجنّب عبادة الأصنام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .[2] ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ .[3]

وبالرغم مما لاقاه من أبيه، إلاّ أنّه بقي طالبا للمغفرة له، وذلك من باب مواجهة العدوانية بالمسالمة ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ .[4]

5. لوط عليه السلام:

لوط عليه السلام نبي من أنبياء الله سبحانه وتعالى أرسله إلى قومه لتوجيههم إلى جادة الصواب، وكان يخاطبهم دائما ليبيّن لهم بأنّه مجرّد رسول أمّنه الله على إيصال تعاليمه إليهم ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ .[5] والإخبار

---

[1] سورة الصافات الآية100 و101.

[2] البقرة الآية126.

[3] إبراهيم الآية35.

[4] الشعراء الآية86.

[5] الشعراء162.

كما هو ملاحظ مبني على التوكيد والجملة فيها تقديم وتأخير وكما هو معلوم لا يحدث التقديم والتأخير إلاّ لغرض يقتضيه المقام.[1] فهو في هذه الحالة يركّز على الأمر الأوّل ويؤكّد عليه بكونه هو المعني بحمل الرسالة. ليأتي بعد ذلك في مقام ثان التركيز على المعنيين باستقبال الرسول ثمّ الرسالة. ولأداء هذه المهمة المقدّسة المتمثّلة في تبليغ الرسالة الإلهية، زوّده الله عزّ وجلّ بسمات الأنبياء والرسل من حكم وعلم ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .[2]

دوره المسالم في قومه:

وأمّا عن الدور المسالم الذي جاء لوط عليه السلام لتأديته في قومه، فهو يهدف إلى تصحيح أخطاء اجتماعية كارثية وقعوا فيها، وذلك ما أشار إليه القرآن الكريم في آيات عديدة، ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .[3] ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ .[4] ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .[5]

ونمثّل هذه الآيات كالآتي:

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ	أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ	وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ

[1] ينظر معاني النحو ج1 ص15.
[2] الأنبياء سورة74.
[3] الأعراف الآية80.
[4] النمل الآية54.
[5] العنكبوت الآية28.

		مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ
	إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ	مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ

وكما هو معروف من الناحية اللغوية فالفاحشة معناها تجاوز الحد في كلّ شيء إلى درجة الفساد.[1] وهذا التّجاوز والتعدّي كان بممارسة فعل لم تعرفه البشرية من قبل، فقد اعتمد على أسلوب الاستفهام بالهمزة في الحالتين وهو استفهام لكن غرضه التعجّب، فهو يتعجّب من ممارستهم الفاحشة وأعينهم ترى ويستغرب في الحالة الثانية من أنّ هذا الأمر الذي يقدمون عليه غير مسبوق في تاريخ البشرية. أمّا في الحالة الثالثة فهو يؤكّد على أنّ هذا الأمر غير مألوف عند من سبق من بني الإنسان، بل هو وليد قومه، وهو فعل غيّر به منحى إحدى المطالب الشهوانية للإنسان، والمتمثّل في الغريزة الجنسية: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ .[2] ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ .[3] ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنكَرَ﴾ .[4]

وتلخّص هذه الآيات كالآتي:

إِنَّكُمْ	لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ	شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ	مُسْرِفُونَ
أَئِنَّكُمْ			تَجْهَلُونَ

[1] غريب لفظ القرآن مادة "فحش" ج2 ص373. لسان العرب ج6 ص326.

[2] الأعراف الآية81.

[3] النمل الآية55.

[4] العنكبوت الآية29.

		وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ

وبقراءتنا لهذا الجدول نلاحظ وجود توكيد عام في الحالات الثلاث على فعلهم المتمثّل في ممارسة الفعل الفاحش معاكسين بذلك ما أقرّته الطبيعة الإنسانية، فالمفروض أن تنال الشهوة وتحصّل من النساء هذا على طبيعتها، لكنّهم تجاوزوا هذه الطبيعة وفحشوا فيها، وهذا ما عبّر عنه القرآن بالإسراف والجهل، وبطبيعة الحال فمثل هذا الفعل سيؤدّي لا محالة إلى انقطاع نسل الإنسان وزواله.

ثمّ جاءت الإشارة إلى أن مثل هذا الفعل يصنّف في باب العدوانية ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ*وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ .[1] وهذا فيه اعتداء على أنفسهم حيث أنهم خرجوا أو خالفوا الطبيعة البشرية، وحتى إذا ما رجعنا إلى الوصف الفزيائي فهو يرفض التقاء شاردتين من طبيعة واحدة بل يشير إلى حدوث تنافر فيما بينهما.

هذا الخروج عن العادة، دفع بنوح عليه السلام إلى محاول إقناعهم بالعدول عن تصرّفاتهم، ودعاهم إلى أن يتقوا الله في أفعالهم هذه ويطيعوه في أوامر ونواهيه لهم بقوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي﴾ .[2] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا

[1] الشعراء الآية165. 166.

[2] الحجر الآية69.

تَتَّقُونَ ﴾ .[1] ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .[2] ليؤكّد لهم بعدها بأنّه لا يريد أجرا عن فعله هذا ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .[3]

العدوانية بالتكذيب والنفي:

وكل الأقوام التي سبقت، فقوم لوط لم يشذّوا عن القاعدة وأبدوا فعلهم العدواني المتمثّل في تكذيبهم للمرسلين ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .[4] والملاحظ على سلوك قوم لوط في عدوانيهم وبعد تكذيبهم له، تهديدهم له بالطرد من قريتهم وكأنهم يحاولون نفيه وإخراجه من ذلك المكان، لأنّهم رأوا فيه بمثابة من يفسد عليهم حياة الفساد والمعكّر لصفوهم، ووصفوه مع ذلك بالمتطهّر وكأنّ الطهارة بالنسبة إليهم شيء غير عادي. ففي البداية كانوا يطالبونه بالتوقّف عن فعله الإصلاحي مع تهديده بالإخراج من القرية ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ .[5] فهذا توكيد قسمي والغرض منه الوعيد.

فهم يتوعّدونه بالإخراج والطرد والنفي وبعد رفضه لتهديداتهم أرادوا تنفيذها ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ .[6] ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ

---

[1] الشعراء161.

[2] الشعراء الآية163.

[3] الشعراء الآية164.

[4] الشعراء الآية160.

[5] الشعراء الآية167.

[6] النمل الآية56.

إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ .[1] ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .[2]

ويمكن تمثيل هذه الآيات كالآتي:

مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا	أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ	مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ
	أَخْرِجُوهُمْ	مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ
	ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ	

وعلى ما هو ملاحظ فهي أوّل محاولة نفي عرفتها الإنسانية، كما قرنت حالة النفي هذه بالتحدّي، حيث تحدّوه بأن يأتهم بالعذاب الذي وعدهم به وكذّبوه به، فطلبوا منه أن يثبت صدقه إن كانت له القدرة على ذلك.

اللجوء إلى الله:

ويلجأ لوط عليه السلام إلى الله عزّ وجلّ لنصرته من الفساد الذي أظهره قومه ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .[3] **ويطلب النجاة له ولأهله** ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .[4] **فكان له ما أراد، واستجاب الله سبحانه وتعالى** ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ .[5]

---

[1] الأعراف الآية82.

[2] العنكبوت الآية29.

[3] العنكبوت الآية30.

[4] الشعراء الآية169.

[5] النمل الآية57.

وكلمة السلام دائما هي الغالبة في النهاية، وهي آخر وأفضل ما يختتم به الإنسان أعماله، فكما شهدناها عند نوح عليه السلام، ثمّ تكرّرها مع إبراهيم عليه السلام ها هي تعاد في قصّة سيّدنا لوط عليه السلام. وهو خير ما نختم به هذا الفصل ﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]. وهذا هو سلوك كلّ إنسان سوي مسالم.

وهذه هي مظاهر المسالمة والعدوانية التي ظهرت في القصص القرآني من خلال تفاعل شخصياته في المرحلة الأولى.

[1] النمل الآية59.

الفصل الثالث

السلوك في مرحلة الأمة بنو إسرائيل

يتم في هذا الفصل الإشارة إلى مظاهر العدوانية والمسالمة التي أوردها القصص القرآني في المرحلة الثانية من مراحل وجود البشرية على هذه الأرض. والشيء الذي يتميّز به قصص أنبياء هذه المرحلة بصفة عامة، هو ذكر حياتهم بالتدرّج والتفصيل؛ أي ذكر مراحل نموّهم من الولادة حتّى الكبر والنبوّة. كما بدأ في هذه المرحلة ذكر لفظ ومفهوم الكتاب حيث تجسّدت تعاليم الرّسل في رسالات وكتب سماوية، وهذه المرحلة تجتمع فيها حياة عدد من الأنبياء والرسل. والانطلاقة ستكون مع يوسف عليهم السلام.

1. يوسف عليه السلام

الحسد* والغيرة:

من الدوافع التي يمكن أن تؤدّي إلى التفكير في السلوك بعدوانية عند الإنسان وارتكابه لأشياء غير مرغوب فيها، الغيرة والحسد، فهما دافعان قويان يمكن أن يوصلا الإنسان إلى التفكير في القتل. ولقد ظهر هذا السلوك جليا في بداية وجود الإنسان على هذه الأرض مع ابني آدم، لتتكرّر الحالة مرّة أخرى مع ما ظهر في قصص القرآن الكريم لكن هذه المرّة مع أخوة سيدنا يوسف عليه السلام ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[1] وقد وصل بهم حسدهم إلى تخيّل نيلهم لمرتبة الصّلاح بمجرّد إزالتهم لمن كانوا يظنّون بأنّه السبب في عدم وصولهم إلى تلك المرتبة، وهذا لأنّهم كانوا يعتقدون بأنّ الصّلاح هو بحسب تقديرات الملاحظ لك، وليس بحسب أفعال الإنسان. فهم يظنّون بأنّ صلاح يوسف ليس سمة فيه، بل لأنّ والده يرى فيه ذلك ومن ثمّة فهو يسلبهم ذلك التقدير وتلك المرتبة، ذلك ما دفعهم إلى التفكير في التخلّص منه. لكن الشيء الملاحظ على طريقة كلامهم هو اعتمادهم على أسلوب التوكيد في قولهم "ليوسف" توكيد على شدّة حبّ الأب ليوسف وأخيه، وإحساسهم بأفضليتهما عليهم واضح في صياغة كلامهم بصيغة

---

* يرى العلماء بأنّ الحاسد لا يضر إلاّ إذا حسده ظهر حسده بفعل أو قول وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشرّ بالمحسود فيتبع مساوئه ويطلب عثراته. ينظر الحسد محمد متولي الشعراوي مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة ص12.

[1] يوسف8. 9.

التفضيل في لفظ الحب (لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا). ليؤكدوا بعد ذلك على خطأ أبيهم بحسبهم في نظرة حبّه هذه واتهامه بالضلال (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ). ليظهر فيما بعد تفكيرهم وقرارهم العدواني القاتل، لكن الملاحظ على هذا التركيب اللغوي من خلال قرارهم هو ابتدائه بأسلوب الأمر "اقتلوا"، "اطرحوه" وهو ما يفتح باب السؤال عن المفكّر الآمر من يكون، وكأنّ الخطاب قد بني في دائرة حوار وتشاور وهنالك من وصل إلى حلّ وأمر به. وقد ذهبت أغلب التفاسير كما هو الحال مثلا في تفسير البيضاوي أو تفسير الزمخشري[1] إلى أنّ الأمر قد صدر عن أخ لهم اسمه شمعون والباقون كانوا راضين بالأمر. والظاهر من كلامهم كما قال الألوسي في تفسيره أنّ القائل خيّرهم بين "أمرين القتل أو الطرح بالرمي والإبعاد".[2] فجُعلوا في هذا النمط من الخطاب بالأمر كما قال أبو السعود في تفسيره وكأنهم "القائلون وأدرجوا تحت القول المسند إلى الجميع أو قاله كل واحد منهم مخاطبا للبقية وهو أدل على مسارعتهم إلى ذلك القول".[3] وقد جاءت الأرض في التركيب نكرة وإخلاؤها من الوصف للإبهام أي أرضا منكورة مجهولة بعيدة من العمران ولذلك نصبت نصب الظروف المبهمة.

---

[1] تفسير البيضاوي تحقيق عبد القادر عرفات العشّا حسّونة دار الفكر بيروت 1416هـ 1996م ج3 ص275. الكشّاف ج3 ص258.

[2] روح المعاني ج12 ص191.

[3] تفسير أبي السعود ج4 ص256.

المخـــاوف الاجتماعية:

التفكير في التخلّص من يوسف عليه السلام أظهر انفعالا يمكن تصنيفه في باب المخاوف الاجتماعية التي سيتم التفصيل في مظهر من مظاهرها في قصّة سيّدنا موسى عليه السلام وهذا النوع من المخاوف الاجتماعية ظهر في قول الأب ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾[1] فأسلوب الإخبار بالتوكيد واضح في كلامه فهو يؤكّد على أمرين حزنه الناتج عن ذهابه معهم وخوفه، ذلك الخوف كان ظاهريا من الحيوانات المتوحّشة والمفترسة التي تصوّرها في الذئب، لكن بالتعمّق أكثر في الآية نجد أن أصل انفعاله المتمثّل في الخوف يرجع إلى لا مبالاة أخوته وغفلتهم الظاهرة والتي بدت في قوله "غافلون". والحزن كما قال صاحب روح المعاني هو "ألم القلب لفوت المحبوب والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ولذلك أسند الأول إلى الذهاب به المفوّت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف عليه السلام والثاني إلى ما يتوقع نزوله من أكل الذئب".[2]

الدافع الغريزي:

يظهر دافع غريزي آخر مثل ذلك الذي ظهر في قصّة سيّدنا آدم له تأثير في سلوك الإنسان وقد يؤدّي به إلى العدوانية خاصّة إذا كان في غير وضعه الحقيقي،

---

[1] يوسف الآية13.

[2] روح المعاني ج12 ص196.

هذا الدّافع هو الدافع الجنسي[1] أو الرغبة الجنسية بغير زواج، وكما هو معروف بالدّراسة السلوكية فالرغبة التي تقابل بالرفض أو بمعنى آخر الرغبة التي لا تشبع وتقابل بالحرمان، يتحوّل صاحبها إلى حالة إحباط مما يدفعه إلى الفعل العدواني.[2] وذلك ما ظهر بسلوك امرأة العزيز مع سيّدنا يوسف عليه السّلام عندما ترفّع عن مطلبها في غير ما يرتضيه الله ويقبله العرف الاجتماعي، فهذا فعل كما وصفه صاحب كتاب مواقف بعض الرسل لصاحبه محمد علي سلامة "يعتبر بمثابة الملحمة الحامية والحرب الساخنة فكل واحد منهما كان يجاهد قدر طاقته في الانتصار على صاحبه، فإنّها كانت تجاهد وتستميت في سبيل الحصول على شهوتها من سيّدنا يوسف بكل الوسائل والحيل، وكان يوسف عليه السلام يجاهد في سبيل إقناعها بفظاعة هذا الإثم وشناعته، وإبعادها عنه، والفرار منها، بكل وسيلة وكان آخر ما فعلته امرأة العزيز في سبيل ذلك، إعلانها في المؤتمر الذي عقدته لكبار النسوة اللاتي قطّعن أيدهن عند رؤيتهن ليوسف عليه السلام".[3] ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[4]

---

[1] ينظر فيما يخصّ هذا الدافع وكل ما يدور حوله من مفاهيم كتاب الدافع الجنسي ثيودور رايك ترجمة ثائر ديب دار الحوار سوريا الطبعة الأولى 1992. كما يمكن الإشارة كذلك إلى أن هنالك مدرسة كاملة تعزو سلوك الإنسان إلى دوافع جنسية وهي المدرسة التي يرأسها عالم النفس سيغموند فرويد كما هو موضّح مثلا ثلاثة مباحث في نظرية الجنس ترجمة جورج طرابيشي دار الطليعة بيروت ط1 1981. وفي كتابه الحب والحرب والحضارة والموت ترجمة د. عبد المنعم الحفني دار الرشاد القاهرة الطبعة الأولى 1412هـ 1992م. ينظر كذلك كتاب فكر فرويد إدغار بيش ترجمة جوزيف عبد الله المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر الطبعة الأولى 1986م ص56.

[2] ينظر السلوك الإنساني ص139 .وينظر كذلك .La psychologie moderne de A à Z p247.

[3] مواقف بعض الرسل في القرآن الكريم محمد علي سلامة جمعية الدعوة إلى الله مطبعة استرانر الحديثة ص30.

[4] يوسف الأية23.

ففعل المراودة منسوب إليها، والابتداء كان لها، كما أنّها لم تذكر باسمها بل بالاعتماد على الاسم الموصول "التي" للإشارة إليها والغرض من ذلك كما قال صاحب كتاب الإيضاح في علوم البلاغة "هو زيادة تقرير فعل المراودة الصادر عنها وكونه في بيتها".[1] كما أنّها هيئت لفعل المراودة بغلقها للأبواب كي لا يكتشف أمرها. وقد تمّ بناء فعل الغلق على صيغة "فعّل" أي بتشديد العين أو بتكريرها، وكما هو معروف في اللغة العربية فتكرير العين في الكلمة يدل على تكرير الفعل ومضاعفته كالقول كسّر وقطّع[2] وفي ذلك دلالة على مبالغتها في غلق أبواب منزلها لتطمئنّ عند ارتكابها لفعلتها. وقد تمثّل فعلها العدواني في بداية الأمر في تمزيق القميص ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾[3] والمعنى كما قال الزمخشري[4] تسابقا إلى الباب على حذف الجارّ وإيصال الفعل. ليتحوّل الفعل العدواني بزيادة الرفض والحرمان إلى محاولة سجنه وذلك ما تمثّل في قولها ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾.[5] فهذا توكيد وتحقيق واضح لفعل المراودة وذلك واضح من بداية التركيب في استعمال "لقد" التي تفيد التحقيق بدخولها على الفعل الماضي[6]، فهي بذلك تقرّ بفعلتها وتؤكّد عليها وتقرّ على رفضه لها بكلمة "استعصم" والاعتصام في اللغة "الاستمساك بالشيء وأصله من العصمة،

---

[1] ينظر الإيضاح في علوم البلاغة جلال الدين بن عمر القزويني دار إحياء العلوم بيروت الطبعة الرابعة 1998 ص41.

[2] ينظر بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص38.

[3] يوسف25.

[4] ينظر الكشّاف ج3 ص271.

[5] يوسف30.

[6] ينظر رصف المباني ص391.

والعصمة المنع في كلام العرب، والعاصم المانع، واعتصم فلان بالشيء إذا تمسك بالشيء في منع نفسه من الوقوع في آفة".[1] وبذلك فهو يصرّ على حرمانها من مطالبها غير المشروعة، وكلّما زاد الحرمان زاد الإصرار على تنفيذ مبتغاها، وذلك ما جاء واضحا في كلامها المبني على الشرطية والوعيد (وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ) لتؤكّد على الانتقام وذلك في قولها (لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ) وهو توكيد في كلمة "السجن" وبالنون الخفيفة في "ليكون" كما يحتمل التركيب حذف فعل القسم أي "والله ليسجنن وليكون"[2] والمراد من هذا التركيب كما قال الرازي "أن يوسف عليه السلام إن لم يوافقها على مرادها يوقع في السجن وفي الصغار، ومعلوم أن التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف عليه السلام".[3]

ودائما ما يكون الحل لمواجهة السلوك العدواني، الابتعاد عن البيئة التي كانت سببا في ظهوره، وغالبا بإتباع السبيل الذي اختاره العدواني فمثلا كان في قصص سابقة الخيار هو الطرد بالإخراج وهو ما يكون سببا للنجاة وقد اتبع الأنبياء الخروج كما هو الحال مع لوط عليه السلام. وفي هذه الحالة فالمعتدية اختارت له السجن، وكان بذلك السجن المكان الأكثر أمنا بالنسبة ليوسف عليه السلام حيث يمارس فيه جميع معتقداته بحريّة، فاختاره ليكون ملاذا له من كلّ المخاطر ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي

[1] مفردات في غريب القرآن مادة "عصم"ج2 ص336.
[2] ينظر التوكيد بالنون الخفيفة البرهان في علوم القرآن ج2 ص420. ج3 ص44.
[3] تفسير الرازي مفاتيح الغيب ج18 ص451.

كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .[1] فقد اختار السجن وأحبّه بلفظ التفضيل "أحب" على أن ينصاع لدعوتهم وفي ذلك قال الزمخشري " وقال ﴿يَدْعُونَنِي﴾ على إسناد الدعوة إليهنّ جميعاً، لأنهنّ تنصحن له وزينّ له مطاوعتها، وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال: ربِّ نزولُ السجن أحبّ إلي من ركوب المعصية. فإن قلت: نزول السجن مشقة على النفس شديدة، وما دعونه إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة؟ قلت: كانت أحبّ إليه وآثر عنده نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية، وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروهها ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ فزع منه إلى ألطاف الله وعصمته، كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر، لا أن يطلب منه الإجبار على التعفف والإلجاء إليه ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمل إليهنّ. والصبوة: الميل إلى الهوى. ومنها: الصبا؛ لأنّ النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها وقرئ: «أصب إليهنّ» من الصّبابة ﴿مِنَ الْجَٰهِلِينَ﴾ من الذين لا يعملون بما يعلمون. لأنّ من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء. أو من السفهاء، لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح. وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدّم الدعاء، لأنّ قوله ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي﴾ فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف ﴿السَّمِيعُ﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم".[2]

---

[1] يوسف33.

[2] الكشاف ج3 ص282.

ودائما كلمة السلم والأمان هي الغالبة في النهاية، وهي لسان حال كلّ من صلح أمره، حيث أنهى بها يوسف عليه السلام خطابه مع إخوته ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ .[1]

فهذه تقابل واضح لفعل الدخول في هذا التركيب، حيث استعمل في الماضي "دخلوا" ثمّ في الأمر "ادخلوا" فبذلك يصبح لدينا دخولان، دخول على يوسف ودخول على مصر. ومعنى ذلك بحسب ما حكاه الزمخشري "أنّه خرج لاستقبالهم أوّلاً قبل دخولهم لمصر، ليدعوهم بعد ذلك لدخول مصر. فكأنه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب أو بيت، فدخلوا عليه وضمّ إليه أبويه، ولما دخل مصر وجلس في مجلسه مستوياً على سريره واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرفعهما على السرير. ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال، فأمر أن يرفع إليه أبواه، فدخلا عليه القبة. فآواهما إليه بالضم والاعتناق وقرّبهما منه، وقال بعد ذلك: ادخلوا مصر. كما أنّ المشيئة تعلّقت بالدخول مكيفاً بالأمن، لأن القصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكأنه قيل لهم: اسلموا وأمنوا في دخولكم إن شاء الله. ونظيره قولك للغازي: ارجع سالماً غانماً إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقاً، ولكن مقيداً بالسلامة والغنيمة، مكيفاً بهما. والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، ثم حذف الجزاء لدلالة الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال".[2]

---

[1] يوسف الآية99.

[2] ينظر الكشّاف ج3 ص325.

2. موسى عليه السلام:

الشيء الملاحظ على حياة سيّدنا موسى عليه السلام، هو تفصيل القرآن الكريم لطريقة نموّه وتشكّل شخصيته وتطوّرها، منذ ولادته ونموّه إلى بلوغه مرحلة الرسالة والنبوّة، فهو يجمع بين النبوّة والرسالة والإخلاص، وذلك مؤكّد في قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ .[1] وقد جاء في القرآن ذكر لمرحلة الطفولة الأولى لسيّدنا موسى عليه السلام، وهي مرحلة هامة وتتدخّل مباشرة في هيكلة سلوك الإنسان، ونلاحظ تركيز اللّفظ القرآني على مفهوم الرّضاعة في هذه المرحلة ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .[2] وفي ذلك إشارة إلى حاجة الطفل لأمّه في بداية حياته، وأوّل احتياجاته إشباع رغبته في الطّعام والتي تكون في المراحل العمرية الأولى عن طريق الرضاعة، بالإضافة إلى الحماية من كلّ مكروه. ومن ناحية التركيب فهذا جمع واضح كما قال الألوسي "بين أمرين ونهيين وبشارتين".[3] فالأمر كان بالمصدرية "أن ارضعيه" وفي "فألقيه". والنهيين "لا تخافي ولا تحزني" والبشارتين في "إنّ رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين". فالتركيز واضح على فعل الرضاعة أوّلا، وجاء ذلك التركيز بأسلوب الأمر الذي أدّته "أن" المخفّفة المصدرية والتي جاء معها فعل الأمر "ارضعيه" وفي ذلك تأكيد

---

[1] مريم الآية51.

[2] القصص الآية7.

[3] روح المعاني ج1 ص32.

على أهمية الرضاعة. كما أنّ لفظ الخوف قد تكرّر في التركيب مرّتين الأوّل بالوجوب والثاني بالنفي، وعن ذلك قال الزمخشري بأنّ الخوف الأوّل كان خوفا "عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه. وأما الثاني فكان خوفا الخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان، وغير ذلك من المخاوف. أمّا عن نفي الخوف والحزن والفرق بينهما. فالخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع. والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به، فنهيت عنهما جميعاً، وأومنت بالوحي إليها، ووعدت ما يسليها ويطامن قلبها ويملأها غبطة وسروراً: وهو ردّه إليها وجعله من المرسلين".[1]

الملاحظة الأخرى هي كون موسى عليه السّلام لا يمكنه الرضاعة من أي وسط آخر ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ .[2] وفي ذلك حكمة من الله سبحانه وتعالى، ليُدفع من خلالها من يلتقطه إلى البحث عن من يرضعه وهو بذلك لن يُقبل إلاّ على رضاعة أمّه فيرجع إليها، وذلك من أحكام الله عزّ وجلّ في تكوين شخصية ذلك الرسول المخلص، وقد أشار إلى ذلك القرآن في موضعين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ * أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ .[3] فقد مرّ موسى

[1] الكشّاف ج4 ص483.

[2] القصص12.

[3] طه 37. 38. 39.

عليه السلام بفترة إعداد ليكون بعدها نبيا، وذلك ما جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) والمعنى بحسب ما جاء في تفسير القرطبي"أي يُربَّى ويُغذى على مرأى من الله، وذلك معروف في اللغة حيث يقال: صنعت الفرس وأصنعته إذا أحسنتَ القيام عليه".[1] وقد أسهب الزركشي في تحليل ورود هذا التركيب بهذا الشكل وصلة ألفظه حيث رأى بأنّ هذا التركيب ورد بالخصوص "في إظهار أمر كان خفيا وإبداء ما كان مكنونا فإن الأطفال إذ ذاك كانوا يغذون ويصنعون شرا فلما أراد أن يصنع موسى ويغذى ويربى على جلي أمن وظهور أمر لا تحت خوف واستسرار دخلت على في اللفظ تنبيها على المعنى لأنها تعطي معنى الاستعلاء، والاستعلاء ظهور وإبداء فكأنه سبحانه يقول ولتصنع على أمن لا تحت خوف وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلأ".[2] ليؤكّد تلك الرعاية المخصوصة بقوله: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ .[3] والاصطناع هو من "الصنع وهو إجادة الفعل".[4] وقد بني على الصيغة الصرفية "افتعل" والغرض من هذا البناء بحسب ما قرأه الرازي هو اتخاذ الصنعة، وهي "افتعال من الصنع. يقال: اصطنع فلان فلاناً أي اتخذه صنيعه وأحسن إليه حتى يضاف إليه فيقال: هذا صنيع فلان. أمّا قوله لنفسي فمعناه ليصرفه في أوامره لئلا يشتغل بغير ما أمره به وهو إقامة حجته وتبليغ رسالته، وأن يكون في حركاته وسكناته لله وحده".[5] وكان مآله بعد

---

[1] تفسير القرطبي ج11 ص196.

[2] البرهان في علوم القرآن ج2 ص87.

[3] طه41.

[4] مفردات في غريب القرآن مادة "صنع" ج1 ص286.

[5] تفسير الرازي مفاتيح الغيب ج22 ص53.

مسيرته في اليم إلى آل فرعون ليكون عدوّا لهم ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ .[1] وقد سخّر الله سبحانه وتعالى له امرأة فرعون حيث قدّمت وضمنت له الحماية ﴿ وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .[2] فهذا مثال واضح للقلب اللّيّن الذي تجسّد في امرأة فرعون التي أرادت أن يكون الرضيع قرّة عين لها ولفرعون. وفي معانى قرّة العين "ما يرجع إلى القلب فأقرّ الله عينك معناه صادف فؤادك ما يحبه وأعطاك الله ما تَسْكُنُ به عَيْنَك فلا تطْمَحُ إلى غَيرِهِ. ومنها ما يرجع إلى العين أي بردت دمعتها وهي التي تكون مع الضحك والسرور ودمعة الحزن تكون حارة. ومنها ما يرجع إلى الحالة النفسية عند النوم مع ذهاب الحزن والوجع، وحضور الرضا".[3] وقيل إنّها قالت لا تقتلوه بالنّهي عن القتل له "لأنّ الله أتى به من أرض بعيدة وليس من بني إسرائيل، ثمّ علّلت ما قالته بالترجّي منها لحصول النفع منه لهم أو التبني له فقالت عسى أن ينفعنا فنصيب منه خيرا أو نتخذه ولدا وكانت لا تلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها وجملة وهم لا يشعرون في محل نصب على الحال أي وهم لا يشعرون أنهم على خطأ في التقاطه ولا يشعرون أن هلاكهم على يده فتكون حالا من آل فرعون".[4]

---

[1] القصص الآية3.

[2] القصص9.

[3] ينظر تفسير الرازي ج24 ص488. وينظر كذلك مفردات في غريب القرآن مادة "قر" ج2 ص397.

[4] ينظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير محمد بن علي بن محمد الشوكاني دار الفكر بيروت ج4 ص160.

التفـــــرقة:

الحالة الاجتماعية العامة التي كانت سائدة في المجتمع الفرعوني هي العدوان بالتفرقة، وهو أسلوب من الأساليب التي أعتمد عليها فرعون ليفرّق بين النّاس ومن ثمّة إبعادهم عن مفهوم الاتحاد، وهذا بجعلهم شيعا وبعصبيات مختلفة، وقد اتسع هذا التشيّع حتّى أصبح منطلقا للدّفاع عن الحرّيات، ودافعا لطلب العون والغلبة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ .[1] فالتوكيد على تعالي فرعون على أهل الأرض واضح من مدخل الخطاب. كما أنّ تأثيره عليهم وسيطرته واضحان. وأسلوب التفرقة واضح من خلال مفردات الخطاب، فكلمة "جعل" مثلا هي من أفعال التحويل وله دلالة على الصنع والتصيير.[2] وهي تشير في هذا السياق إلى معنى التفرقة؛ فجعل أهلها شيعا معناه فرّقهم وقسّمهم شيعا، ومن ثمّة ففرعون هو الذي خلق التشيّع فيهم. ليصوّر الخطاب بعد ذلك طريقة علوه باستضعافهم والاعتداء عليهم بالذبح والاستحياء. فيؤكّد في آخر الآية على فساد طبعه وسلوكه. وقد أثّر ذلك على العلاقات العامة بين الناس وأدى إلى ظهور حياة فوضوية مليئة بالصراعات والمشاحنات، وهو ما دفع كمثال على ذلك موسى عليه السّلام إلى الدخول في صراعات اجتماعية تقوم على العصبية كان منتهاها في حالة من حالاتها التي صوّرها القرآن الكريم القتل حيث ﴿دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ

---

[1] القصص الآية4.

[2] ينظر معاني النحو الدكتور فاضل صالح السامرّائي شركة العاتك القاهرة الطبعة الثانية 1423هـ 2003م ج2 ص26.

أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ .[1] والشيء الذي يهمّنا هنا هو وجود رجلين يقتتلان في المقام الأول للتصوير مباشرة مع الدخول إلى المدينة، فهي الصورة الأولى التي قابلته. ثمّ اعتماد التصوير على اسم الإشارة "هذا" في الإشارة إلى طرفي القتال، والغرض من ذلك أنّه قيل على جهة الحكاية للحضرة والمعنى أنه إذا نظر إليهما الناظر قال هذا من شيعته وهذا من عدوه.[2] وقد أفرد الشيخ عالم سبيط النيلي حيّزا لشرح هذه الآية في كتابة المدخل إلى نظام المجموعات[3] فهو برأيه من المواقع التي جاء فيها ذكر ظلم النفس مع بعض المرسلين، كما هو الحال مع موسى عليه السلام في هذا الموقع حيث قال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[4] "وقد قلب الاعتباط موضوع الواقعة، فالمقتول ليس عدوه ولو كان عدوه لما ظلم نفسه. إنما هو عدوه ظاهريًا والذي استعدى عليه منافق من بني إسرائيل من شيعته ظاهريًا ولكنه العدو الحقيقي. ولّما كانت وكزة موسى قد قضت عليه وعلم من هو العدو منهما ندم، إذ نوى فعل الخير فظهر في الواقع خلافه فقال: (رب إني ظلمت نفسي) لأنّ من كان من شيعته فهو من نفسه. وموضوع عصمة الأنبياء واصطفاءهم إنما

---

[1] القصص15.

[2] ينظر زاد المسير في علم التفسير عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثالثة 1404هـ ج6 ص209. وينظر تفسير القرطبي ج13 ص260.

[3] ينظر كتاب المدخل إلى نظام المجموعات عالم سبيط النيلي ص92. 93

[4] القصص16.

هو اصطفاء لقلوبهم الطاهرة، فهو موضوع متعلق بالذات لا بالفعل الخارجي وحده ومع ذلك فإنّ هذا ليس من عمل موسى مطلقاً، إنما كان عمله الأصلي هو أن يقتل الكافر أما هذا العمل فقد كان من غيره. ألا تراه قال وهو الصادق بقوله إذ صدّقه القرآن: قال (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين). وهو الدور الذي لعبه اسم الإشارة "هذا" وكيف يؤشر قائلا (هذا من شيعته) و(هذا من عدوه) وليس هذا من عدوه وهذا من شيعته، فلا تتوهم فانظر هذا وانظر هذا. ثم بعد ذلك تتطابق كل النتائج مع النظام. ذلك لأنك لو صنفت هذه الواقعة فلن يكون فاعلها الظالم لنفسه في آية الاصطفاء، بل ولا المقتصد، إنما هي في أقل تقديرٍ من عمل (السابق بالخيرات)، إذ لولا هذا الإسراع في فعل الخير لما وكزه موسى فأرداه قتيلا".

وانطلاقاً مما جاء في قول النيلي فقد دخل موسى المدينة والصورة أمامه هي رجلان يقتتلان مع جهله بهويتهما وانتمائهما فالخطاب القرآني يشير إليهما إشارة إلقائية مجردة فانه يحتفظ بالعلم بهويتهما لنفسه "هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ " وكما هو معروف فاسم الإشارة "هذا" يستعمل في الكلام عند عدم معرفة الشخص فيشار إليه لأنّه الطريق الوحيد للتعريف[1] فالآية واضحة للمتكلم لا لموسى، أما الصورة لموسى فهي رجلان يقتتلان لا يعرف أيهما العدو وأيهما الذي من شيعته فكانت الخطوة العملية اللاحقة هي الاستغاثة التي من خلالها حدّد أيهما من شيعته على الذي من عدوّه _افتراضيا من خلال الصورة

[1] ينظر شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان ص17.

الأولى التي هي أمامه_ فهو يرى رجلا يستغيث وفي استغاثته إيحاء بكونه من شيعته ويتواصل تعريف المتقاتلين بالصلة (الذي من شيعته والذي من عدوّه) والغرض من ذلك أنّه لا يفرّق بينها إلاّ بالاستغاثة وهي طلب النصرة[1] للذي يكون في حالة هزيمة ويعيش حالة تسلط وحاكمية من قبل الآخرين وقلة حيلة، فالمستغيث بذلك يكون مغلوبا على أمره وفي حالة هزيمة حتمية. وهو ما دفع موسى عليه السلام للإسراع في نجدته والقضاء على عدو المستغيث لأنّه يمكن قراءة الضمير في (عدوه) على المستغيث. فكانت ردّة الفعل في نصرة المستغيث سريعة والدليل على ذلك حرف "الفاء"[2] الذي يسبق "وكزه" وهي تفيد التعقيب دون فاصل زمني وهذا دليل على السرعة إي كانت عملية الوكز بلا فاصل زمني يسمح لموسى عليه السلام بمعرفة الحقيقة. لكن بعد معرفتها مباشرة ينسب موسى الفعل العام الذي وقع من قتل واستغاثة كاذبة إلى الشيطان. فنيته كانت للعمل على السبق في فعل الخير وان كان لا يريد قتله بل أراد إبعاده. ومن ثمّة يمكن أن يعود الضمير في "انه من عمل الشيطان" إلى فعل الاستغاثة وليس إلى عمل موسى عليه السلام.

فقدان المكانة الاجتماعية:

ومن الظروف المتدخّلة في توجيه سلوك سيّدنا موسى عليه السلام، فقدانه للمكانة الاجتماعية، فمن وجهة النظر السّلوكية، فإنّ كلّ إنسان صدر عنه سلوك أو تصرّفات لا يقبلها المجتمع أو بالأحرى منافية للعرف الاجتماعي،

[1] ينظر مفردات في غريب القرآن مادة "غ و ث" ج2 ص367.

[2] ينظر رصف المباني ص356.

سيقابل مباشرة بعدم قبوله اجتماعيا أو فقدانه للمركز الاجتماعي،[1] ويرفض بذلك وجوده في تلك الدائرة الاجتماعية الموجود فيها. وهي الحال التي وصل إليها موسى عليه السلام حيث ظلم نفسه بدخوله في صراعات كانت تمليها عليه البيئة الفرعونية الصاخبة التي أدّت به إلى ارتكاب فعل القتل الذي أوصله إلى حالة نفسية سيئة أخرجه الله تعالى منها ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ .[2]

فالله سبحانه وتعالى قدّ نجّاه من الحالة النفسية السيّئة التي كان فيها، فالنجاة كانت من الغم، فالنجاء لغة كما جاء في لسان العرب هو الخلاص من الشيء[3] وكما قال الراغب هو الانفصال من الشيء[4] وسواء كان المعنى الخلاص أو الانفصال، فالذي يهمنا أنّ هذه الكلمة من الكلمات التي استعملت كثيرا في القرآن الكريم في باب الخلاص وكان بناؤها على الغالب مزاوجا بين صيغتين "أنجى" و"نجّى" وهو في هذه الحالة على الصيغة الثانية "نجّيناك" وهذه الصيغة كثيرا ما تستعمل للتلبّث والتمهّل في التنحية بعكس "أنجى" التي تستعمل للإسراع في التخلّص من الشدّة والكرب.[5] وهذا ما يدلّ على أنّ الوقت الذي استغرقه موسى عليه السلام في التخلّص من غمّه كان طويلا، ومن ثمّة فهذا كما قال صاحب كتاب بصائر ذوي التمييز "موقع من مواقع تطييب القلوب وتقريها بزوال الغم الذي هو من باب الكرب والحزن عنه".[6] وذلك بعد أن ندم على

---

[1] السلوك الإنساني ص144.

[2] طه الآية40.

[3] لسان العرب مادة "نجا" ج15 ص303.

[4] مفردات في غريب القرآن مادة "نجو" ج2 ص483.

[5] ينظر بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص66.

[6] ينظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز مجد الذين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي تحقيق محمد علي النجّار المكتبة العلمية بيروت ج4 ص149.

فعلته وإقراره بظلمه لنفسه وطلبه للمغفرة، وعهده بعدم تكرار فعله﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ*قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ .[1] فعل جعله فاقدا لأمنه الاجتماعي، ومنفعلا إلى درجة الخوف قبل خروجه من المدينة﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ .[2] ولازمه الخوف حتّى مع خروجه منها ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنْ النَّاصِحِينَ* فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .[3] وأردت الوقوف عند الغرض من إشارة القرآن الكريم بالتركيب اللّغوي (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) فأقصى المدينة تشير مبدئيا إلى أنّ الأمر قد وصل إلى أبعد نقطة في حدودها لأنّ القصي معناه البعد.[4] وفي ذلك إشارة إلى أنّ الخبر قد شاع وبلغ أبعد الحدود. ومن ثمّة فقد أصبح أغلب النّاس يرفضون وجود موسى عليه السّلام في قريتهم ويأتمرون عليه، وهذا ما يؤكّد بأنّه أصبح غير مرغوب فيه ومرفوضا من الغالبية، وأنّ درجة رفضه ورفض وجوده وصلت إلى مستوى المطالبة بقتله والإخبار كان مبنيا على التوكيد على رفضه والتخطيط لقتله (إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ). وأردت مقارنة هذا الاستعمال بالقول "وسط المدينة" أي أنّ مفعول التآمر لم يتعدّى الأشخاص

---

[1] القصص الآيتان16. 17.

[2] القصص18.

[3] القصص 20. 21.

[4] ينظر مفردات في غريب القرآن مادة "قصى"ج2 ص405.

الموجودين في الوسط. فكانت ردّة فعل موسى عليه السلام هي الخروج من المدينة بسرعة ودون انتظار، مع حالة من الخوف والترقّب (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ). وكما هو معروف كذلك من ناحية التصنيف السلوكي فالخوف هو انفعال ناتج عن مواقف تتضمّن صراعات وحالات توتّر، والمغالاة فيه قد تؤثّر على سير حياة الفرد الطبيعية.[1] وهي الحال التي كان عليها المجتمع الذي كان فيه موسى عليه السلام، حيث كان مجتمعا مليئا بالصراعات والتوترات. ومن الملاحظ أنّ الانفعال المتمثّل في الخوف قد أصبح ظاهرا في سلوك موسى عليه السلام وملازما له، بحكم إشارة القرآن الكريم إليه في حالات عدّة منها خوفه من ردّة فعل قومه نحوه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي *وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي﴾.[2] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي *وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ *وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي﴾.[3] فأسلوب التوكيد على الخوف واضح في كلامه من خلال الآيات السابقة باستعماله لحروف التوكيد في كلامه، وتركيزه على مفهوم الخوف من القتل أو الخوف من تكذيبه. وخوفه لم يقتصر على قومه بل صوّر القرآن الكريم خوفه كذلك من الجمادات كالعصي مثلا في قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي

[1] ينظر السلوك الإنساني ص136.

[2] القصص الآيتان33. 34.

[3] الشعراء الآيات12. 13. 14.

لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .[1] ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ .[2] فتعبيره الواضح عن خوفه، تطلّب العمل على إزالته منه، وذلك ما تجلّى بنفي الخوف عنه في الآيتين السابقتين بالأمر "لا تخف" و ببث الطمأنينة في قلبه كونه من المرسلين "لا يخاف".

استرجاع المكانة:

خروج موسى عليه السلام وابتعاده عن قومه، كان الغرض منه البحث عن مجال جديد للحياة يختلف عن الذي كان يعيشه من قبل وبعيدا عن الحياة الصاخبة المتوتّرة، وهي ردّة فعل طبيعة فالخوف كانفعال غالبا ما تكون ردّة الفعل عليه التجنّب واتقاء الخطر بالابتعاد.[3] وقد استقرّ في رحلة بحثه عن بيئة جديدة بعيدة عن الصخب والفوضى على أرض مدين كأرض يجد فيها راحته النفسية والجسدية ويسترجع فيها تركيزه على الأعمال الخيّرة ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .[4] فرجاؤه كان كبيرا في حصول الهداية له وتغيّر أحواله، وذلك واضح من قوله "عسى" فهي فعل لرجاء حصول الفعل في المستقبل، سواء ترجّ حصوله عن قريب أو بعد مدّة مديدة، ومعناه المقاربة على سبيل الترجّي، والطمع والإشفاق.[5] وبذلك فهو طامع في حصول الهداية له، ومشفق أن لا تحصل لا تكون. وغالبا ما تقترن "عسى" بـ"أن" الدالة

---

[1] النمل الآية10.

[2] طه الآيتان67. 68.

[3] ينظر السلوك الإنساني ص149.

[4] القصص الآية22.

[5] ينظر معاني النحو ج1 ص245.

على الاستقبال، وبذلك فموسى عليه السلام يطمع أن تحدث له الهداية انطلاقا من بداية وجوده في البيئة الجديدة. فهي صورة لذلك الإنسان الباحث عن الهداية والموقن بأنّ مصدرها وأبوابها بيد الله سبحانه وتعالى، ولذلك جاء تركيزه في كلامه على تقديم لفظ "الله" بعد "عسى".

والشيء الجدير بالإشارة إليه في بداية وجود موسى عليه السلام في هذا الفضاء الجديد، هو التقاؤه بأناس جدد تختلف طباعهم عن طباع قومه بكثير، والتقاؤه بشخصية كان لها أثر كبير في توجيه سلوكه، حيث أنّه التقى شيخا وأوّل شيء قام به معه، أنّه ارتاح له ومن ثمّة قص عليه قصّته، فعمل الشيخ الصالح على إزالة أو مسح أوّلا المخاوف الاجتماعية* التي كانت قد التصقت به أثناء فترة وجوده في البيئة الفرعونية، وهذا يدخل من الناحية السلوكية في مرحلة إعادة توجيه السّلوك وذلك ظاهر في قوله تعالى: ﴿ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .[1] فمعنى أنّه قصّ عليه القصص، دليل على أنّه أحسّ بالراحة والطمأنينة. فدعّم طمأنينته بدعوته إلى إبعاد الخوف عنه (لا تخف)، وتدعيم مفهوم النجاة (نجوت) الذي كان قد ذكر من قبل (نجّيناه). ثمّ عمد إلى التركيز على محورين رئيسين في إعادة توجيه قوّة موسى عليه السلام، وهما النّكاح والعمل مع تحديد المدّة الزمنية للعمل بين الإجبار والاختيار ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي

* ينظر العلاج السلوكي للطفل ص25.

[1] القصص الآية25.

إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .[1]ويلاحظ التركيز على مصطلح "النكاح" وبأسلوب توكيدي (إنّي أريد أن أنكحك) وقد عبّر بلفظ الإرادة "أريد" وهي كما قال الراغب "مَنْقُولَةٌ مِنْ رَادَ يَرُودُ إِذَا سَعَى فِي طَلَبِ شيءٍ وَالْإِرَادَةُ فِي الْأَصْلِ قُوَّةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ شَهْوَةٍ وَحَاجَةٍ وَأَمَلٍ وَجُعِلَ اسماً لِنُزُوعِ النَّفْسِ إِلَى الشيءِ مَعَ الحُكْمِ فيه بأنه يَنْبَغِي أَنْ يُفْعَلَ أو لا يُفْعَلَ".[2] فهو بذلك تعبير عن رغبة الأب في إقامة علاقة زواج بتزويج إحدى ابنتيه لموسى عليه السلام. واستعمال لفظ "النكاح" في هذا المقام له دلالة معيّنة فالنكاح كما قال الزمخشري يشير إلى "الوطء، وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له، من حيث أنه طريق إليه. ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلاّ في معنى العقد؛ لأنه في معنى الوطء من باب التصريح به. ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والتغشي والإتيان".[3] ومن ثمّة فهو تركيز واضح على مصدر إشباع الحاجات البيولوجية والجنسية وبطريقة سليمة بعقد زواج. فالنضج الجنسي يعتبر من ملامح تحقيق الوجود، حيث يتمّ من خلاله صرف الطاقة الحيوية للإنسان بشكل سليم. وركّز على مصطلح "الأجير" والأجرة كما قال الراغب هي كلّ "مَا يَعُودُ من ثَوَابِ العَمَلِ دُنْيَوِيّاً كَانَ أَوْ أُخْرَوِيّاً.. والأجْرَةُ في الثّوَابِ الدُّنْيَوِيِّ، وَجمعُ الأجْرِ أُجُورٌ.. والأُجْرَةُ يقالُ فيما كان عن عَقْدٍ وما يَجْرِي مَجْرَى العَقْدِ ولا يقالُ إلاّ في النّفْعِ دُونَ الضُّرِّ.. يقالُ أجَرَ زَيْدٌ عُمَراً يَأْجُرُهُ أَجْراً أعْطاهُ الشيءَ بأُجْرَةٍ".[4] وهذا دليل على سعيه إلى تحقيق

---

[1] القصص 27.

[2] مفردات في غريب القرآن مادة "رود"ج1 ص206.

[3] الكشّاف ج5 ص79. 80

[4] المرجع السابق مادة "أجر" ج1 ص40.

تلك الرغبة المتمثّلة في الإحساس بالاستقلال والتحرّر ذاتيا، بالحصول على مقدار من الحرية التي تتيح له العمل ورسم الخطط وتحقيق الأهداف وهذا ما وصل إليه علم السلوك الإنساني.[1] بغرض بناء الشخصية بناء اجتماعيا سليما، وفي ذلك إشارة إلى خلق التوازن بين قوتين تسيّران الإنسان وهما القوّتان الشهوانية والغضبية.[2] ذلك التوازن الذي رأى فيه بأنّه لا يمكن إقامته إلى بتحقيق عقدين عقد للنّكاح وعقد آخر للعمل.

أمّا بالنسبة للمدّة الزمنية المقترحة والتي تسيّر عقد الأجير فهي مقسّمة بين الإجبار والاختيار (عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ) فالهدف منها هو قياس مدى قابلية موسى عليه السلام للأنماط الجديدة من السلوك، ومدى تغيّر اهتماماته، حيث أصبح له هدف معين يركز على إنجازه وفي زمن محدد، وكما هو معروف كذلك في باب الدراسة السلوكية، فالهدف عامل من عوامل توازن الشخصية وتماسك الجماعة وصدق النوايا.[3] وانطلاقا من هذا التعديل في السلوك والذي قضى من خلاله موسى عليه السلام زمنا في أهل مدين، والذي اكتسب به صفات الشخصية المؤهّلة لتحمّل هموم الأمّة بإيجاد الحلول لمشكلاتها ومن ثمّة تحمّل الرسالة النبوية. جاءت مرحلة الرسالة ويعبّر عن حال الشخصية السويّة كلمة استوي في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ .[4] وفي تفسيره لمعنى الاستواء رأى

---

[1] ينظر السلوك الإنساني ص144.

[2] ينظر فيما يخص القوى المتدخّلة في تسيير سلوك الإنسان كتاب تهذيب الأخلاق للجاحظ ص16.

[3] سلوك الإنسان ص219.

[4] القصص الآية14.

الزمخشري بأنّه "اعتدل وتمّ استحكامه، وبلغ المبلغ الذي لا يزاد عليه".[1] أو كما ردّه أبو السعود في تفسيره[2] إلى الاعتدال في القدّ أو البنية الجسدية، وفي العقل.

التنبؤ بالسلوك العدواني لفرعون:

تحدّث القصص القرآني عن سبب إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون، وكان ذلك الداعي هو الطغيان الذي وصل إليه سلوك فرعون، حيث أنّه لا وازع له في أفعاله فأرسل الله عزّ وجلّ موسى وأخاه هارون إليه لإيقافه عن أفعاله ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ .[3] ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ .[4]

اذْهَبْ	إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى
اذْهَبَا	

فأسلوب الأمر واضح بالذهاب إلى فرعون (اذْهَبْ، اذْهَبَا) وغرضه هو التوجيه أو تحديد الوجهة وهي (إِلَى فِرْعَوْنَ) وسبب اختيار هذه الوجهة بالذات هو طغيان فرعون، والأمر أي الطغيان مؤكّد عليه وواضح في قوله تعالى (إِنَّهُ طَغَى). ويأتي طغيانه وتجاوزه للحدود* في أقصى درجاته حيث أنّه ادّعى الربوبية ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ .[5] فهذا اعتداد بالنفس وكبرياء واضحان، وذلك من خلال خطابه

---

[1] الكشّاف ج4 ص487.

[2] ينظر تفسير أبي السعود ج7 ص2.

[3] طه الآية24

[4] طه43.

* الطغيان لغة معناه تجاوز الحد في العصيان ينظر مفردات في غريب القرآن ج2 ص30.

[5] النازعات الآية24.

وحديثه بالضمير "أنا"، وهو ضمير المتكلّم، وهذا نوع من أنواع الغرور كما قال ابن حزم.[1] وقد قدّم لنا أبو حامد الغزالي تحليلا جميلا نقله عن مشايخ الصوفية يخصّ حالة التكبّر تلك التي وصلت بصاحبها إلى حدّ ادعاء الربوبية، فهم يرون بأنّ "النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله {أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى} ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه، وما من أحد إلا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعاً من إظهاره فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء".[2] بل وحتّى نسب الألوهية لنفسه ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ ﴾ .[3] فنداؤه لقومه واضح (يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ) والمنادى هو المطلوب إقباله و"يا" هي حرف نداء غالبا ما يستعمل للمنادى البعيد[4] والمعني بالنداء هنا هم الملأ وهو يدخل في باب المنادى المعرّف بـ"ال" ولذلك جاء "با" مقترنة مع "أيها"[5] وكلمة "ملأ" تعني "جماعةٌ يَجْتَمِعُونَ عَلَى رَأْيٍ، فَيَمْلَئُونَ العُيُونَ رِوَاءً وَمَنْظَراً وَالنُّفُوسَ بَهَاءً وَجَلاَلاً".[6] وهذا

---

[1] ينظر الأحكام في أصول الأحكام ابن حزم الأندلسي الظاهري دار الكتب العلمية ج2 ص592.

[2] إحياء علوم الدين ج4 ص54.

[3] القصص الآية38.

[4] ينظر معاني النحو ج4 ص275.

[5] ينظر المرجع نفسه ص282.

[6] مفردات في غريب لفظ القرآن مادة "ملأ" ج2 ص473.

ما يدلّ على أنّ فرعون كان في حالة مخاطبة الناس في تجمّع كبيرا للناس، وكان محور خطابه الرئيس هو الردّ على موسى عليه السلام محاولا إثبات الألوهية لنفسه ونفيها للغير (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) فـ"ما" هنا نافية والفعل الذي نفته وجاء بعدها كان ماضيا "علمت" وهي في هذه الحالة نافية للماضي القريب والماضي البعيد من الحال معا[1] كما أنّ فعل العلم نسبه إلى نفسه (عَلِمْتُ)، وذلك يدلّ على أنّه هو الذي يحدّد الإله، والظاهر كما قال الألوسي "أنه أراد حقيقة ما يدل عليه كلامه وهو نفي علمه بإله غيره دون وجوده، فإنّ عدم العلم بالشيء لا يدل على عدمه، ولم يجزم بالعدم بأن يقول "ليس لكم إله غيري".[2] والدليل على نقصان ومحدودية علمه توكيده على دخوله في دائرة الظنون في تكذيبه لموسى عليه السلام (وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) فالظن هو من أفعال الرجحان وهو كما قال السامرائي "التردّد الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم".[3] بينما فسّره الراغب على أنّه " اسمٌ لِمَا يَحْصُلُ عَنْ أَمَارَةٍ وَمَتَى قَوِيَتْ أَدَّتْ إلى الْعِلْمِ، وَمَتَى ضَعُفَتْ جسداً لم يَتَجَاوَزْ حَدَّ التَّوَهُّمِ".[4] ومن ثمّة ففرعون متردّد متردّد في علمه ومتردّد كذلك في تكذيبه لموسى عليه السلام.

وفي هذا السياق دائما أردت الحديث عن توقّع السلوك، وهي حالة أشار إليها الدراسات السلوكية. ونلاحظ من خلال ذلك أنّ موسى وهارون عليهما السلام، أبديا انفعالهما المتمثّل في الخوف من السلطان أو الحاكم أو السلطة الممثّلة في

---

[1] المرجع السابق ص164.

[2] روح المعاني ج20 ص80.

[3] معاني النحو ج2 ص17.

[4] مفردات في غريب القرآن مادة "ظنّ" ج2 ص317.

فرعون، وكما هو مصنّف في باب البحث السّلوكي فالخوف من السلطة أو الحاكم، هو أحد المخاوف الاجتماعية التي ينفعل بها الإنسان.[1] فقد كان لموسى وهارون عليهما السّلام توقّع لسلوك فرعون، والذي سيكون عدوانيا، ولذلك كان خوفهما ظاهرا، والدافع إلى ذلك هو طغيانه السابق. فقد كان كما حكى ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء "جبارا عنيدا وشيطانا مريدا، له سلطان وجاه وجنود، وعساكر وسطوة، فخافاه من حيث البشرية، وخافا أن يسطو عليهما في بادئ الأَمر".[2] وقد عزّز مخاوفهما خطاب الله عزّ وجلّ إليهما من قبل عندما أمرهما بالذهاب إليه، حيث أشار فيه إلى الطغيان وهو ما دفعهما إلى القول ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى ﴾ .[3] فهذا توكيد على خوفها من تطبيق طغيانه عليهما. ليبعد الله عزّ وجلّ بعد ذلك تلك المخاوف عنهما بمفهوم التعزيز ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ .[4] فهو هنا ينهاهما عن الخوف فـ"لا" وهي حرف نهي يوضع لطلب الترك.[5] فالله سبحانه وتعالى يطلب منهما أو يأمرهما بترك الخوف الذي يلازمهما وإبعاده. ليؤكّد لهما حضوره معهما من باب تدعيمها بالسمع والرؤية. وقد قدّم السمع على الرؤية لأنّه "يقال بأنّ السمع أفضل وهو أهم في مجال الدعوة والتبليغ، لأنّ الأصمّ أبعد عن الفهم من الأعمى".[6] وهنالك سبب آخر في تقديم السمع على الرؤية في هذه الآية قدّمه

---

[1] العلاج السلوكي للطفل ص23..sciences et comportement humain p71

[2] قصص الأنبياء ابن كثير دار ابن زيدون بيروت ص290.

[3] طه الآية45.

[4] طه46.

[5] ينظر معاني النحو ج4 ص7.

[6] ينظر من أسرار البيان القرآني الدكتور فاضل صالح السامرائي دار الفكر الطبعة الأولى 2009م 1430هـ ص115.

قدّمه الدكتور السامرائي في كتابه التعبير القرآني[1] حيث يرى بأنّه يمكن أن يكون تقديم السمع على البصر لسبب آخر عدا الأفضلية، وهو أن مدى السمع أقل من مدى الرؤية فقدم ذا المدى الأقل متدرجاً من القصر إلى الطول في المدى. ففي هذه الآية قدّم السمع لأنه يوحي بالقرب إذ الذي يسمعك يكون في العادة قريباً منك بخلاف الذي يراك فإنه قد يكون بعيداً وإن كان الله لا يند عن سمعه شيء.

أضف إلى ذلك فالسياق العام للقصة يفرض نفسه فتوجههم إلى فرعون كان الهدف منه محاورته بالقول وذلك موضّح في قوله: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ .[2] ومن ثمّة فهنالك تقابل بين القول والسمع وبين الحركة والرؤية. والرُّؤْيَةُ بحسب ما شرحها الراغب هي من باب "الإدراك الذي يكون بالحاسة وبالوهم والتخيّل وبالتفكّر وبالعقل".[3] وهذا ما يحتمل بأنّ الآية تدلّ على أنّ الله عزّ وجلّ يسمع قولهم وحوارهم، وإذا تعدّى الأمر إلى الفعل فهو يرى وسيتدخّل في أي لحظة لإنقاذهما. وسوف يكون الحل المبدئي هو مخاطبة فرعون بلفظ المسالمة وبعبارات فيها ليونة، وذلك ما أمرهم به الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ .[4] وفي قوله: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ

[1] ينظر التعبير القرآني الدكتور فاضل صالح السامرّائي دار عمار عمان الأردن الطبعة الرابعة 1427هـ 2006م ص44.

[2] طه43. 44

[3] ينظر مفردات في غريب القرآن مادة "رأي" ج1 ص208.

[4] طه الآية44.

مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ .[1] وهذا دليل على مخاطبته بلفظ المسالمة في قولهما "السلام".

إلصاق التهم:

وقد ظهر جليا مطالبة فرعون وقومه موسى عليه السلام بتقديم دلائل على ما يقول في كونه رسول الله لتصديقه ﴿ قَالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .[2] لكن بعد أن قدّم لهم الدليل وتغلّب عليهم في الميدان الذي أظهروا فيه مهارة وقدرة وهو السحر، بدا لهم بأن هذه المهارات التي تحدّاهم بها أكبر بكثير ممّا وصلوا إليه وخارجة عن قدراتهم ومن ثمّة فهي معجزة لهم وتجاوزت قدرات البشر العقلية والبصرية، فآمن له السحرة لأنهم اقتنعوا بذلك لكن فرعون وأتباعه وصفوا ذلك بالمؤامرة السحرية المخادعة للعقل والبصر، قام بها ساحر بمهارة عالية دلّت عليها لفظة "عليم" في قولهم ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ .[3] بل ومبين في سحره ﴿ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .[4] ليتّهم كذلك بالجنون﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ .[5] فالتوكيد على عدم اعتراف فرعون بموسى رسولا واضح بالقول (إِنَّ رَسُولَكُمْ) فالرسول هنا معرّف بالإضافة (رسول+كم) وهذا يعني أنّ حيّز

---

[1] طه47.

[2] الأعراف الآية106.

[3] الأعراف109.

[4] يونس الآية76.

[5] الشعراء الآية27.

رسالته لا يتعدّى المخصوصين بالخطاب. ليواصل خطابه بـ"الذي" فهذا الاسم الموصول يستعمل للمفرد المذكّر ووضع توصّلا إلى وصف المعارف بالجمل أو بصور أخرى إلى التعريف بالجملة.[1] فتوصّل بـ"الذي" في هذا التركيب إلى تعريف كون الرسول أرسل إليهم _وليس إليه_ مجنون وبالتوكيد على جنونه. وفي هذا مثلما قال أبو السعود[2] محاولة من فرعون للتصغيرٌ من شأن الرسول بطريقِ الاستهزاءِ به.

والسبب الرّئيس الذي دفع بهم إلى اتهامه بالسحر والجنون راجع لكونه قد أظهر أشياء تفوق طاقتهم العقلية، وتفوق قدرتهم على التخييل والتفكير. فمثلما قال صاحب المواقف فقد لوحظ بهذه المعجزة "انقلاب للحقائق والأعيان، والذي هو بنظرهم شيء محال ولا يعقل حيث انقلب الجماد إلى حيوان.. وأنّ هذه الحقيقة تلبس أعراضا وتخلعها، وتلبس أعراضا، وهكذا على الدوام، كما لبست الأعراض التي تخصّ التي تخصّ العصى ثمّ خلعتها، ولبست الأعراض التي تخصّ الثعبان ثمّ خلعتها وهكذا.[3]

الإحباط والانتقام:

ويلاحظ كذلك انحطاط قيمة فرعون. والدليل على ذلك استعماله لعبارة "ماذا تأمرون" في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ

[1] ينظر معاني النحو ج1 ص114.
[2] ينظر تفسير أبي السعود ج6 ص200.
[3] المواقف ج1 ص314.

عَلِيمٌ*يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ .[1] فالأمر يكون من الأعلى إلى الأدنى، وبالرغم من كون فرعون كان يظن نفسه عاليا مثلما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ .[2] فالإخبار هنا كما قال صاحب المواقف (بأن واللام) كان "متوجّها إلى الشاكين في دعواه، والقاطعين بصحّتها.. ودعواه الربوبية والألوهية إنّما كان في أرض النفوس، عالم الطبيعة، وكلّ نفس لها هذه الدعوى، غير أنّ فرعون تجرّأ على إظهارها، وغيره ما تجرّأ".[3] فكان تجرّؤه طاغيا به ومنحطا به في الوقت نفسه. إلاّ أنّه نزل من علوّه في لفظه المخاطِب به (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) وأصبح مسارعا للبحث عن حلول ومخارج لهذه المعضلة التي وقع فيها و"الفاء" دليل سرعته. فلقد تحير فرعون مثلما قال الزمخشري "لما أبصر الآيتين، وبقي لا يدري أي طرفيه أطول، حتى ذلّ عنه ذكر دعوى الإلهية، وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية، وارتعدت فرائصه، وانتفخ سحره خوفاً وفرقاً؛ وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم، أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه وتوقعه وأحسّ به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ قول باهت إذا غلب ومتمحل إذا ألزم ﴿تَأْمُرُونَ﴾ من المؤامرة وهي المشاورة. أو من الأمر الذي هو ضدّ النهي: جعل العبيد آمرين وربهم مأموراً لما استولى عليه من فرط الدهش والحيرة".[4] ويمكن القول بأنّ هذا

---

[1] الشعراء 34. 35

[2] يونس83.

[3] المواقف ج1 ص432.

[4] الكشّاف ج4 ص389.

الانحطاط في القيمة وخسارة فرعون للرهان وتغلّب موسى عليه السّلام عليه، نزل به إلى وأدخله في حالة إحباط كبرى، كانت دافعا له لارتكابه الفعل العدواني، وكما هو مصنّف سلوكيا فالإحباط يعتبر من بين أكبر دوافع الفعل العدواني.[1] وبذلك سعى فرعون إلى التخلّص من مصدر الإحباط، وكان تفكيره الأوّل هو الإبعاد والعزل ووسيلته السجن ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.[2] فالخطاب هنا توكيدي قسمي بالعقاب سجنا، لكن لم يصرّح فيه بالسجن أي لم يقل: "لأسجننّك" بطريق وبتركيب مختصر. وذلك كما قال الزمخشري لأنّه كان يريد القول "لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني. وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوّة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فرداً لا يبصر فيها ولا يسمع، فكأن ذلك أشدّ من القتل وأشدّ".[3] ثمّ بدى له عدم نفعية السجن وكفايته ففكّر في القتل ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.[4] ثمّ طال الانتقام الذين آمنوا معه وذلك ما لوحظ على قولهم له ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾.[5] حيث توعّدهم بالقتل للأبناء واستحياء النساء وأمر بذلك ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ مِنْ

[1] ينظر سيكولوجية العدوان ص30.
[2] الشعراء29.
[3] الكشّاف ج4 ص387.
[4] الأعراف الآية26.
[5] الأعراف126.

عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ .[1] وتوعّد من امنوا كذلك بتقطيع الجسد والصلب﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .[2] وهذا توكيد قسمي على مرّتين (لَأُقَطِّعَنَّ، لَأُصَلِّبَنَّكُمْ) وكذلك الصيغة التي بني عليها فعلا التقطيع والتصليب هي "فعّل" ودلالته التضعيف[3] في الفعل فالفرق بين "قطع" و"قطّع" هو نسبة مضاعفة الفعل وتكرّره فهي أكثر وأقوى في حال و"فعّل" والحال نفسه مع صلب وصلّب. والغرض من ذلك هو المبالغة في التهديد بالعقاب.

الصبر والاستعانة بالله:

السلوك الذي أوصى وأمر به موسى عليه السلام لمواجهة العدوان والتهديد بالقتل والصلب، هو الاستعانة بالله والصبر حتّى يقضي الله أمره﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .[4] وقد أكّدوا على اعتيادهم على مثل هذه الظروف﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ .[5] فهذا تأكيد على تعرّضهم للمعاناة والاضطهاد من قبل ما يأتي موسى عليه السلام. وأوصاهم كذلك

---

[1] غافر الآية25.

[2] الأعراف124.

[3] ينظر بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص38.

[4] الأعراف128.

[5] الأعراف129.

بالتوكّل على الله عزّو جلّ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ .[1] فالتوكّل على الله كما قال سيّد قطب "دلالة على الإيمان ومقتضاه. وعنصر القوّة الذي يضاف إلى رصيد القلّة الضعيفة أمام الجبروت الطاغي فإذا هي أقوى وأثبت. وقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام. وجعل التوكّل على الله مقتضى هذا وذاك.. مقتضى الاعتقاد في الله، ومقتضى إسلام النفس له خالصة والعمل بما يريد..."[2]

فما كان جوابهم إلاّ اتباع ما أمرهم به موسى عليه السلام﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ *وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .[3] وعملوا على طلب النجاة من سطوة الظالم وأتباعه.

الميل إلى الملموس:

ومن الملاحظات التي يمكن الوقوف عندها بحديثنا عن سلوك الإنسان، هو بحثه الدائم وميله في عملية اقتناعه إلى الأمور الملموسة، المدركة بالحواس أي عن التجسيد المادي، وليس عن الأشياء الغيبية، وهذا ما دفع قوم موسى مثلا إلى محاولة البحث عن تجسيد الإله حتّى يدركونه بحواسهم، حاسة البصر أو الرؤية ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ .[4] فإيمانهم بما يدعو إليه مشروط بالرؤية المباشرة لله وفي وضح النهار.

---

[1] يونس الآية84.

[2] في ظلال القرآن تفسير سورة يونس.

[3] يونس 85. 86

[4] البقرة الآية55.

وذلك واضح في قولهم (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) وكما هو معلوم فـ"لن" تفيد النفي وبدخولها على الفعل المضارع تنفيه تفيا مؤكّدا وتخلصه إلى الاستقبال.[1] وبذلك فهذا نفي واضح لفعل الإيمان. وكما هو ملاحظ فدلالة "نؤمن" هنا تفيد التصديق والمعنى (لن نصدّقك في دعواك). وتصديقهم له مشروط وقد أدى معنى الشرط في هذا التركيب "حتّى" فهي تفيد هنا انتهاء الغاية بمعنى (إلى أن).[2] ومن ثمةّ فتصديقه لن يتمّ إلى أن يرو الله جهرة. وقد ردّ الزمخشري لفظ "جهرة" إلى الرؤية "عيانا وهي مصدر من قولك: جهر بالقراءة وبالدعاء، وكأنَّ الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية، والذي يرى بالقلب مخافت بها، وانتصابها على المصدر، لأنها نوع من الرؤية فنصبت بفعلها".[3] وكما هو معلوم في أبنية اللغة العربية فكلّ ما كان علة وزن "فَعْله" من الثلاثي فدلالته على المرّة[4] كالقول (جلست جَلسة)؛ أي جَلسة واحدة. وبذلك فدلالة جهرة يمكن أن تكون رؤيته ولو لمرّة واحدة وبوضوح. وتجسّدت رغبتهم أكثر في اعترافهم بالأشياء الملموسة. في الحالة التي أبدوا فيها إعجابهم بالإله الصنم ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.[5] وهذا مطلب غريب من خلال أسلوب النداء (يامُوسَى)ومطلبهم بعد النداء واضح و"يظهر منه استحسانهم لما رأوه من

---

[1] ينظر معاني النحو ج4 ص163.

[2] ينظر معاني النحو ج3 ص324.

[3] الكشّاف ج1 ص270.

[4] ينظر معاني الأبنية في العربية الدكتور فاضل صالح السامرّائي دار عمار عمان الأردن الطبعة الثانية 1428هـ 2007م ص34.

[5] الأعراف الآية138.

تلك الآلهة بجهلهم"[1] مثلما قال الثعالبي في تفسيره. وكان جوابه أنّه حكم عليهم بالجهل بل بالتوكيد على جهلهم. وقد اختتموا فعلهم بالاعتكاف على عبادة العجل الذي اصطنعوه من حليّهم ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ . [2] ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ*فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ . [3] فقد أثّر عليهم نمط عيشهم الوثني القديم. وكما قال سيّد قطب فالاستعباد "الطويل والذل الطويل في ظل الفرعونية الوثنية، كان قد أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها، والوفاء بالعهد والثبات عليه؛ وترك في كيانهم النفسي خلخلة واستعدادا للانقياد والتقليد المريح. . فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون ويبعد عنهم قليلا حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختبار. ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم النفسي. وكان أول ابتلاء هو ابتلاؤهم بالعجل الذي صنعه لهم السامري.. عندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب، الذي يكشف عن أثر الاستعباد الطويل، والتخلخل النفسي والسخف العقلي: (قالوا: ما أخلفنا موعدك بملكنا) فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا! (ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها).. وقد حملوا معهم أكداسا من حلي

---

[1] تفسير الثعالبي ج2 ص50.

[2] الأعراف الآية148.

[3] طه الآيتان87و 88.

المصريات كانت عارية عند نسائهم فحملنها معهن. فهم يشيرون إلى هذه الأحمال. ويقولون: لقد قذفناها تخلصا منها لأنها حرام. فأخذها السامري فصاغ منها عجلا. والسامري رجل من "سامراء" كان يرافقهم أو أنه واحد منهم يحمل هذا اللقب. وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتا كصوت الخوار. ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد _ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذي لا حياة فيه_ فما كادوا يرون عجلا من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم".[1]

وتقريبا تعتبر ردّة فعلهم أو سلوكهم هذا ناتجا عن تأثير أو فعل الجماعة فيهم، وتابعا لروح الجماعة التي تبنى عادة _كما يرى علم السلوك الجماعي_ على سيكولوجية الحشد، والتي من خلالها تصبح مشاعر الأفراد متجهة نحو هدف واحد تسيطر عليه روح الجماعة، والتي تتميّز بالاندفاع للعمل دون تروٍّ مع سرعة التقلّب ومع شدّة القابلية للإيحاء والمغالاة في المشاعر وبساطة التفكير وسطحيته.[2] وعلى ما أظن فسبب سلوكهم هذا، راجع إلى قابليتهم للإيحاء ويمكن الاستدلال على ذلك بالأحداث المتتابعة وسلوكهم المتكرّر، وذلك ما هو ملاحظ مع السامري الذي خدعهم صوريا وصوتيا لكن بمجرّد زوال مفعول ذلك التأثير وذلك الخداع، أحسوا بخطئهم ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .[3]

---

[1] في ظلال القرآن تفسير سورة طه.

[2] ينظر السلوك الإنساني ص202

[3] الأعراف الآية149.

ومطلب إدراك الله بالرؤية كان قد صرّح به موسى عليه السّلام وأبداه أثناء كلامه مع الله سبحانه وتعالى، حيث كانت له رغبة في رؤية الله عزّ وجلّ، لكن الله بيّن له عدم قدرته على ذلك، وعن عجز حاسة البصر على ذلك ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .[1]

ولربّما كان تأثير رأي الجماعة أو الأغلبية عليه وتساؤلاتهم _ولو نسبيا_ دافعا له في طلبه هذا، والذي كان يهدف من خلاله _والله أعلم_ الردّ على من يسأله بوصف الإله الذي يدعوا إليه، وفي هذا الإطار يرى صاحب المواقف بأن طلب الرؤية هذا هو "نوع من الإفراط في المحبّة والرغبة في إدراك المحبوب. ومن ثمّة فهو ليس شبيها بمطلبهم".[2]

وتأثير الجماعة كان السبب والدافع الذي جعل موسى عليه السلام يختار يوم التحدّي ليكون يوم الزينة ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ .[3] حيث ركّز على عاملي المكان الزمن فاختار يوم الزينة، وهو يوم اشتهر باجتماع الناس فيه بزينتهم يتفرجون ويتنزهون، واختار التوقيت المتمثّل في الضحى وهو عند ارتفاع النهار الأعلى واشتداد ضياء الشمس[4] لأنّه سمي بذلك

---

[1] الأعراف الآية143.

[2] المواقف ج2 ص261.

[3] طه الآية59.

[4] ينظر البداية والنهاية ابن كثير مكتبة المعارف بيروت ج1 ص276. وينظر تفسير أبي السعود ج6 ص2.وينظر تفسير القرطبي ج11 ص211.

لوضوح الأمور فيه وغياب مفهوم التخييل عنه لانعدام الظل والخيال. وأضف إلى ذلك ميزة أخرى يتميّز بها الإنسان يمكن أن تؤثّر على سلوكه فكلّ واحد منّا خاضع لتأثير بيئته والأشياء المكوّنة لها وذلك ما يسمّى قوّة الإيحاء.[1]

ما بعد فرعون:

وبعد النجاة من فرعون بغرقه في البحر ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا . [2] ظهرت مستجدات على حياة الناجين فتأثير فرعون على قومه كان كبيرا وكان كلّه ضلالا وفسادا وانحرافا عن أصل الطبيعة الإنسانية بل أخذهم أو سلك بهم طريقا لا راحة فيه من الناحية النفسية بل هو طريق كلّه اضطراب وتوتّر والحياة فيه هي حياة مهتزّة في محيط يسيّره فرعون وتبعه يعتمد فيه على التخويف والترهيب﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ [3] فما كان لموسى عليه السلام إلاّ السّعي أوّلا إلى إصلاح ما أفسده فرعون من أمور نفسية تمثّلت في الإحباط الكبير الذي أصابهم من خلال تعرّضهم لممارسات عدوانية لفرعون وجنوده لزمن طويل وذلك ببعث الاطمئنان والإحساس بالأمن في نفوسهم بقوله: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ . [4] فالنداء يخص بني إسرائيل. والخبر المراد إيصاله إليهم هو "نجاتهم". والإخبار كان بـ"قد" وهي حرف إخبار إذا دخلت على الفعل الماضي تفيد التحقيق[5] وهي

---

[1] ينظر حريّة من الأفكار الخاطئة ص29.

[2] الإسراء الآية103.

[3] طه الآية79.

[4] طه الآية80.

[5] ينظر رصف المباني ص392.

داخلة هنا على "أنجيناكم" وأنجى كما سبق الإشارة إليه يستعمل للدلالة على الإسراع في التخلّص من الشدّة والكرب[1] ومن ثمّة فهذا تأكيد واضح على تحقّق فعل النجاة وفي أسرع وقت.

عدم القناعة والإكتئاب:

وكذلك يمكن الجزم بأنّه من الأشياء التي يتحدّد بها منحى سلوك الإنسان، مفهومي الطعام والشراب، فهما مطلبان رئيسان قد ظهرا تقريبا في أغلب الحالات التي رأيناها في القصص القرآني، ولاحظنا كيف كانت الطريقة التي تعامل بها كل قوم مع هذا المعطى وهذين المطلبين، وهو الأمر الذي تكرّر مع سيّدنا موسى عليه السّلام، حيث أنّه عمل جاهدا على وضع قومه في حالة إشباع تام من كلّ متطلّبات العيش من أكل وشرب خاصة وذلك في قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .[2] وهي المرحلة الأولى التي كانت فيها دعوة الدخول إلى القرية (ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا) والأكل من خيراتها والتمتّع بها. وفي قوله: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .[3] وهذه هي المرحلة الثانية، والتي ترقّت فيها الدعوة من مفهوم الدخول إلى مفهوم السكن (اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ) فالسكن هو المرحلة التي تأتي بعد الدخول. فالسكن

---

[1] ينظر بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص66.

[2] البقرة الآية85.

[3] الأعراف الآية161.

يدلّ على ثبوت الشيء بعد الحركة. ومنه السكينة التي من دلالاتها زوال الرعب.[1] ومن ثمّة فهو يشير إلى الاستقرار والطمأنينة وحياة الرفاهية الطيّبة والواسعة التي عبّر عنها بلفظ "رغد". هذه الحياة الكريمة اتضحت تصويرها أكثر في قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .[2] فكلمة "ظلّلنا" بنائها جاء على "فعّلنا" وفي ذلك دلالة على كثرة الظلّ. وبالإضافة إلى وفرة الظلّ، فقد زوّدهم بطعام دائمٍ تمثّل في المن والسلوى، وكان ذلك بلفظ الإنزال "أنزلنا" وهو يفيد التدرّج والتكرار.[3] وذلك دليل على دوام النعمة. فلم يقنعوا بذلك وظلموا أنفسهم فأرادوا أن تكون لهم اختيارات متعدّدة، حتّى ولو كانت هذه الخيارات أدنى بكثير من الشيء المقدّم لهم فكان لهم ما أرادوا. وكما كان تصرّف أو سلوك سيّدنا آدم، حيث لم يصبر على كلّ الخيرات التي كانت متاحة له، ومن ثمّة عصيانه لأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه بعدم الاقتراب من الشجرة دون سائر الأشياء الأخرى، كذلك نلاحظ امتداد هذا الفعل إلى قوم موسى عليه السلام، فلم تكن لهم القناعة بالأكل من طعام واحد وفضّلوا أن تكون لهم أطعمة متعدّدة بالرغم من توافر الطعام ودوامه، فأرادوا استبداله بطعام آخر ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ

---

[1] ينظر مفردات في غريب القرآن ج1 ص236.

[2] البقرة الآية57.

[3] ينظر بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص59.

أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ .[1] فهذا تصوير لاستبدال النعم وعدم القناعة وذلك ما أشار إليه سيّد قطب في كتابه في ظلال القرآن "فالبنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر، ومن أجلها ضربوا في الصحراء.. لقد أخرجهم الله _على يدي نبيهم موسى_ عليه السلام من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعة.. وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية. ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف. ولا يريدون أن يدفعوا الفدية. حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة. حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم. وأن يكيّفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة، في طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة. إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر". [2] وحتّى جواب موسى عليه السلام على طلبهم كان فيه واضحا بالقول (اهْبِطُوا مِصْرًا) والهبوط هو النزول الذي تعقبه الإقامة،[3] وقد وجّههم إلى مصر وهم لا يعلمون مصيرهم. وهذا الأسلوب بالأمر بالهبوط يشبه ذلك الأسلوب الذي استعمل في زمن آدم في قوله تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ

[1] سورة البقرة الآية61.

[2] في ظلال القرآن تفسير سورة البقرة آية61.

[3] ينظر الفروق اللغوية بو هلال العسكري تحقيق محمد إبراهيم سليم دار العلم والثقافة القاهرة ص296.

وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ .[1] وذلك يوحي بنزول قيمة حياة الإنسان وبنزول المستوى المعيشي.

وكما هو معروف وبحسب ما وصلت الدراسات العلمية النفسية إليه، فكثرة الاختيارات يمكن أن تكون سببا في وصول الإنسان إلى الاكتئاب، وهذا ما جاءت الإشارة إليه في الحالة التي وصلوا إليها بعدما حقّق لهم مطلبهم وتعدّدت الاختيارات فوصلوا إلى حالة الذلّة والمسكنة حيث يمكن اعتبارهما بمثابة اكتئاب وإحباط. كذلك كثرة الاختيارات تفعّل وتنشّط ما يسمى بالحيل النفسية Mental Mechanisms وهي حيل وأساليب لا شعورية يلجأ إليها الفرد لتشويه ومسخ الحقيقة التي لا يريد أن يقبلها أو يواجهها بصدق، وذلك حتى يتخلص من المسئولية ومن حالة التوتر والقلق الناتجة عن رؤية الواقع الذي يهدد أمنه النفسي واحترامه لذاته. فهي مثل الأكاذيب التي بلغت درجة التصديق والمعايشة على المستوى اللاشعوري. وهذه الحيل النفسية أنواع متعددة مثل الكبت والإسقاط والإنكار، ولكن أكثرها مقاومة وتشويهاً للواقع ما يسمى بحيلة العقلنة Intellectualization، حيث يستخدم الفرد الفهم الخبيث غير المسئول محل الفهم الصادق الذي يحرك الإنسان لعمل الخير والإحسان.[2]

[1] الأعراف24.

[2] هذا ما وصل إليه مجال البحث من خلال دراسة طبية ونفسية عن بيولوجيا الجهاز العصبي والسلوك أثناء الصوم للدكتور: رامز طه محمد استشاري الطب النفسي– رئيس وحدة بمستشفى الطب النفسي بالكويت.

3. عيسى عليه السلام:

مظاهـــر الانفـــــراج:

لليأس والانفراج حالتان ركّــز عليهما قصص القرآن الكريم وكانتا في إطار واحد تمهيدا للوضع العام الذي ولد فيه عيسى عليه السلام، وكان ذلك بالإشارة إلى قصّة سيّدنا زكريا ثمّ مريم في إنجابهما. وأردت التركيز في هذه المرحلة اعتمادا على ما جاء في القرآن على الطريقة التي ولد بها يحيى عليه السلام، ولدا لسيّدنا زكريا. والطريقة التي ولد بها عيسى عليه السلام، حيث ركّز القرآن في الحالتين على لفظ البشرى في إشارته إلى المولود القادم. وبالرجوع إلى الأصل الثلاثي لهذه الكلمة فهو "بشر" والذي منه البشرة والبشرية التي تعني ظاهر الجلد وَخُصَّ في القرآن كلّ موضع اعْتُبِرَ من الإنسان جثّته وظاهره بلفظ البشر[1] ومن ثمّة يمكن القول بأنّ لفظ "البشرى" يشير إلى الظاهر من الإنسان دون معرفة عقليته وباطنه وغالبا ما تكون هذه النظرة للإنسان ابتدائية قبل التحدّث معه. فزكريا دعا الله ليهب له غلاما ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء ﴾ . [2] وكان له ذلك رحمة من الله ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى

[1] مفردات في غريب القرآن ج1 ص47.

[2] آل عمران الآية38.

مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .[1] ﴿ يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ .[2]

وكذلك الحال مع مريم حيث بشّرها الله بعيسى عليه السلام ﴿ إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾[3] ليشار إلى عيسى عليه السلام بلفظ الهبة في آية أخرى ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ .[4] ومن هذا المنطلق يمكن وصف عيسى عليه السلام بالهبة والبشرى. وكان التعبير عن البشرى بالغلام مع زكريا وبالكلمة مع مريم والكلمة بحسب ما رأى السامرائي[5] أعمّ من الغلام، فهي تصحّ لكلّ ما أراد الله أن يكون.

التعجّب والدهشة:

وقد أبدا كلا المبشّرين سواء زكريا عليه السلام أو مريم ردّة الفعل نفسها فزكريا كانت له تساؤلاته عن طبيعة إمكانية الإنجاب، حيث أنّه لم يصدّق ذلك مبدئيا ليعبّر عن دهشته وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .[6] وفي

---

[1] آل عمران الآية39.

[2] مريم الآية7.

[3] آل عمران الآية45.

[4] مريم الآية19.

[5] ينظر أسئلة بيانية في القرآن الكريم ص32.

[6] آل عمران الآية40.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.[1] وكذلك الأمر نفسه كان مع مريم في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[2] وفي قوله: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيًّا﴾.[3] ويمثّل ذلك في الجدول الآتي:

قَالَ رَبِّ	أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ	وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ
		وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا
قَالَتْ		وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيًّا
قَالَتْ رَبِّ	أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ	وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ

ومن خلال الرجوع إلى الطريقة التي عبّر كلّ واحد منهما بها، عمدا فقد عمدا إلى أسلوب الاستفهام في تساؤلهما وأداته "أنى" والاستفهام بهذه الأداة غالبا ما يكون لدلالتها على معان عدّة، فهي تشترك في أكثر من معنى. فهي يراد بها "من أين" ويراد بها "كيف".[4] ومن ثمّة فهو تساؤل (من أين لي الغلام وقد.. وكيف يكون لي غلام وقد..) فالمعنيان مرادان استبعادا لحالة الولادة. فهو سؤال

[1] مريم الآية8.

[2] آل عمران الآية47.

[3] مريم الآية20.

[4] ينظر معاني النحو ج4 ص218.

عن القدرة التي أي (من أين لي القدرة). وسؤال عن الطريقة التي ستتم بها الولادة أي (كيف سيمكنني الولادة) فهذا جمع بين المعنيين في غياب دواعي الإنجاب.

والشيء الملاحظ على الحالتين هو طبيعة الولادة التي تمّت في عدم توافر الشروط الطبيعية حيث نلاحظ انهيار الأسباب الكونية لإمكان الإنجاب.* فزكريا أبدى أمرين وهما كون زوجته عاقر بالإضافة إلى كبر سنّه وفقدانه للقدرة. أمّا مريم فالسبب هو عدم توافر الطرف الثاني وهو الذكر. وقد ظهرت المزاوجة كذلك بين لفظي الغلام والولد فزكريا استعمل لفظ الغلام ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾واستعملته مريم كذلك، وفي آية أخرى عبّرت مريم بكلمة الولد عوض الغلام ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾والولد بحسب ما رأى الدكتور السامرائي[1] أعمّ من الغلام، فالولد يقال للذكر والأنثى، والمفرد والجمع. فلمّا بشّرها بالكلمة، وهي عامة سألت بما هو أعم من الغلام وهو الولد، فناسب بذلك العموم العموم والخصوص الخصوص.

وقد كان الردّ على تساؤلهما باستعمال لفظ "فعل" في الردّ على زكريا ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ولفظ "خلق" مع مريم ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وقد أرجع الدكتور السامرّائي[2] ذلك إلى كون الفعل أيسر من الخلق، فالفعل عام، وبذلك فإيجاد الذريّة من أبوين أيسر من إيجادها من أمّ بلا أب، فناسب ذكر

---

* تعبير استعمله متولّي الشعراوي في لتعبير عن معجزة الخلق ينظر كتاب معجزة القرآن محمد متولّي الشعراوي دار أخبار اليوم إدارة الكتب والمكتبات ج1 ص13.

[1] ينظر أسئلة بيانية في القرآن الكريم ص32.

[2] المرجع نفسه ص32.

الفعل الذي هو أيسر من الخلق مع زكريّا وناسب ذكر الخلق مع مريم التي لم يمسَسْها بشر.

كما أنّ ردّة فعلهما على ما حدث كانت متشابهة، حيث أمرهما الله سبحانه وتعالى بالامتناع عن الكلام كآية لهما، وذلك من باب دع واترك المعجزة تعبّر عن نفسها فالحالة في حدّ ذاتها تعتبر فوق ما اعتاد عليه الناس وخارقة لقوانين البشر ومن ثمّة لا داعي للدخول في جدال بخصوصها ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ .[1] ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ .[2] ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ .[3] والأمر نفسه كان لمريم في الآية التي ستواجه بها قومها ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ .[4] وعن ذلك ذهب الزمخشري إلى القول شارحا "أمرها الله بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع البشر المتهمين لها في الكلام لمعنيين، أحدهما: أن عيسى صلوات الله عليه يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها. والثاني: كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم. وفيه أن السكوت عن السفيه واجب. ومن أذل الناس: سفيه لم يجد مسافها".[5] فالمعجزة

---

[1] مريم الآية10.

[2] آل عمران الآية41.

[3] مريم الآية11.

[4] مريم26.

[5] الكشّاف ج4 ص17.

ظاهرة للعيان واخترقت حدود المتعارف عليه ولا داعي لإكثار الكلام بل هي التي ستعبّر عن نفسها.

ولادة عيسى عليه السلام:

ولادة عيسى عليه السلام كلّها حكمة في حكمة، وإعجاز ما بعده إعجاز حيث ولد بغير توفّر طرف الأب الوالد أو الذكر وبوجود الأنثى فقط وهي مريم﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا*فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾ .[1] وكانت أولى معجزة فيه كلامه في المهد وهي معجزة تفوق الطبيعة والقدرة البشرية ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ .[2] كما ركّز لفظ القرآن على كلمة "عبد"[3] أي عبد بالعبادة والخدمة فهو عبد لله مخلص في إشارة إلى المستوى الذي سيصل إليه عيسى عليه السلام والذي ألّه فيما بعد، والغرض هنا واضح وهو أنّ عيسى منذ البداية ومنذ ولادته كان يقول للناس بأنّه عبد من عباد الله اصطفاه بالنبوّة مثلما اصطفى أنبياء من قبله. كما نلاحظ كذلك أنّه ركّز على نفي التجبّر والشقاوة عن نفسه ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ .[4] فأسلوب النفي واضح في هذا السياق، وأداته "لم" فهي تنفي الفعل المضارع وتجزمه، وتقلب زمنه إلى المضي.[5] وهو في هذه الحالة ينفي عن نفسه التجبّر والجبّار كما قال

---

[1] مريم22. 23.

[2] مريم30.

[3] ينظر مفهوم "عبد" مفردات في غريب القرآن مادة "عبد" ج2 ص319.

[4] مريم الآية32.

[5] ينظر معاني النحو ج4 ص162.

الراغب "في صفة الإنسان يقال لمن يجبُرُ نَقِيصتَه بادّعاء منزلة من التعالي لا يستحقّها وهذا لا يقال إلاّ على طريق الذمّ".[1] ونفى عن نفسه الشقاوة وهي خلاف السعادة.[2] وعن سبب هذه الترتيب أسبقية الجبّار على الشقي لأنّ السياق يفرض ذلك وكما قال الرازي في تفسيره فالمعنى "ما جعلني متكبراً بل أنا خاضع لأني متواضع لها ولو كنت جباراً لكنت عاصياً شقياً".[3] وقدّم الألوسي تفسيرا آخر للمفهومين وهو أنّ "الجبار الذي لا ينصح والشقي الذي لا ينتصح".[4] وبما أنّه آخر أنبياء بني إسرائيل[5] فهو في إطار محو وإزالة أوّلا تلك الصورة التي رسمت لمن لمن قبله من الأنبياء خاصة موسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.[6] وكان محور عمله ودعواه كلمة "السلام" التي لازمته لازمته على الدوام﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .[7] فكان عيسى عليه السلام كما قال أبو حامد الغزالي "من المفضلين ولإجلاله سلم على نفسه.. وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس".[8]

---

[1] مفردات في غريب القرآن مادة "جبر" ج1 ص85.

[2] المرجع نفسه مادة "شقا" ج1 ص264.

[3] تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) ج21 ص537.

[4] روح المعاني ج16 ص95.

[5] ينظر تفسير ابن كثير ج3 ص412.

[6] القصص الآية19.

[7] مريم الآية33.

[8] إحياء علوم الدين ج4 ص254.

الحكمة:

ومن ثمّة جاء عيسى عليه السلام ليصحّح أخطاء قومه التي ورثوها عن أسلافهم، عن طريق الحكمة فأمرهم بالتقوى واتقاء الله عزّ وجلّ، ولن تكون هذه التقوى إلاّ بطاعته وطاعة أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه وقد دعّم دعواه بكل الدلائل انطلاقا من ولادته بغير والد إلى تكلّمه في المهد ويضاف إلى ذلك إحياؤه للموتى ومداواته لأمراض استعصى على الأطباء علاجها وإيجاد الحلول لها وكلّ ذلك بإذن الله ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي ﴾ .[1] كما كان دوره كذلك متمماً لعمل الأنبياء والرسل الذين سبقوه من خلال تدقيق بعض المفاهيم التي ظهر الاختلاف بشأنها ليضع لها حدودا يزيل بها ذلك الاختلاف ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي ﴾ .[2]

وكان أوّل شيء نادى به ودعا إليه عبادة الله الواحد القهّار﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .[3] ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .[4] والفرق بين الآيتين هو تدعيم القول الثاني بالضمير "هو" وهو كما يصنّف نحويا ضمير شأن، وهو ضمير يتقدّم الجملة

---

[1] آل عمران الآية50.

[2] الزخرف الآية63.

[3] آل عمران الآية51.

[4] الزخرف الآية64.

فيكون كناية عنها وتكون الجملة بعده خبرا عنه وتفسيرا له ولا يكون ذلك إلاّ في مواضع التخصيص والتفخيم والتعظيم، كما يجيء هذا الضمير مع العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر كـ "إنّ" وأخواتها.[1] ومن ثمّة فالآية الأولى تحتمل الإخبار الابتدائي. أمّا الآية الثانية فهي تفيد التفخيم والتعظيم. فهذا كما قال صاحب كتاب أسرار التكرار في القرآن الكريم "أعلام بأنّ المبتدأ مقصور على الخبر، وهذا الخبر مقصور عليه دون غيره. ليصير المبتدأ مقصورا على الخبر وهو إثبات الربوبية".[2] فذلك توكيد واضح على كون العبادة لله سبحانه وتعالى وحده، ولن تكون إلاّ له. والأمر في ذلك واضح كذلك (فَاعْبُدُوهُ) فهذا أمر وهذه دعوة لعبادة الله الواحد القهار.

وكانت رسالته متمّمة لتلك الرسالة التي جاء بها موسى عليه السلام والتي كانت موجّهة لبني إسرائيل. فكانت مدعّمة بدلائل ومعجزات ذكرها القرآن الكريم في قوله ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.[3] وقد أعطيت مجموعة من التأويلات في ما يخصّ الحذف على مستوى هذه الآية فالرأي الأوّل يقرأ الآية على: ونبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل،

[1] ينظر معاني النحو ج1 ص53.
[2] إسرار التكرار في القرآن ص49.
[3] آل عمران الآية49.

قائلاً (أَنّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مّن رَّبّكُمْ).[1] أمّا الزمخشري[2] فقرأها على حذف الفعل (أرسلت)؛ أي (وأرسلت رسولا إلى بني إسرائيل). ويضيف الرازي على هذا بأنّ "هذه الآية تدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان رسولاً إلى كل بني إسرائيل بخلاف قول بعض اليهود إنه كان مبعوثاً إلى قوم مخصوصين منهم.. والمراد بالآية الجنس لا الفرد لأنه تعالى عدد ههنا أنواعاً من الآيات، وهي إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار عن المغيبات فكان المراد من قوله {قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مّن رَّبّكُمْ} الجنس لا الفرد".[3]

الطعام والأكل:

وكما كان الحال مع الأقوام السابقة لعيسى عليه السلام في مطالبتهم بالأشياء الملموسة، فقومه كذلك طالبوه بآيات ودلائل على ما يقول، وقد ركّزوا في مطلبهم على الطعام، وهذا يدل على أنّ المطلب الأول للإنسان في هذه الدنيا هو إشباع رغباته ورغبته الأولى هي الأكل ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ

[1] ينظر تفسير الرازي (مفاتيح الغيب).
[2] ينظر الكشّاف ج1 ص559.
[3] تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) في تفسيره لسورة آل عمران.

الرَّازِقِينَ ﴾ .[1] فهذا نداء لعيسى عليه السلام يعقبه مباشرة أسلوب الاستفهام وأداته "هل" واختصاصها التصديق والإثبات.[2] فهم يتساءلون عن استطاعة الله عزّ وجلّ في تنزيل المائدة والاستطاعة بحسب الراغب هي "اسْتِفَالَةٌ من الطوع وذلك وجوه ما يصير به الفعل متأتّيا. وهي عند المحقّقين اسم للمعاي التي بها يتمكّن الإنسان ممّا يريده من إحداث الفعل وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ: بِنْيَةٌ مَخْصُوصَةٌ للفاعل. وَتَصَوُّرٌ لِلْفِعل، وَمَادَّةٌ قَابِلَةٌ لِتَأْثِيرِهِ، وَآلَةٌ إِنْ كَانَ الفِعلُ آلِيّاً كالكِتَابَةِ فإنّ الكاتِبَ يَحْتَاجُ إِلى هذه الأربعة في إِيجَادِهِ لِلكِتَابَةِ، وكذلك يُقالُ فُلانٌ غَيْرُ مُسْتَطِيع للكِتابةِ إِذَا فَقَدَ وَاحِداً مِنْ هذِهِ الأربعةِ فَصاعِداً، ويُضادُّهُ العَجْزُ وهوَ أَنْ لا يَجِدَ أحَدَ هذه الأربعةِ فَصاعداً، وَمَتى وَجدَ هذه الأربعةَ كلَّها فَمُسْتَطِيعٌ مُطْلَقاً وَمَتَى فقدها فَعَاجِزٌ مُطْلَقاً، وَمَتَى وَجَدَ بَعضَهَا دُونَ بَعْضٍ فَمُستَطِيعٌ مِنْ وَجْهٍ عاجِزٌ مِنْ وَجْهٍ، وَلأَنْ يُوصَفَ بالعَجْزِ أَوْلَى. والاِسْتِطَاعَةُ أخَصُّ مِنَ القُدْرَةِ.." [3] فهذا كلام يردّ من الشاكّين وذلك ما ذهب إليه الزمخشري "فإنّ دعواهم بالإيمان كانت باطلة، وإنهم كانوا شاكين، وقوله: (هل يستطيع ربك) كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم، وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم معناه: اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته، ولا تقترحوا عليه، ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة". [4]

---

[1] المائدة 112 حتى114.

[2] ينظر معاني النحو ج4 ص207.

[3] مفردات في غريب القرآن ج2 ص310.

[4] الكشّاف ج2 ص313.

عدوانية القتل والصلب:

وقد تلخّص ردّ الفعل العدواني الذي واجهه عيسى عليه السلام في مظهرين فواعده المعتدون بنمطين من العقاب تمثّلا في القتل والصلب حيث أنّهما لم يحقّقا وينفّذا فيه بل أنجاه الله منهما. وكما لاحظنا من قبل فمفهوم القتل قد كان مع بداية وجود البشرية على هذه الأرض، لكن فعل أو مفهوم الصلب فهو محدث ومارسه فرعون مع قوم موسى عليه السلام ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا *بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .[1] وهذا كما قال صاحب فتح القدير "من جملة جناياتهم وذنوبهم. لأنهم كذبوا بأنهم قتلوه، وافتخروا بقتله، وذكروه بالرسالة استهزاء، لأنهم ينكرونها، ولا يعترفون بأنه نبي. وما ادعوه من أنهم قتلوه، قد اشتمل على بيان صفته، وإيضاح حقيقته.. فقد كذبوا، وصدق الله القائل في كتابه العزيز وما قتلوه وما صلبوه والجملة حالية أي قالوا ذلك والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم أي ألقى شبهه على غيره وقيل لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذين قتلوه وهم شاكون فيه.. بل هم مترددون مرتابون في شكهم يعمهون وفي جهلهم يتحيرون، وما لهم به من علم إلا إتباع الظن "من" زائدة لتوكيد نفي العلم، والاستثناء منقطع أي لكنهم يتبعون الظن. والضمائر قبل

[1] النساء157. 158.

قتلوه وبعده لعيسى وذكر اليقين هنا لقصد التهكم بهم لإشعاره بعلمهم في الجملة قوله بل رفعه الله إليه رد عليهم وإثبات لما هو الصحيح".[1]

التطبع على تأليه البشرى:

وقد وصل بالإنسان إلى تأليه أخيه الإنسان من طبيعته، وهذه الحالة كانت موجودة في زمن موسى عليه السلام مع فرعون، لكن هنالك فرق بين الحالتين، ففرعون هو الذي فرض على قومه تأليهه، انطلاقا من معطيات يراها هو في نفسه وأرغم قومه بطرقه الخاصة على رؤيتها فيه، بينما الأمر ليس هو نفسه مع عيسى عليه السلام : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ .[2] فتحقيق فعل كفر من قالوا بألوهية المسيح واضح، وبأسلوب التوكيد وذلك أمر شهدته البشرية مع فرعون. وبعد ظهور فعل تأليه البشري، وكأنّ هذا الفعل قد طبع على قلوب بعض الناس وتطبّعوا عليه، فأرادوا تأليه المسيح عليه السلام وأمّه بالرغم من عدم قول المسيح بذلك أو عدم إرغامهم على ذلك. ثمّ مرّوا إلى مستوى آخر من مفهوم الإله الواحد إلى تعدّد الآلهة في إله واحد إلى عقيدة التثليث﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ .[3] فهذا تحقيق لكفر الذين أكّدوا على قولهم بأنّ الله ثالث ثلاثة. والملاحظ هو تشابه الأسلوب المستعمل، وذلك في مدخل الخطاب والسبب بحسب صاحب كتاب أسرار التكرار في القرآن راجع إلى "أن النصارى اختلفت أقوالهم فقالت اليعقوبية إن الله

---

[1] فتح القدير ج1 ص534.

[2] المائدة17.

[3] المائدة الآية73.

تعالى ربما تجلى في بعض الأزمان في شخص فتجلى يومئذ في شخص عيسى فظهرت منه المعجزات وقالت الملكية إن الله اسم يجمع أبا وابنا وروح القدس اختلفت بالأقانيم والذات واحدة فأخبر الله عز وجل أنهم كلهم كفار".[1]

وهذه هي ملامح العدوانية التي طالت أنبياء الله عليهم السلام في المرحلة الثانية. وهذه هي الطريقة المسالمة التي واجه بها الأنبياء ذلك الفعل العدواني.

[1] أسرار التكرار في القرآن ص64.

الفصل الرابع
الخطاب الشامل لحل النزاع

في هذا الفصل يتمّ التطرّق للمرحلة الخاتمة للرسالات النبوية وهي مرحلة اصطفى الله فيها سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام لتحمّل رسالتها. ومظهرها الأوّل أنّ الخطاب فيها كان شمولي وموجّها للناس أجمعين، ونجد ذلك مثلا في قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾[1] فاللام التي تسبق الناس الغرض منها التخصيص ويراد بها العموم؛ أي مرسل للناس جميعا، وذلك ما عمل الرسول عليه الصلاة والسلام على القول به في بداية تحمّله لرسالة الإسلام فقد بين بأنّه مرسل للعامة بأمر من الله عزّ وجل بقوله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .[2] فالخطاب كما هو مجسّد في الآيتين الكريمتين موجّه بلفظ الشمولية والعموم للناس أجمعين. ومن ثمّة فمعجزة الرسالة الخاتمة كما قال صاحب كتاب المعجزة الكبرى هي "أكمل المعجزات التي أيّد الله تعالى بها رسله عليهم السلام. كونها مصدّقة لمنهج أنزله الله تعالى للبشرية جمعاء، إلى قيام الساعة وكونها آخر معجزات الله تعالى المصدّقة لمناهجه التي ينزّلها للبشر، وكونها ملتحمة بالمنهج الذي يصدّقه.. فتدرّج الرسالات السماوية، أحاطت به حكمة الله تعالى، وعلمه حتّى وصل ذروته في الرسالة الخاتمة التي نزّلها الله تعالى على الرسول محمد عليه الصلاة والسلام".[3] وليس كبقية الأنبياء من قبل حيث كان الخطاب موجّها إلى أقوام معيّنة (قوم نوح، قوم إبراهيم) كمرحلة أولى أو موجّها إلى أمّة معيّنة في المرحلة الثانية وهم بنو إسرائيل (يوسف، موسى، عيسى) فالتشريع والوحي الإلهي مع سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام، يلاحظ عليه تحرّر الخطاب فيه من عاملي الزمن والمكان، فهو بذلك يتجاوز حدود تلك الدائرة الضيّقة التي شهدتها المراحل السابقة ليشمل كلّ الخلق ﴿ قُلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .[4] فرسالته للناس جميعا وليس لفئة معيّنة. كما يمكن الإشارة

---

[1] النساء الآية79.

[2] الأعراف الآية158.

[3] المعجزة الكبرى (معجزة إحدى الكبر) عدنان الرفاعي دار الخير دمشق الطبعة الأولى 2006م ص18.

[4] سبأ الآية28.

إلى ميزة أخرى في المحور العام للتشريع لهذه المرحلة فالخطاب كان موجودا مع بقية الأنبياء بالنداء المباشر مع ذكر أسمائهم كما هو الحال مع سيّدنا آدم في قوله تعالى ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ .[1] أو مع سيّدنا نوح عليه السلام ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ .[2] أو مع بقية الأنبياء ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ .[3] ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ .[4] ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ .[5] أمّا مع سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام فالنداء لم يستعمل باسمه "يا محمد" مباشرة بل استعمل أوصافا أخرى تنسب إليه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ .[6] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ .[7] ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ .[8] ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾).[9] وذلك ما يزيد من فاعلية الخطاب الشمولي حيث أنّ عدم ذكر محمد عليه الصلاة والسلام باسمه مباشرة. يجعل القارئ للقرآن الكريم بفعل هذه الصياغة للنداء وكأنّه متقمّصا لدور الرسول أو دور النبي أو أي دور جاء موصوفا في الآيات. وهو المقصود والمكلّف بطريقة غير مباشرة لنقل رسالة أو نبوءة الإسلام. كما أنّ البشرية في هذه المرحلة مثلما أشار إلى ذلك صاحب كتاب المعجزة الكبرى "ارتقت إلى مستوى حضاري تتعامل فيه مع نصّ مكتوب صالح لكلّ زمان ومكان، بحيث يكون هذا النص محور الرسالة، وبحيث يعطي كلّ جيل

---

[1] البقرة الآية35.

[2] هود الآية46.

[3] هود الآية76.

[4] الأعراف الآية144.

[5] آل عمران الآية55.

[6] المائدة الآية41.

[7] الأنفال الآية64.

[8] المزمل الآية1.

[9] المدثر الآية1.

الحلول المناسبة لمشاكله الحضارية".[1] وهي مرحلة انقسمت أحوال الإنسان فيها فيها إلى حالات ثلاث هي الإيمان للذين آمنوا، الكفر للذين كفروا والنفاق للذين لم يعرف اتجاههم ظاهريا بين الكفر والإيمان وميلهم باطنيا إلى الكفر.

1. الخطاب إلى الناس عامة:

وأوّل شيء يمكن الإشارة إليه انطلاقا من شمولية الخطاب للناس عامة هو تلك الصياغة اللغوية المتمثّلة في القول المقترن بالنداء في خطاب موجّه بلفظ العموم لكل الناس وجاء ذلك في أربع آيات وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ .[2] وقوله: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .[3] وقوله: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ .[4] وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ .[5]

ويمكن تمثيل هذه الآيات في الجدول الآتي:

---

[1] ينظر فيما يتعلّق بتفصيل المعطيات الخاصّة بهذه المرحلة كتاب المعجزة الكبرى (معجزة إحدى الكبر) ص22.

[2] الأعراف الآية158.

[3] يونس الآية104

[4] يونس الآية108.

[5] الحج الآية49.

	إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
	إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ	إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
	قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ

وكما هو ملاحظ فالخطاب يبتدئ بأسلوب الأمر "قل" وهذا الأمر متبوع بأسلوب آخر هو النداء (يا أيها الناس) وهو نداء عموم. وكما هو معلوم فالنداء هو طلب واستحضار يراد منه اقبال المدعو على الدّاعي ليمكّن من توجيه ما يريد إليه.[1] والخطاب في كلّ الآيات بعد النداء يتزاوج بين الدعوة والتبرّؤ، دعوة إلى عبادة الله سبحانه وتعالى(فَآمِنُوا بِاللَّهِ)**، ودعوة إلى اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام** (وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)**حيث أنّه سيعمل على إنذار الناس بعواقب الأمور** (إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)**مع إعطائهم سبل النجاة. وتبرّؤ ممن لم يتبع هذه الدعوة**(فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)**. كما يلاحظ كذلك مفهوم الحرية الفردية في الاختيار بين الهداية والضلال، بين اتباع الدعوة أو عدمه ومن ثمّة غياب مفهوم الوصاية والوكالة على الآخر، وغياب مفهوم الإكراه وذلك ما جاءت الإشارة إليه**

[1] ينظر النداء في اللغة والقرآن أحمد محمد فارس دار الفكر اللبناني الطبعة الأولى 1409هـ 1989م ص135.

في قوله تعالى ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .[1] فكل إنسان حرّ في اختياراته وفي معتقداته، وهو الوحيد المسئول عن أفعاله وسيحاسب عليها وذلك ما جاء في القول ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يقول للناس وما أنا عليكم بوكيل فقد بين لهم سبل الرشد وسبل الغي وفي حال اتباع كلا السبيلين فالمحاسب الوحيد هو الله سبحانه وتعالى وأمر الناس بيده. فالآية الأخيرة بحسب الترتيب في الجدول تؤكّد على إبراز المسؤولية الفردية على حدّ قول صاحب كتاب النداء في اللغة والقرآن. فقد "أبرز مسؤولية الفرد في إيمانه.. وانتقاله إلى المستوى الانساني في التفكير، وإدراك الجمال في الحياة والعمل الارادي، وكذلك أبرز مسؤوليته عن حيرته وبقائه في جاهليته، والرسول المبلغ لوحي الله لا تتجاوز رسالته تبليغها إلى الأفراد، وبذلك لا يشارك غيره المسؤولية، في أي اتجاه يسلكه"[2].

2. مسالمة الذين آمنـــوا:

المؤمنون كما أشار إليهم القرآن هم خير خلق الله حيث سارت بهم فطرتهم إلى عبادة الله عزّ وجلّ وإلى الاعتدال باختيارهم للطريق السويّ المسالم الذي يبتعدون به عن كلّ مظاهر العدوانية وأذيّة النفس والآخر، فهو طريق الاستقامة

[1] البقرة الآية256.

[2] النداء في اللغة والقرآن ص141.

الذي إذا سلكه أي إنسان لن يندم عليه ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .[1] ونلاحظ ضرورة استيفاء شرط الاستقامة والاعتدال بعد الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وذلك كي يصحّ سلوك الإنسان فتزول عنه كلّ المخاوف وتبتعد عنه كلّ مظاهر الإحباط والحزن وأمراض القلوب والنفوس. وهذا هو جزاء المؤمنين المستقيمين مثلما قال سيّد قطب "وفي نهاية هذا الشوط الأول يصور لهم جزاء المحسنين، ويفسر لهم هذه البشرى التي يحملها إليهم القرآن الكريم، بشرطها، وهو الاعتراف بربوبية الله وحده والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته:

وقولة: (ربنا الله) ليست كلمة تقال بل إنها ليست مجرد عقيدة في الضمير. إنما هي منهج كامل للحياة، يشمل كل نشاط فيها وكل اتجاه، وكل حركة وكل خالجة؛ ويقيم ميزانا للتفكير والشعور، وللناس والأشياء، وللأعمال والأحداث، وللروابط والوشائج في كل هذا الوجود. فلله العبادة وإليه الاتجاه، ومنه الخشية وعليه الاعتماد. فلا حساب لأحد ولا لشيء سواه، ولا خوف ولا تطلّع لمن عداه. فكل نشاط وكلّ تفكير وكلّ تقدير متّجه إليه، منظور فيه إلى رضاه. فلا احتكام إلاّ إليه، ولا سلطان إلاّ لشريعته، ولا اهتداء إلاّ بهداه. فكل من في الوجود وكل ما في الوجود مرتبط بنا ونحن نلتقي به في صلتنا بالله. منهج

[1] الأحقاف الآية13.

كامل على هذا النحو، لا كلمة تلفظها الشفاه، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة.

(ثم استقاموا) وهذه أخرى. فالاستقامة والاطراد والثبات على هذا المنهج درجة بعد اتخاذ المنهج: استقامة النفس وطمأنينة القلب. استقامة المشاعر والخوالج، فلا تتأرجح ولا تضطرب ولا تشك ولا ترتاب بفعل الجواذب والدوافع والمؤثرات. وهي عنيفة ومتنوعة وكثيرة. واستقامة العمل والسلوك على المنهج المختار. وفي الطريق مزالق وأشواك ومعوقات؛ وفيه هواتف بالانحراف من هنا ومن هناك. (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وفيم الخوف وفيم الحزن.. والمنهج واصل. والاستقامة عليه ضمان الوصول؟"[1]

وكما هو ملاحظ فالاعتدال والاستقامة بحسب ما هو مذكور في الآية السابقة هما أساس الفطرة الإنسانية السليمة، وهما الاتجاه الصائب الذي اختاره الله سبحانه وتعالى لعباده في صلاحهم كمنهج يسيرون عليه، تلك الاستقامة التي وضّحها وأشار إليها القرآن في موضع آخر بلفظ الوسطية في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .[2] فمدخل الخطاب في هذه الآية كان بـ "كذلك" وهذا التركيب مبدئيا وبتصنيفه نحويا، يفيد التشبيه ومعناه (مثل ذلك). كما أنّها قد تكون

[1] في ظلال القرآن تفسير سورة الأحقاف.

[2] البقرة الآية143.

بمعنى "أيضا" في بعض السياقات، وهي في هذه الحالة لا تفيد التشبيه.[1] وقد قدّم المفسّرون قراءات عدّة شارحة لهذا التركيب، ومنها القراءات التي قدّمها الرازي في تفسيره.[2] وكلّها تشير إلى معنى التشبيه فأوّل القراءات أنّ التشبيه راجع إلى معنى الهدى؛ أي كما أنعمنا عليكم بالهداية، كذلك أنعمنا عليكم بأن جعلناكم أمة وسطاً. وثاني القراءات هي التقرير؛ أي تقريره كما هديناكم إلى قبلة هي أوسط القبل وكذلك جعلناكم أمة وسطاً. وثالث القراءات أنه عائد إلى معنى اصطفاء سيّدنا إبراهيم؛ أي فكما اصطفيناه في الدنيا فكذلك جعلناكم أمة وسطاً. ورابع القراءات مبني على الاستواء والمعنى أنّ هذه الجهات بعد استوائها في كونها ملكاً لله وملكاً له، خص بعضها بمزيد التشريف والتكريم بأن جعله قبلة فضلاً منه وإحسانا، فكذلك العباد كلهم مشتركون في العبودية إلا أنه خص هذه الأمة بمزيد الفضل والعبادة فضلاً منه وإحساناً لا وجوباً. وخامسها أنه قد يذكر ضمير الشيء وإن لم يكن المضمر مذكوراً إذا كان المضمر مشهوراً معروفاً.. ثم من المشهور المعروف عند كل أحد أنه سبحانه هو القادر على إعزاز من شاء وإذلال من شاء فقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أي ومثل ذلك الجعل العجيب الذي لا يقدر عليه أحد سواه جعلناكم أمة وسطاً.

---

[1] ينظر معاني النحو ج1 ص98.

[2] تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) ج4 ص83.

وبالإضافة إلى هذه الاحتمالات اللغوية المبنية على معنى التشبيه والتي قدّمها الرازي، هنالك احتمال آخر مبني على معنى "أيضا"؛ أي (وأيضا جعلناكم أمة وسطا) وذلك بعد أن فضّلهم على أقوام سابقة، ذكرها في السياق السابق لهذه الآية ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] وبعد إقرارهم بالشّهادة أيضا زادهم ميزة أخرى وهي أن صيّرهم أمّة وسطا.

وقد ظهر الاختلاف في تفسير معنى الوسطية في اقترانها مع كلمة "أمّة" وقد فصّل الرازي في تفسيره[2] في وجوه ذلك الاختلاف فهنالك من رأى بأنّ الوسط قد يشير إلى مفهوم العدل ودليلهم في ذلك أنّه استعمل في سياقات متعدّدة من آية وخبر وشعر ونقل ومعنى، فاستعماله في الآية كان في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾.[3] أي أعدلهم، وأمّا الخبر فما روى عن النبي صلى الله عليه وسلّم: «أمّة وسطاً قال عدلاً».[4] وقال عليه الصّلاة والسّلام: «خير الأمور أوسطها»[5] أي أعدلها. وقيل:

---

[1] البقرة الآية140.

[2] ينظر تفسير الرازي ج4 ص83.

[3] القلم الآية28.

[4] الحديث مذكور في صحيح البخاري ج2 ص249. وفي سنن الترمذي ج8 ص282.

[5] الحديث مذكور في بدائع الصنائع علاء الدين أبو بكر الكاساني دار الفكر ج1 ص56.

كان النبي صلّى الله عليه وسلم أوسط قريش نسباً، وقال عليه الصلاة والسّلام: «عليكم بالنمط الأوسط».[1] وأما الشعر فقول زهير:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي العظائم

وأما النقل فقال الجوهري في «الصحاح»:[2] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي عدلا. وأما المعنى فمن وجوه. أحدها: أن الوسط حقيقة في البعد عن الطرفين ولا شك أن طرفي الإفراط والتفريط رديئان فالمتوسط في الأخلاق يكون بعيداً عن الطرفين فكان معتدلاً فاضلاً. وثانيها: إنما سمي العدل وسطاً لأنه لا يميل إلى أحد الخصمين، والعدل هو المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الطرفين. وثالثها: لا شك أن المراد بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ طريقة المدح لهم لأنه لا يجوز أن يذكر الله تعالى وصفاً ويجعله كالعلة في أن جعلهم شهوداً له ثم يعطف على ذلك شهادة الرسول إلا وذلك مدح فثبت أن المراد بقوله: (وسطاً) ما يتعلق بالمدح في باب الدين، ولا يجوز أن يمدح الله الشهود حال حكمه عليهم بكونهم شهوداً إلا بكونهم عدولاً، فوجب أن يكون المراد في الوسط العدالة. ورابعها: أن أعدل بقاع الشيء وسطه، لأنّ حكمه مع سائر أطرافه على سواء وعلى اعتدال، والأطراف

[1] الحديث مذكور في كتاب إحياء علوم الدين ج1 ص58.ونصه الكامل (عَلَيْكُمْ بِالنَّمَطِ الأَوْسَطِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ العَالي وَيَرْتَفِعُ إِلَيْهِ التَّالِي».

[2] مختار الصحاح محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي تحقيق محمود خاطر مكتبة لبنان ناشرون بيروت طبعة جديدة 1995م 1415هـ ص300.

يتسارع إليها الخلل والفساد والأوسط محمية محوطة فلما صح ذلك في الوسط صار كأنه عبارة عن المعتدل الذي لا يميل إلى جهة دون جهة.

وهنالك من يرى بأنّ الوسط من كل شيء خياره. وقالوا بأنّ هذا التفسير أولى من الأول أن لفظ الوسط يستعمل في الجمادات.. ووصف العدالة لا يوجد في الجمادات فكان هذا التفسير أولى. وهو مطابق لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .[1]

وهنالك من حمل المعنى على الأفضلية، استنادا إلى استعمال اللفظ في قولهم: فلان أوسطنا نسباً فالمعنى أنه أكثر فضلاً وهذا وسط فيهم كواسطة القلادة، وأصل هذا أن الاتباع يحوشون الرئيس فهو في وسطهم وهم حوله فقيل وسط لهذا المعنى.

بينما حمله آخرون على معنى الدين. وبذلك يجوز أن يكون وسطاً على معنى أنهم متوسطون في الدين بين المُفْرِطِ والمُفَرِّطِ والغالي والمقصر في الأشياء لأنهم لم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا ابناً وإلهاً ولا قصروا كتقصير اليهود في قتل الأنبياء وتبديل الكتب وغير ذلك مما قصروا فيه. وهذا ما جاء في تأويل معنى الوسطية بحسب الرازي.

[1] آل عمران الأية110.

ومهما يكن الأمر في حالاته الطبيعية فالمنطقة الوسطى هي المنطقة الآمنة، والتي يمكن للإنسان المكوث فيها تفاديا لكلّ المخاطر.

وقد أعطى القرآن وصفا للإنسان المؤمن الذين صحّ ايمانه واعتدل سلوكه في آيات أربع هي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .[1] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ .[2] وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .[3] وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .[4]

ويمكن تمثيل هذه الآيات في الجدول الآتي:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ	الَّذِينَ	آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ	وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ
			ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ
		إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ	
	إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ		

[1] الأنفال الآية2.

[2] النور الآية62.

[3] الحجرات الآية10.

[4] الحجرات الآية15.

وبقراءة هذا الجدول يلاحظ بأنّ الإيمان يتحدّد بالدرجة الأولى في عبادة الله عزّ وجلّ وفي طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .[1] واستفتاح هذه الآيات الأربع كان بـ "إنّما" وهي تفيد الحصر.[2] ومن ثمّة فسبل الإيمان في هذه الآيات محصورة في أمور. فمثلا في الآية الأولى يمكن تأويل الحصر على (ما المؤمنون إلاّ الذين أمنوا بالله ورسوله..) فحصر الإيمان واضح في الله ورسوله وما يتبع ذلك من معطيات. وكذلك الأمر في الآية الثالثة (ما المؤمنون إلاّ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم..). وفي الآية الرابعة (ما المؤمنون إلاّ إخوة..). فالإيمان محصور في هذه الآيات في عبادة الله وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام. ثمّ يأتي بعد ذلك كدرجة ثانية صدق النوايا والذي تمثّل في قوله (وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) فهذا بحسب قول الزمخشري[3] دليل على فزع قلوبهم لذكره استعظاماً له، وتهيباً من جلاله وعزّة سلطانه وبطشه بالعصاة وعقابه، وهذا الذكر خلاف الذكر في قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[4] لأن ذلك ذكر رحمته ورأفته وثوابه. وقيل: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فيقال له: اتق الله فينزع. أمّا ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ فذلك دليل آخر على أنّهم ازدادوا بها يقيناً وطمأنينة في نفس. لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه، وقد حمل على زيادة العمل.

---

[1] النور الآية51.

[2] ينظر معاني النحو ج1 ص299.

[3] ينظر الكشّاف ج2 ص552.

[4] الزمرالآية23.

كما أنّ الإيمان يزداد قوّة كلّما ازداد هامش العمل على إصلاح الأمور والتآخي والتقارب أكثر، وبذلك فسبل المسالمة تكون باتباع أوامر الله عزّ وجلّ ونواهيه.

كما جاءت كذلك في القرآن الكريم إشارات إلى الملامح العامة التي تربط المؤمن بالنجاح والفلاح بعد العمل على أداء مواصفات إيمانية محدّدة باعتدال سلوكه وتعامله الجيّد والطبيعي مع ما تمليه عليه علاقاته وظروفه اليومية وذلك في سورة المؤمنون بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ*الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ*الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ*فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ .[1] فمدخل الخطاب مبني على مفهوم التحقيق بـ "قد"، والشيء المحقق هو الفلاح، وذلك الفلاح يتحقّق ويتأكّد، كلّما عمل الإنسان على اتباع منهج معيّن محوره العام هو الحفاظ على النفس بترويضها من خلال سلوك قواعد متعدّدة، منها قوة التركيز في فعل العبادة والمحافظة عليه وذلك ما هو ظاهر في القول بالخشوع في الصلاة (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ). ثمّ جاءت الإشارة إلى ضرورة الابتعاد عن اللغو ومجالسه (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)، وكل من ابتعد عن الكلام الزائد الذي لا طائل منه زاد تركيزه على الأعمال الصالحة.

[1] المؤمنون الآيات من1 إلى9.

كما يلاحظ مما جاء في هذه الآيات الدعوة إلى مساعدة الآخرين بفعل الزكاة (الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ). مع الحفاظ على العرض (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) والمحافظة على العهود والمواثيق (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ). ومن لم يفعل ذلك فهو من المعتدين (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ). وكل هذه الأفعال مبدئيا لا تصدر إلاّ من شخص معتدل السلوك. كما يلاحظ على هذه التراكيب هو اعتمادها على الاسم الموصول "الذين" فهو يختص بجماعة الذكور ويختص بالعقلاء.[1] وسبب الخطاب بالاسم الموصول الغرض منه هو عدم التعيين؛ أي عدم تعيين المقصود بالفلاح ومن ثمّة ترك أبواب الإيمان والتوبة مفتوحة، وترك أبواب الوصف بالفلاح مفتوحة كذلك. كما يشير الاسم الموصول "الذين" إلى عدم الحصر وفي ذلك احتمال لأكبر عدد ممكن من المعنيين بالفلاح فكلّما كان عدد الموصوفين بالخشوع في الصلاة وغيرها من الأوصاف المذكور في الآية أكبر كلّما زاد عدد المفلحين والعكس في النقصان.

وفي باب المسالمة جاء الأمر على ضرورة أن يكون هذا المفهوم مبدئيا هو محور الإيمان كلّه ذلك أن المسالمة هي حديث كل مؤمن ومبتغاه حتّى مع غير المؤمنين فالسلم والمسالمة للجميع وبجب أن يقبل مبدئيا من الجميع وذلك لوجه الله لا غير ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ

[1] ينظر معاني النحو ج1 ص115.

فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .[1] فهذا نداء آخر للذين أمنوا (يأيها الذين آمنوا) فهو نداء أريد من خلاله كما قال أبو السعود في تفسيره بيان "حكم القتل بقسميه وأن ما يتصور صدوره عن المؤمن إنما هو القتل خطأ. شرع في التحذير عما يؤدي إليه من قلة المبالاة في الأمور (إذا ضربتم في سبيل الله)؛ أي سافرتم في الغزو ولما في إذا من معنى الشرط صدر قوله تعالى (فتبينوا) بالفاء؛ أي فاطلبوا بيان الأمر في كل ما تأتون وما تذرون ولا تعجلوا فيه بغير تدبر وروية وقرئ (فتثبتوا) أي أطلبوا إثباته. وقوله تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام) نهى عما هو نتيجة لترك المأمور به وتعيين لمادة مهمة من المواد التي يجب فيها التبيين. وقرئ السلم بغير ألف وبكسر السّين وسكون اللام؛ أي لا تقولوا بغير تأمّل لمن حياكم بتحية الإسلام أو لمن ألقى إليكم مقاليد الاستسلام والانقياد (لست مؤمنا).. وقرئ مؤمنا بالفتح؛ أي مبذولا لك الأمان وهذا انسب بالقراءتين الأخرتين ولاقتصاره على ذكر تحية الإسلام في القراءة الأولى مع كونها مقرونة بكلمتي الشهادة كما سيأتي في سبب النزول للمبالغة في النهى والزجر والتنبيه على كمال ظهور خطئهم ببيان أن تحية الإسلام كانت كافية في المكافة والانزجار عن التعرض لصاحبها فكيف وهي مقرونة بهما. وقوله تعالى (تبتغون عرض الحيوة الدنيا) حال من فاعل لا تقولوا منبئ عما يحملهم على العجلة وترك التأني لكن لا على أن يكون النهى راجعا إلى القيد فقط كما في

[1] النساء الآية94.

قولك لا تطلب العلم تبتغى به الجاه بل إليهما جميعا؛ أي لا تقولوا له ذلك حال كونكم طالبين لماله الذى هو حطام سريع النفاذ وقوله تعالى (فعند الله مغانم كثيرة) تعليل للنهى عن ابتغاء ماله بما فيه من الوعد الضمني كأنه قيل لا تبتغوا ماله فعند الله مغانم كثيرة يغنمكموها فيغنيكم عن ارتكاب ما ارتكبتموه وقوله تعالى (كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم) تعليل للنهى عن القول المذكور ولعل تأخيره لما فيه من نوع تفصيل ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم مع ما فيه من مراعاة المقارنة بين التعليل السابق وبين ما علل به.. وتقديم خبر كان للقصر المفيد لتأكيد المشابهة بين طرفي التشبيه وذلك إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة والفاء في فمن للعطف على كنتم؛ أي مثل ذلك الذى ألقى إليكم السلام كنتم أنتم أيضا في مبادى إسلامكم لا يظهر منكم للنّاس غير ما ظهر منه لكم من تحية الإسلام ونحوها فمنّ الله عليكم بأن قبل منكم تلك المرتبة وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر بالتفحّص عن سرائركم والفاء في قوله تعالى (فتبينوا) فصيحة أي إذا كان الأمر كذلك فاطلبوا بيان هذا الأمر البين، وقيسوا حاله بحالكم وافعلوا به ما فعل بكم في أوائل أموركم من قبول ظاهر الحال من غير وقوف على تواطؤ الظاهر والباطن هذا هو الذى تقتضيه جزالة التنزيل وتستدعيه فخامة شأنه الجليل.."[1]

[1] ينظر تفسير أبي السعود ج2 ص218.

ومن ثمّة فهي دعوة واضحة إلى مكارم الأخلاق، باحترام الإنسان للآخر وعدم الحكم عليه قبل معرفة طرق تفكيره. ومن هذا الباب مثلا وبمفهوم الآخر جاء سعي الإسلام إلى عدم التفرقة بين الأديان فالإسلام لا يفرّق بين الأنبياء والرسل ويرفع من مكانتهم ويعترف بكتبهم ولا يعتبرها إلاّ امتدادا للقرآن الكريم وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .[1] فهذا توكيد واضح على ضرورة الإيمان بكل الرسل وعدم التفرقة بينهم، فالقرآن الكريم هو استمرار للكتب والرسالات والتشريعات السابقة له. ومن اتبع طريق الإيمان بالله ورسله فهو موعود بالأجر وقد استعمل "سوف" في خطاب الوعد بالأجر، وهي حرف استقبال، واختصاصها يكون بالفعل المضارع، وتفيد البعد والتراخي. فدائما ما تدلّ على أنّ ما بعدها ليس بحاضر وقد علم وقوعه وانتظر إيّابه.[2] وفي ذلك إشارة إلى قدوم الثواب والأجر بعد أدائهم للمظاهر الإيمانية.

ويمكن بذلك القول بأنّ كلمة السّلام والمسالمة هي لسان حال كل إنسان طهر قلبه، فخلا من الأمراض والعلل، ليتسامى بذلك إلى أرفع الدّرجات وأعلاها، ليتصف بالمعرفة. ومن ثمّة التفوّق العقلي والمعرفي مع التواضع ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا

[1] النساء الآية152.

[2] ينظر معاني النحو ج4 ص21.

سَلَامًا ﴾ .[1] فالتواضع يدلّ عليه القول (يمشون هونا) والمعنى "أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع، لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً.[2] أمّ التفوّق العقلي فهو في القول ﴿سَلَاماً﴾ فهو تسلّم على الجاهلين. والجهل مثلما قال الراغب "عَلَى ثلاثَة أضْربٍ: الأوَّلُ: وهُوَ خُلُوُّ النَّفْسِ مِنَ العِلْمِ، هذا هُوَ الأصل، وقدْ جَعَلَ ذلكَ بعضُ المُتَكلِّمِينَ مَعْنىً مُقْتَضِياً للأَفْعَالِ الجارِيةِ عَلَى غير النّظام. والثاني: اعتِقاد الشيءِ بخِلافِ ما هُو عليه. والثالثُ: فِعْلُ الشيءِ بخلافِ ما حقَّهُ أَنْ يُفْعلَ سَواءٌ اعْتَقَدَ فيه اعْتِقاداً صحيحاً أو فَاسِداً".[3] ومن ثمّة فالجاهل هو من انحطّ مستواه العقلي وقصر تفكيره. وهو كما قال الزمخشري من "السفه وقلة الأدب وسوء الرعة".[4] وهذا ما يوحي بأنّ التسلّم هنا هو من باب التحية ومعناه الابتعاد عن الجاهلين وعدم الخوض في الحديث معهم أو عدم مجادلتهم. وقد نهى الله عن القعود مع الجاهلين الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ .[5] فقوله (فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ) بمثابة النهي والأمر الواضح بعدم مخالطتهم والبعد عن مجالستهم.

---

[1] الفرقان الآية63.

[2] ينظر الكشّاف ج4 ص367.

[3] مفردات في غريب القرآن ج1 ص102.

[4] الكشّاف ج4 ص367.

[5] النساء الآية140.

3. عدوانية الذين كفـــــروا:

ومن كان على النقيض من صفات الإيمان، فهو من الكافرين الذين يعلنون العداوة للناس ويستكبرون ويسخرون من غيرهم، ويدعون إلى التفرقة بين خلق الله وذلك ما جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.[1] فمدخل الخطاب مؤكّد بـ"إنّ" وهو توكيد على صفات الكفر. والتعبير عن صفات الكفر كان بالاسم الموصول "الذين" وبالأسلوب نفسه الذي عبّر به عن صفات الإيمان، والغرض هو نفسه؛ أي عدم التعيين والحصر. وعلى العموم فالتركيب العام لهذه الآية، هو معاكس لتركيب آية الإيمان السابقة، ففيه وصف للكافر غير المؤمن، الذي يفرّق بين الرسل، ويختار مواصفات إيمانه كما أراد هو، وليس بحسب ما تمليه عليه الأوامر الإلهية، فهذا بمثابة الإيمان الاختياري بحسب تفكيرهم. لتأتي الإشارة التوكيدية(أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا) فكلمة "حقّا" الغرض منها توكيد أحقية الكفر. أي "هم الكاملون في الكفر. و(حقاً) تأكيد لمضمون الجملة، كقولك: هو عبد الله حقاً، أي حق ذلك حقاً، وهو كونهم كاملين في الكفر، أو هو صفة لمصدر

[1] النساء150. 151.

الكافرين، أي هم الذين كفروا كفراً حقاً ثابتاً يقيناً لا شك فيه". بحسب قول الزمخشري.[1]

كما أنّهم يعلنون كرههم للغير ولمن يخالفهم الرأي والمعتقد وما هو مكنون من أحقادهم أكثر مما هو ظاهر ﴿قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .[2] فهذا تحقيق لظهور البغضاء (قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) والبُغْضُ بحسب الراغب هو "نِفارُ النفسِ عنِ الشيءِ الذي تَرْغَبُ عنه وهو ضِدُّ الحُبِّ فإنَّ الحُبَّ انجذابُ النفسِ إلى الشيءِ الذي تَرْغَبُ فيه".[3] فقد أظهروا كرههم وعداوتهم بأفواههم. وقد خصّ الله تعالى الأفواه بالذكر دون الألسنة بحسب ما رأى القرطبي "إشارةً إلى تَشدُّقهم وثَرْثَرَتهم في أقوالهم هذه، فهم فوق المتستّر الذي تبدو البغضاء في عينيه".[4] كما أنّ اللسان هو جزء من أجزاء الفم؛ فالفم أعمّ من اللسان. وكذلك فالمناسبة تقتضي ذكر الأفواه لأنّه مثلما قال الدكتور السامرّائي "إذا كان القول كبيرا عظيما ذكرت الأفواه وإذا كان أقل ذكرت الألسنة".[5] ومن ثمّة فالأمر هنا أعظم وأكبر، وعظمته تتمثّل في إظهار الكره والعداوة والبغضاء.

---

[1] الكشّاف ج2 ص171.

[2] آل عمران الآية118.

[3] مفردات في غريب القرآن ج1 ص44.

[4] تفسير القرطبي ج4 ص178.

[5] أسئلة بيانية في القرآن الكريم ص40.

وقد ركّز القرآن الكريم على مفهومي المتعة والأكل في وصفه للسلوك العام الذي يتميّز به الكافرون وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ .[1] فهذا بمثابة الإقبال على إشباع الرغبات، وعدم قدرته السيطرة على القوّة الشهوانية وضبطها وبذلك نزول الإنسان من إنسانيته إلى الحيوانية وذلك ما جاءت الإشارة إليه بـ"الأنعام". وكما هو ملاحظ في التركيب فهنالك تقديم لكلمة التمتّع على الأكل. والتمتعّ هو الانتفاع الممتدّ الوقت، والأكل هو تناول الطعام.[2] فالتمتّع بذلك أعمّ من الأكل، لأنّنا نقول يتمتّع بالأكل، ومن ثمّة فالأكل من الأشياء التي تصنع المتعة، فهو قد ذكر المتعة ثمّ ذكر بابا من أبوابها وهو الأكل. ثمّ جاء التشبيه بالأنعام في الأكل ولم يشبّه في المتعة. وذلك والله أعلم لأنّ المتعة شيء مخصوص بالإنسان فقط فالحيوان لا يتمتّع. "ثمّ إنّهم شبّهوا بالأنعام في أكلهم لأنّ أكلهم كان مجرّدا من الفكر والنظر، كما يقال للجاهل: يعيش كما يعيش البهيمة، لا يريد التشبيه في مطلق العيش، ولكن في لازمه".[3]

وبعكس ما هو موجود عند المؤمنين في تآخيهم وتصالحهم وتواضعهم، فالذين كفروا بعيدون كلّ البعد عن ذلك؛ بل هم مختلفون بتكبّرهم فلا يجتمعون على رأي واحد وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ

---

[1] محمد الآية12.

[2] ينظر مفردات في غريب القرآن مادة (متع) ومادة (أكل)ج1 ص20. ج2 ص461.

[3] ينظر تفسير البحر المحيط أبو حيان الأندلسي دار الفكر تفسير سورة محمد.

وَشِقَاقٍ﴾ .[1] فبداية الآية كانت بـ"بل" وهي حرف إضراب إمّا إبطالا أو انتقالا.[2] فدلالات لفظي العزّة والشقاق تشير إلى مفهومي القلة والتباعد لأن من دلالات "عزّ" القلّة والندرة والشقاق هو الخرم الذي يصيب شيء ما[3] وبذلك فهو بمثابة التصدّع والتفكك الذي يلحق كتلة معينة أو كيان معين فيبتعد به عن الوحدة والمتانة ومن ثمّة فالسمة العامة للمعتدين الكفار هي التفرّق والتكبّر. وقد اعطى القرآن الكريم تمثيلا لتلك التفرقة والشقاق حيث ظهر في تبادل التهم بين اليهود والنصارى في تكذيبهم لبعضهم البعض وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .[4] أي كل يتلو في كتابه تصديق ما كفر به، أي يكفر اليهود بعيسى، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى عليه السلام بالتصديق بعيسى عليه السلام، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى عليه السلام، من تصديق موسى عليه السلام، وما جاء به من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه.[5] وقد ذهب الزمخشري بأنّه هنالك "مبالغة عظيمة في القول فمعنى النفي في قولهم ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي على شيء يصح ويعتدّ به. وهذه

---

[1] ص الآية2.

[2] ينظر معاني النحو ج3 ص223.

[3] مفردات في غريب القرآن مادة "شق"ج1 ص264.

[4] البقرة الآية114.

[5] ينظر السيرة النبوية (سيرة ابن هشام) ابن هشام دار المعرفة ج3 ص86.

مبالغة عظيمة، لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء، فإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه. فقد بولغ في ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده. وهذا كقولهم: أقل من لا شيء".[1]

وقد صوّر لنا القرآن الكريم سلوك الذين كفروا المتجسّد في ردّة فعلهم اللغوية، وكيف كان قولهم في كلّ مرّة من خلال ردّهم على من يدعوهم إلى الابتعاد عن الكفر واتباع سبيل النجاة وكان ذلك في آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ .[2] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ .[3] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ .[4] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ .[5] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ

[1] ينظر الكشّاف ج1 ص311.
[2] مريم الآية73.
[3] العنكبوت الآية12.
[4] سبأ الآية3.
[5] سبأ7

اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ .[1] وقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ .[2]

ويمكن تلخيص أقوال الذين كفروا الواردة في هذه الآيات كالآتي:

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا	لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا
	لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
	لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ
	هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ
	لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
	لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ

فالمحور العام والقاسم المشترك بين الآيات السابقة هو كونها تشير إلى ما قاله الذين كفروا، وذلك ما هو ظاهر في مدخل الخطاب (قال الذين كفروا) **وكما هو ملاحظ فخطابهم في آيتين كان فيه نوع من الحوار مع الذين آمنوا** (قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا) **فهذا حوار ثنائي بين الكفر والإيمان كان في بدايته مقارنة من خلال أسلوب الاستفهام** (أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) **فـ"أيّ" استفهامية**[3] **لكن غرضها في هذا السياق هو المقارنة بين الأخير والأحسن في المقام والندى، فهي مقارنة تخصّ**

[1] سبأ31.

[2] فصّلت الآية26.

[3] ينظر معاني النحو ج4 ص219.

موضع الإقامة والمنزل. وتخصّ المجلس ومجتمع القوم حيث ينتدون. والمعنى أنهم إذا سمعوا الآيات وهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم، قالوا: أيّ الفريقين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أوفر حظاً من الدنيا حتى يجعل ذلك عياراً على الفضل والنقص، والرفعة والضعة. ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم.[1]

أمّا في آية الحوار بين الكفر والإيمان الثانية فيلاحظ دعوة الذين كفروا للذين آمنوا باتّباع سبيلهم. كما يلاحظ أسلوب الأمر في الخطاب على مرتين (اتبعوا، لنحمل) فالأوّل الغرض منه الدعوة، أمّا الثاني فهو مثلما فسّره الزركشي[2] أمر بمعنى الخبر والامر بمعنى الخبر ابلغ من الخبر لتضمنه اللزوم نحو ان زرتنا فلنكرمك يريدون تأكيد ايجاب الإكرام عليهم لأنّ الامر للإيجاب يشبه الخبر في ايجابه. والمعنى اتبعوا سبيلنا ونحن حاملون خطاياكم بدليل قوله إنهم لكاذبون، والكذب إنما يرد على الخبر.

ليأتي في الآية الثالثة مظهر من مظاهر الذين كفروا وهو تكذيبهم لقيام الساعة (لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ) فأسلوب النفي واضح وأداته "لا" فهذا مثلما قال الزمخشري "نفي للبعث وإنكار لمجيء الساعة. أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء

[1] ينظر الكشّاف ج4 ص47.

[2] البرهان في علوم القرآن ج2 ص290. ج3 ص351.

والسخرية".[1] وهو نفي لما هو مستقبل من الزمن (تأتينا) وأداته "لا" وهي أوسع في النفي من "لن" لأنّ زمنها أطول فتكون للحال والاستقبال والمضي، عكس "لن" التي تفيد نفي المستقبل فقط وحتى من الناحية الصوتية، فهي مطلقة أي أنّ صوتها ممدود غير محدود، أمّا "لن" فهي مقيّدة.[2] ومن ثمّة فنفيهم لإتيان الساعة كان في الماضي وما زال مستمرا في الحال والاستقبال.

لتستمرّ سخرية الذين كفروا وتكذيبهم بقيام الساعة فخطابهم (هل ندلّكم) فهو خطاب لبعضهم البعض فيما بينهم، على جهة التعجب والاستهزاء (على رجل) يعنون به النبي والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بذلك من باب التجاهل كأنهم لم يعرفوا منه إلا أنه رجل وهو عليه الصلاة والسلام عندهم أظهر من الشمس.[3] ولا تشير كلمة "رجل" إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فقط، بل هي تشير كذلك إلى كلّ إنسان عمل على تذكير الناس بقيام الساعة وأحوالها ولذلك جاءت نكرة وبلفظ عام لفك الارتباط بعاملي الزمن والمكان.

كما ركّزوا على كلمة (ينبّئكم) ولم يقولوا (يخبركم) فالنبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظنّ.[4] ولقد ذهب الدكتور فاضل صالح السّامرّائي[5] انطلاقا من تعريف الراغب للكلمة "نبأ" ومن خلال استعمال الكلمة

---

[1] الكشّاف ج5 ص106.

[2] ينظر معاني النحو ج4 ص69..

[3] روح المعاني ج22 ص109.

[4] مفردات في غريب القرآن مادة (نبا) ج2 ص481.

[5] ينظر أسئلة بيانية في القرآن ص203.

في القرآن إلى أنّ النبأ أهم من الخبر وأعظم منه. لكن إذا ما رجعنا إلى تفسير كلمة (خبر) عند الراغب "فهو العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر، وخبرته خبرا وخبرة وأخبرت أعلمت بما حصل لي من الخب.. وقيل الخُبرة المعرفة ببواطن الأمر".[1] ومن ثمّة يمكن القول بأنّ الخبر أقوى بكثير من النبأ في تحصيل المعلومة وفي دقّتها ويقينها. فالنبأ غير مؤكّد كالخبر وأبواب الاحتمال فيه كثيرة بين التصديق والتكذيب، والشك واليقين. فكلمة (نبأ) يمكن أن تشير إلى عظمة شأن المعلومة المقدّمة، لكن من حيث التوكيد والصحّة واليقين فالخبر أعظم، ولأكبر دليل على ذلك أنّه من أسماء الله تعالى "الخبير"، فهذا الاسم يرجع في دلالته إلى العلم بالأمور ما ظهر منها وما بطن.[2] وقد أشار الراغب إلى مفهوم الاحتمالية في كلمة "نبأ" بالقول "غلبة ظنّ". ولذلك قالوا (ينبّئكم) لعدم تصديقهم بما قدّم لهم من معلومات لعظمتها ولقيام الشكوك بشأنها. والمعلومة المقدّمة إليهم رأوا فيها وشبّهوها "بأعجوبة من الأعاجيب: أنكم تبعثون وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق، أي: يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد. أهو مفتر على الله كذباً فيما ينسب إليه من ذلك؟ أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه؟"[3]

---

[1] المصدر السابق مادة (خبر) ج2 ص141.

[2] ينظر المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى أبو حامد الغزالي تحقيق بسّام عبد الوهاب الجابي دار الجفان والجابي قبرص الطبعة الأولى 1987م 1407هـ ص103.

[3] الكشّاف ج5 ص108.

وفي الآيتين الأخيرتين إشارة إلى أقوالهم فيما يخصّ القرآن الكريم فهم كافرون به وزاوج التعبير عن كفرهم به بين أسلوبي النفي بـ"لن" (لن نؤمن) وأسلوب النهي بـ"لا" (لا تسمعوا) فهو نفي لعدم إيمانهم التام بالقرآن. ونهي واضح عن السماع والإنصات له، بل أمروا بالغو فيه (والغوا فيه). فهو أمر واضح مثلما قال أبو السعود بمعارضته "بالخُرافاتِ من الرجزِ والشعرِ والتصديةِ والمُكاءِ. أو ارفعُوا أصواتَكم بَها لتشوشُوه على القارئ".[1] كما أنّ كلمة (القرآن) كانت مسبوقة بالإشارة "هذا"[2] وهذا لزيادة تمييزه أكمل تمييز لإحضاره في ذهن السامع وزيادة التوكيد على المشار إليه.

ومن ثمّة فأقوال الذين كفروا كلّها عدوانية وتهدف إلى السخرية والاحتقار.

4. عدوانية النفاق:

لقد حدّد النبيَّ صلى الله عليه وسلم صفات المنافق في حديث له فقال: "أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كان مُنافِقاً خالصاً، وَمَنْ كانتْ فيهِ خَصْلةٌ مِنهنَّ كانتْ فيهِ خَصْلةٌ مِنَ النفاقِ حتى يَدَعَها: إذا ٱؤْتُمِنَ خان، وإذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فَجَرَ"[3] ومعنى هذا الحديث مثلما شرحه الإمام النووي "أن هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق

---

[1] تفسير أبي السعود ج8 ص2.

[2] ينظر شرح عقود الجمان ص17.

[3] صحيح البخاري ح1 ص21. صحيح مسلم ج2 ص39.

بأخلاقهم، فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس، لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر، ولم يرد النبيّ صلى الله عليه وسلم بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار. وقوله صلى الله عليه وسلم: «كان منافقاً خالصاً» معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال، قال بعض العلماء: وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه، فأما من يندر ذلك منه فليس داخلاً فيه، فهذا هو المختار في معنى الحديث. وقد نقل الإمام أبو عيسى الترمذي رضي الله عنه معناه عن العلماء مطلقاً فقال: إنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل. وقال جماعة من العلماء: المراد به المنافقون الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فحدثوا بإيمانهم وكذبوا واؤتمنوا على دينهم، فخانوا ووعدوا في أمر الدين ونصره فأخلفوا وفجروا في خصوماتهم، وهذا قول سعيد بن حبير وعطاء بن أبي رباح، ورجع إليه الحسن البصري رحمه الله بعد أن كان على خلافه. وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، ورويا أيضاً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. قال القاضي عياض رحمه الله: وإليه مال كثير من أئمتنا. وحكى الخطابي رحمه الله قولاً آخر أن معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال التي يخاف عليه أن تفضي به إلى

حقيقة النفاق".[1] وهي صفات أكثر ما فيها أذية الناس وكلّها إثم على النفس وظلم لها وعدوان على الغير.

وبالرغم من صعوبة معرفة الاتجاه الاعتقادي الذي يسير عليه المنافق ظاهريا، لمزاوجته بين الكفر والإيمان لأن فيه تضاد بين ما هو ظاهر في القول باللسان وبين ما هو مكنون في القلب ويصعب الاطلاع عليه﴿ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ .[2] فقولهم بالإيمان كان بأفواههم وقد سبق وأن أشرت إلى سبب ذكر الأفواه عوض الألسنة، لكن داخليا فهم غير مؤمنين وهو ما جاءت الإشارة إليه بالجزم بـ"لم" فهي نافية (لم تؤمن قلوبهم) فهي نافية لوجوه الإيمان في باطنهم الذي عبّر عنه بالقلوب. وقد حدّد القرآن الكريم في سياق آخر اتجاههم وميلهم الحقيقي الذي هو في قلوبهم، حيث يكون إلى الكفر والاعتداء وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ .[3] وكما هو ملاحظ فهنالك تقديم وتأخير في التركيب بتقديم كلمة "كفر" وتأخير لكلمة "أقرب" والأصل (هم أقرب الناس إلى الكفر) وفي ذلك تركيز على تحديد صفتهم الحقيقية، وكأنّ الآية هي إجابة عن سؤال مفاده (هل المنافقون كافرون أن مؤمنون) فجاء الردّ بالتركيز على محور السؤال والتأكيد على كفرهم وفعل

[1] شرح النووي لصحيح مسلم أبو زكريا يحيى بن شرف النووي دار إحياء التراث العربي بيروت الطبع الثانية 1392هـ ح2 ص48.

[2] المائدة الآية 41.

[3] آل عمران الآية167.

التفضيل للكفر واضح (أقرب). أكثر من إيمانهم لأنّ إيمانهم لا يتعدّى أن يكون مجرّد قول بأفواههم.

فهم مصدر العداوة الحقيقة لأنّ عداوتهم غير ظاهرة ولذلك حذّر الله منهم بقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ .[1]

فهذا كما قال الزركشي باب من أبواب "خطاب الجمع بلفظ المفرد".[2] في قوله (هم العدو) فالضمير (هم) ضمير جمع، والعداوة بالمفرد (عدو)، فلماذا ليس (هم الأعداء). يقال بأنّ العدو اسم جامع للواحد والاثنين والثلاث.[3] كما أنّ الخطاب هنا موجّه للمفرد سواء أكان هذا المفرد الرسول عليه الصلاة والسلام أو أي شخص آخر صلح أمره (وإذا رأيتهم تعجبك) وليس (وإذا رأيتموهم تعجبكم)، ومن ثمّة فهم أعداء لكم. وكذلك خطاب المفرد في (تسمع). فتركيز لفظ العداوة كان على الإفراد لأنّ المعني بها مفردا؛ والمعنى أنّك يمكن أن تنخدع في من يعجبك جسمه فلا تأخذ بالظاهر وخذ حذرك فكلّ من كانت فيه تلك الصفات فهو عدوّ لك. وفي ذلك مثلما قال الألوسي "استئناف أي هم الكاملون في العداوة والراسخون فيها فإن أعدي الأعادي العدو المداجي الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي ككثير من أبناء الزمان فاحذرهم لكونهم أعدي الأعادي ولا تغترن بظاهرهم..

---

[1] المنافقون الآية4.

[2] البرهان في علوم القرآن ج2 ص233.

[3] ينظر فتح القدير ج1 ص68.

فاحذرهم لأن التحذير منهم يقتضي وصفهم بالعداوة لا بالجبن، قاتلهم الله أي لعنهم وطردهم فإن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها وكذلك الطرد عن رحمة الله تعالى والبعد عن جنابه الأقدس منتهى عذابه عز وجل.. وذكر بعضهم أن قاتله الله كلمة ذم وتوبيخ وتستعملها العرب في موضع التعجب من غير قصد إلى لعن والمشهور تعقيبها بالتعجب نحو قاتله الله ما أشعره.. وهذا تعجيب من حالهم أي كيف يصرفون عن الحق إلى ما هم عليه من الكفر والضلال".[1]

5. القول الموجّه لأهل الكتاب:

كما وجّه الله سبحانه وتعالى عباده الصالحين إلى الطريقة الصائبة التي يتمكّنون بها من محاورة أهل الكتاب وأهل الكتاب هم أهل التوراة والإنجيل وهم اليهود والنصارى.[2] ومن ثمّة فهنالك آيات عديدة خصّت أهل الكتاب، لكن الآيات التي سنشير إليها هي التي فيها أمر بالقول كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.[3] وقوله: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ*قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا

---

[1] روح المعاني ج28 ص112.

[2] ينظرعون المعبود أبو الطيّب الفيروز آبادي دار الفكر ج8 ص293. وينظر التمهيد ابن عبد البر القرطبي مكتبة السوادي للتوزيع ج2 ص214.

[3] آل عمران الآية64.

اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .[1] وقوله: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .[2] وقوله: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .[3]

ويمكن تمثيل هذه الآيات في الجدول الآتي:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ	هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ
	لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
	لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ
	لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ
	تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

[1] آل عمران98. 99

[2] المائدة الآية59.

[3] المائدة77.

فالخطاب كما هو واضح موجّه لأهل الكتاب، وأسلوب النداء واضح (يا أهل الكتاب) لكن إذا ما تتبعنا الجدول بهذا الترتيب، نلاحظ بأنّ الخطاب بعد النداء يتميّز بتعدّد الأساليب فيه بين الاستفهام والنهي والدعوة. ففي الآيات الثلاث الأولى كان الأسلوب فيها استفهاميا. لكن هنالك ملاحظة تتعلّق بطبيعة هذا الاستفهام، فمثلا لو رجعنا إلى الآية الأولى فبدايتها كانت بـ"هل" وهي مبدئيا أداة استفهام تفيد التصديق لكنّها يمكن أن تخرج لتؤدّي معنى النفي، وهذا النفي ليس نفيا محضا بل هو استفهام أشرب معنى النفي، وقد يكون مع النفي التعجّب والاستنكار. كما أنّ الفائدة من خروج هل لمعنى النفي المقصود منه إشراك المخاطب في الأمر ليقرّر ويجيب بنفسه، ومن ثمّة فالمخاطب مدعوّ لأن يجيب فيشارك في إصدار الحكم.[1] فالآية الأولى تحمل معنى التعجّب والاستنكار من الحالة النفسية التي إليها أهل الكتاب بعد إيمان الناس، وهي أنّهم أصبحوا ناقمين وهذا باب من أبواب الحقد. كما إشراك المخاطب في الخطاب موجود حيث أنّ هامش الانتظار للحصول على جواب واصدار حكم محتمل ومبدئيا سيكون (نعم نقمنا..).

أمّا في الآيتين من آل عمران فهو استفهام والغرض منه كما قال القرطبي في تفسيره[2] توبيخهم والتعجّب من أمرهم.

---

[1] ينظر معاني النحو ج4 ص207 وما بعدها.

[2] تفسير القرطبي ج15 ص342.

وفي الآية الرابعة فالخطاب يعتمد على النهي (لا تغلوا) فـ"لا" حرف نهي وهي موضوعة لطلب الترك،[1] وهو تحتمل كذلك معنى الإرشاد والتوجيه والتعليم. والغلو هو تجاوز الحد.[2] ومن ثمّة فهو نهي عن تجاوز الحد في دينهم. "لأن الغلو في الدين نوعان: غلو حق، وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيده، وغلو باطل وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل، وذلك الغلو هو أن اليهود لعنهم الله نسبوه إلى الزنا. وإلى أنه كذاب، والنصارى ادعوا فيه الألوهية".[3]

ليأتي في الأخير أسلوب الدعوة واضحا (تعالوا..) وهي دعوة للتشاور والتحاور فالدعوة عامة مثلما قال صاحب فتح القدير[4] والسواء العدل. وقد تقرأ (إلى كلمة عدل بيننا وبينكم) فالمعنى أقبلوا إلى ما دعيتم إليه وهي الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميل عن الحق.

6. كيف نتصرف:

وقد زوّدنا القرآن الكريم بمجموعة من التعاليم التي نحتاجها في حياتنا العملية، خاصة في تعاملنا مع من حولنا من غير ديانتا ومعتقداتنا وعاداتنا. وأوّل الأوامر التي قدّمها لنا القرآن الكريم تخصّ عدم التفرقة بين الأنبياء ورسالتهم ودينهم وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى

[1] ينظر معاني النحو ج4 ص7.
[2] مفردات في غريب القرآن ج2 ص364.
[3] تفسير الرازي ج12 ص410.
[4] فتح القدير ج1 ص348.

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ .[1] فهذا هو الطريق الصواب للردّ على كلّ فرقة تريد الدعوة إلى دينها ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .[2] فهذا توضيح سابق لدعوة اليهود للدخول في ملّتهم (كونوا هودا) أو دعوة من النصارى لاتباع ملّتهم (أو نصارى) بحكم أنّهما ديانتان تسبّبان الهداية (تهدوا). والردّ واضح في سياق الآية (قل بل ملّة إبراهيم حنيفا) أي (بل اتبع ملّة..). وكما هو معروف فـ"بل" هي حرف إضراب[3] وهو في هذا السياق إضراب ابطالي؛ أي أنّ الجملة الثانية التي أتت بعد "بل" أبطلت الجملة الأولى التي كانت قبلها. ومن ثمّة فقد ابطل دعوتهم الأولى وقدّم لهم أخرى أقدم منهما لأنّ إبراهيم عليه السلام أقدم. وسُمِّيَ إبراهيم حنيفاً لأنه حَنِف إلى دين الله، وهو من الحَنَف ومعناه الميل أي ميله إلى الإسلام. وقيل من الحَنَف بمعنى الاستقامة فسمي حنيفا لاستقامته.[4] فالدين واحد وهو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[5] فهذا توكيد واضح وإشارة دقيقة إلى أنّ الاسلام هو الدين الذي أقرّه الله لعباده والدليل على ذلك كلمة (الدّين) جاءت مسبوقة بحرف التوكيد "إنّ"

---

[1] البقرة الآية136.

[2] البقرة135.

[3] ينظر معاني النحو ج3 ص223.

[4] ينظر معنى حنيفا تفسير القرطبي ج2 ص140.

[5] آل عمران الآية19.

وجاءت معرّفة بـ"ال" وهو يدل على الاستغراق[1]، أي أنّه يوجد دين واحد، فلا يشذ معنى ويوصف بـ (الدين) إلاّ وكان إسلاما. فالتعاليم الإلهية واحدة منذ وجود الإنسان في هذا الكون، ونادى بها كل الأنبياء والرسل، ولا فرق بينهم لقوله: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ . [2] وتواصلت معهم مثلما أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ*وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ . [3] فالتشريع متواصل ولا يعرف الاختلاف، فالمتغيّر هو حامل الرسالة المشرّعة فلا اختلاف بينهم. فعند الحديث عن منهج الرسالة الخاتمة مثلما قال صاحب كتاب المعجزة الكبرى "نرى صيغة الوحي بدل صيغة الوصية في الرسالات السابقة، ونرى كلمة (الذي) بدل كلمة (ما) في الرسالات السابقة، ونرى غياب اسم الرسول عليه الصلاة والسلام في الوقت الذي ذكرت فيه أسماء المرسلين السابقين.. وكلّ ذلك يتعلّق بكون القرآن الكريم

[1] ينظر معاني النحو ج1 ص100.

[2] البقرة الآية258.

[3] الشورى الآية13. 14

معجزة ومنهجا في الوقت ذاته، وبكونه رسالة للبشرية جمعاء، صالحة لكلّ زمان ومكان، وفيها تبيان لكلّ شيء..".[1]

ملاحظة أخرى تخصّ هذا الخطاب أنّه جاء بالاسم الموصول "ما" في شرائع الأمم الأخرى وهي اسم موصول مشترك يشترك في المفرد والمثنّى والجمع والمذكّر والمؤنّث، وجاء بـ"الذي" في شريعة سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهي اسم موصول مختصّ بالمفرد المذكّر[2] كما أنّ "الذي" أعرف من "ما" فلمّا كانت شريعة سيّدنا محمد أعرف من شرائع الأمم الأخرى لنا لأنّنا نعرفها كلّها جاء بـ"الذي" ولّما كانت شرائع الأمم الأخرى ليست بِمَنْزِلَةِ سيّدنا محمد، من حيث معرفتنا بها فإنّا نعلم ما أعلمنا به ربّنا في القرآن الكريم، جاء بـ"ما".[3]

بالإضافة إلى ذلك تواصل تعريف كلمة (الدين) وهذا توكيد واضح على مفهوم الاستغراق والعهدية في السياق وفي القرآن. فهنالك دين واحد.

ليأتي بعد ذلك ذكر مفهوم التفرقة وزمانها وأحوالها ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ وقد ذهب الرازي في تفسير إلى القول بأنّه "تعالى لما بيّن أنه أمر كل الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه، كان لقائل أن يقول: فلماذا نجدهم متفرقين؟ فأجاب الله تعالى عنهم بقوله ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا

[1] المعجزة الكبرى ص22.

[2] ينظر اسئلة بيانية في القرآن الكريم ص18.

[3] ينظر بلاغة الكلمة في القرآن ص14.

مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ يعني أنهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة، ولكنهم فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة فحملتهم الحمية النفسانية والأنفة الطَبْعِيَّة، على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب ودعا الناس إليه وقبح ما سواه طلباً للذكر والرياسة، فصار ذلك سبباً لوقوع الاختلاف، ثم أخب تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل، إلا أنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب، لأن لكل عذاب عنده أجلاً مسمى، أي وقتاً معلوماً".[1]

فهذه المعطيات تعدّ بمثابة الدلائل التي لا تدع أي شكّ وما على الإنسان إلاّ الإيمان ومن لم يؤمن فحسابه مع الله عزّ وجلّ وذلك ما جاء موضحا في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .[2] والمعنى فإن آمنوا مثل إيمانكم، وصدّقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا؛ فالمماثلة وقعت بين الإيمانيْن مثلما أشار إلى ذلك القرطبي.[3] فهذه الكلمات من الله إلى عباده المخلصين، وهذه الشهادة منه سبحانه، تسكب في قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه، فهو وحده المهتدي. ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المشاق للحق المعادي للهدى. ولا على المؤمن من شقاق من لا يهتدي

[1] تفسير الرازي ج26 ص601.

[2] البقرة137.

[3] تفسير القرطبي ج2 ص142.

ولا يؤمن، ولا عليه من كيده ومكره. ولا عليه من جداله ومعارضته. فالله سيتولاهم عنه، وهو كافيه وحسبه.[1]

ومن آداب الإنسان المسالم عدم اللجوء إلى السبّ وذلك ما هو موضّح في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .[2]

فالنهي عن السب واضح (ولا تسبّوا) والمنهي عن سبّهم هم (الذين يدعون من دون الله)؛ أي آلهة الكفّار المشركين. وكما هو ملاحظ فالآية فيها تركيز على الفعل ورد الفعل، ونحن بصدد الحديث عن سلوك الإنسان فهذا تأكيد على أنّ لكلّ فعل ردّة فعل، فالفعل هو السب ورد الفعل نفسه. ويتضح الفعل ورد الفعل من خلال أسلوب النهي وجوابه (ولا تسبّوا) نهي (فيسبوا) جوابه. فالسب لا يولّد إلاّ سبّا. وقد قال العلماء بأنّ حكم هذه الآية باق في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبي عليه السّلام أو الله عز وجل فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك لأنه بمنزلة البعث على المعصية.[3]

فسلوك الإنسان لن يستقيم إلاّ باللين وذلك ما وصّى به الله عزّ وجلّ ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ

[1] في ظلال القرآن تفسير سورة البقرة ج1.

[2] الأنعام الآية108.

[3] ينظر تفسير القرطبي ج7 ص61.

الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ .[1] فالتركيب (التي هي أحسن) مبني على الصلة والمعنى (الكلمة الأحسن) لكن تعريف الكلمة بالاسم الموصول "التي" يختصّ بالمفرد المؤنّث. وما يأتي بعده ضمير التأنيث للمفرد الغائب، وبعدهما اسم التفضيل "أحسن" وغالبا ما يدلّ اسم التفضيل على الزيادة في أصل الفعل.[2] والغرض البلاغي المراد من مثل هذا التشكيل اللغوي هو زيادة تقرير صفة الحسن في القول المراد. أمّا معنى الآية فهي مثلما قال سيّد قطب جاءت على "وجه الإطلاق وفي كل مجال. فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه.. بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة. فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت، وبالرد السيء يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء. والكلمة الطيبة تأسوا جراح القلوب، تندي جفافها وتجمعها على الود الكريم.. والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق، وتحفظ حرم الأخوة آمنا من نزغاته ونفثاته".[3]

وقمّة المسالمة باحترام النفس والغير تتجسّد في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .[4] فهذا مثلما قال الألوسي في تفسيره " أبلغ في الإنصاف حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلو عنها مؤمن بما يعبر به عن العظائم وأسند إلى النفس وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبر به

---

[1] الإسراء الآية53.

[2] ينظر معاني النحو ج4 ص267.

[3] في ظلال القرآن تفسير الاسراء.

[4] سبأ الآية25.

عن الهفوات وأسند للمخاطبين وزيادة على ذلك أنه ذكر الأجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك".[1] فهذه هي قمّة المهادنة والمسالمة.

7. النفـــع والضـــرّ:

من المفاهيم التي لها صلة مباشرة بالمسالمة والعدوانية مصطلحي النفع والضر، فغالبا ما يقترن لفظ النفع بالجانب المسالم، ولفظ الضر بالجانب العدواني، وقد جاء توجيه القرآن الكريم في هذا الباب واضحا في آيات يردّ بها كلّ من الصق به تصوّر إمكانية صدور الضر أو النفع منه وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .[2] وفي قوله: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ .[3] وفي قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ .[4]

وتفصّل هذه الآيات في الجدول الآتي:

---

[1] روح المعاني ج22 ص141.

[2] الأعراف الآية188.

[3] يونس الآية49.

[4] الجن الآية21.

قُلْ	لَا أَمْلِكُ	لِنَفْسِي	نَفْعًا وَلَا ضَرًّا	إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
			ضَرًّا وَلَا نَفْعًا	إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ
قُلْ إِنِّي		لَكُمْ		ضَرًّا وَلَا رَشَدًا

وبقراءة هذا الجدول وتفصيله لهذه التراكيب اللغوية التي تشترك في محور الرد على إمكانية تصوّر النفع والضرّ في الإنسان نلاحظ أنّ كل الآيات تبتدئ بأمر القول والآية الثالثة يضاف لها التوكيد، وفي ذلك إشارة إلى مرور فعل الإخبار إلى مرحلته الثانية والتي تتطلّب توكيد الخبر بأحد حروف التوكيد والذي تمثّل في الحرف "إنّ" وكما هو معلوم بلاغيا فالإنسان يحاج إلى توكيد خبره إذا تعرّض لعدم اقتناع المتلقي أو تكذيبه له.

الملاحظة الأخرى هي تركيز الآيات الثلاث على عدم إمكانية التملّك بالنفي المباشر "لا أملك"، ليأتي بعد ذلك التركيز على عدم إمكانية المنفعة أو الضر للنفس "لنفسي" وذلك أمر منطقي لأنّ من لم يستطع تقديم المنفعة لنفسه لا يمكنه أن يتعدّى بها لغيره لكن الاختلاف في التركيب بين الآيتين يتمثّل في التقديم والتأخير بين النفع والضر وكما هو معلوم كذلك من الناحية البلاغية دائما فالغرض الرئيس من التقديم والتأخير هو شدّة التركيز على أهمية اللفظ

المخبر به فالتركيز في الآية الأولى كان أكثر على المنفعة منه على الضر أمّا في الآية الثانية فالتركيز كان على الضر ولذلك قدّمت على المنفعة.

أمّا في الآية الثالثة والتي ظهر فيها التوكيد فالكلام فيها موجّه للغير "لكم" مع غياب لفظ المنفعة وذلك لأنّ المنفعة هي فعل من أفعال الخير ويجب على الإنسان أن يقوم بها إذا كانت له الإمكانية في أداء ذلك لغيره بمساعدتهم ولذلك جاء التركيز فقط على لفظ الضرّ لأنّ من تعاليم الدين الإسلامي أن لا يضرّ الإنسان أخاه، كما اقترن لفظ الضرّ بالرشد وله علاقة بتفكير الإنسان وعقله وطرق تعامله مع نفسه ولذلك فهو أمر خاص بالفرد نفسه ولا يمكن لأي إنسان أن يتدخّل في أنماط تفكير إنسان آخر. فالله هو الوحيد النافع والضار.

8. الإصـــــــرار:

الإصرار هو سمة أخرى نادى بها القرآن الكريم، خاصة في باب الدعوة إلى الحوار المسالم، وقد جاءت الإشارة ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ .[1] فهي دعوة إلى الإصرار لكن عبّر عنها بأسلوب النهي؛ أي النهي عن أكبر مثبّط للعزائم وهو الوهن (فَلَا تَهِنُوا)، والوهن معناه الضعف في العمل والأمر.[2] وهذا نهي واضح عن العجز والفشل، فكلّ من ضعف في عمله، فقد قلّ إصراره. فلا يجب على المسلم أن يقلّ إصراره خاصّة في عمله على

[1] محمد الآية35.

[2] لسان العرب مادة (وهن) ج13 ص453.

إشاعة السلم، وكلّ من عمل على ذلك فهو في سلّم أرقى من الحياة (وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ) فهذه إشارة إلى الرقي في سلّم الحضارة بالتفوّق الفكري العقلي. كما أنّه يوجد ربط واضح بين الإصرار والإيمان في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .[1] فأسلوب الشرط في الخطاب في قوله (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الغرض منه ربط الإيمان بمفاهيم الإصرار والوهن لأنّ أداته "إنْ" تستعمل غالبا في المعاني المحتملة الوقوع، وهي لتعليق أمر بغيره.[2] وهذا تعليق للإصرار بالإيمان.

9. <u>بين العفو والصفح</u>:

وسلوك الإنسان المستقيم له مظهر آخر تنادي به البرية ألا وهو التسامح. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المفهوم في عديد آياته، بل عبّر عنه بأجمل طريقة وفي قمّة ظهوره. فمثلا جاءت الإشارة إليه بلفظ العفو والصفح وذلك في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .[3] فهذه هي قمّة المسالمة، وهذه هي ذروة التسامح أن يواجه الإنسان كلّ هذه الحالات العدوانية كنقض المواثيق (نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ) والخيانة (خَائِنَةٍ مِنْهُمْ) بالعفو والصفح (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ) ودائما مع دلالة

---

[1] آل عمران الآية139.

[2] ينظر معاني النحو ج4 ص59.

[3] المائدة الآية13.

"الفاء" في الخطيب فهي تشير إلى السرعة في أداء الفعل، ومن ثمّة السرعة في العفو والصفح. كما يلاحظ أسبقية العفو على الصفح في التركيب. وفي ذلك حكمة. فالعفو كما قال الراغب يحمل معنى إزالة الذنب والانصراف والتجافي عنه. أمّا الصفح فهو ترك التثريب وصفحت عنه معناه أوليته صفحة جميلة بالإعراض عن ذنبه بتجاوز الصفحة التي أثبت فيها ذنبه. ويرى الراغب كذلك بأنّ الصفح أبلغ من العفو.[1] ويمكن شيء آخر على ما قاله الراغب، وهو أنّ الصفح ليس أبلغ من العفو فقط، بل هو متمّم له. فمجيء الصفح بعد العفو ليس من باب الترقّي من البليغ إلى الأبلغ، فهنالك دلالة أخرى وهي أنّ فعل الصفح هو الفعل الذي يأتي كفعل مكمّل للعفو، وهو كقولنا الآن عفوت وسامحت فافتح صفحة جديدة في علاقاتك.

وقد استعمل لفظ الصفح في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾.[2] وهنالك رواية تنسب إلى علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ تساءل الرسول صلى الله عليه وسلّم عن معنى هذا القول فقال: «يا جبريل، وما الصفح الجميل؟» قال عليه السلام: «إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه» فقال: «يا جبريل فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه» فبكى

[1] مفردات في غريب القرآن مادة (عفا) ومادة (صفح).

[2] الحجر الآية85.

جبريل وبكى النبي، فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال: إنّ ربكما يقرئكما السلام ويقول: كيف أعاتب من عفوت عنه، هذا ما لا يشبه كرمي.[1] وقد تكرّر الأمر بالصفح في قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ .[2] فهذا اقتران واضح بين الصفح والمسالمة، وتزاوج رائع بين التسامح في مفهوم الصفح والتحيّة الآمنة الآذنة بالابتعاد بمفهوم السلم.

10. بين الإعراض والتولّي:

صفة أخرى تدخل في باب السلوك المسالم لأنّها تشير إلى عدم المواجهة بالابتعاد وضبط النفس. وقد كان التعبير عن ذلك بأفعال ثلاثة (أعرض، تولّ وذرهم) فالفعل الأوّل ورد في آيات ثلاث قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ .[3] فهذه الآية جاءت في معرض الحديث عن المنافقين، في إعراضهم وتولّيهم، ولذلك الأمر والتوجيه بالابتعاد وبسرعة وذلك لربطه الخطاب بـ"الفاء" (فَأَعْرِضْ) ومعنى أعرض بحسب الراغب "أَظْهَرَ عَرْضَهُ أَي ناحِيَتَهُ. فإذا قيلَ أَعْرَضَ لِي كذا أي بَدا عَرْضُهُ فأَمْكَنَ تَنَاوُلُهُ، وإذا قيلَ أَعْرَضَ عَنِّي فَمَعْنَاهُ وَلّى مُبْدِياً عَرْضَه".[4] لكن الآية لا تتوقف عند الإعراض فقط بل هنالك أمر آخر يتمثّل في العمل على وعظهم

---

[1] إحياء علوم الذين ج4 ص127.

[2] الزخرف الآية89.

[3] النساء الآية63.

[4] مفردات في غريب القرآن ج2 ص330.

بالقول البليغ، لأنّ احتمال رجوعهم إلى جادة الصواب ما زال قائما. وتكرّر اللفظ في قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ﴾ .[1] فسياق الآية يشير إلى اختلافهم بالرّغم ممّا شاهدوه من آيات مقنعة سواء تعلّق الأمر بأسرار هذا الكون أو بما لحق الناس من عقاب وهلاك بعد طغيانهم. ولكنّهم لم يقتنعوا بكلّ تلك العلامات والدلائل فأمرهم مقضي وحالتهم ميؤوس منها، فهم ينتظرون إلاّ عقابهم ولذلك توقفت الآية عند (وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ) أي لا داعي للخوض معهم في الحديث فعقابهم قادم. ثمّ جاء ذكر الإعراض للمرة الثالثة في قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ .[2] أمّا هذه الآية فهي في باب الحديث عن من يتّبعون الظن دون علم فهي على صيغة الأمر(فَأَعْرِضْ عَنْ)، لكن من خلال السياق الذي جاءت فيه فهو أمر الغرض منه التوجيه إلى الحلول الممكنة. فالأمر واضح بالإعراض "أعرض عن دعوة من رأيته معرضاً عن ذكر الله وعن الآخرة ولم يرد إلا الدنيا، ولا تتهالك على إسلامه، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي إنما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب، وأنت لا تعلم، فخفض على نفسك ولا تتعبها، فإنك لا تهدي من أحببت، وما عليك إلا البلاغ.

[1] السجدة الآية30.

[2] النجم الآية29. 30

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ اعتراض أو فأعرض عنه ولا تقابله، إنّ ربك هو أعلم بالضال والمهتدي، وهو مجازيهما بما يستحقان من الجزاء".[1]

وقد عبّر عن مفهوم الابتعاد بلفظ التولّي وذلك في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ .[2] فهو حديث عن القوم الطاغين فأمره بالتولّي لأنه أدّى ما عليه من تبليغ الرسالة، والتولي يشير إلى الاقتراب والدنو[3] لكن باقترانها مع "عن" انتقل معناها إلى المعنى العكسي؛ أي الابتعاد. كما عبر عن الابتعاد بلفظ (درهم) كقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ .[4] أي إذا تبين أنهم لا يرجعون فدعهم حتى يلاقوا.

11. خاتمة القول والفعل:

خاتمة القول بين الحوار المسالم والرد العدواني أجمله القرآن في قوله تعالى ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ .[5] فهو قول يشير إلى قمّة الحرية الفردية وحتى الجماعية في الاختيار بين المعتقدات وهو أمر واضح بالرد على الكافرين بالجمع وبأسلوب النداء (قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ) وكما

---

[1] الكشّاف ج5 ص644.

[2] الذاريات الآية54.

[3] القاموس المحيط للفيروز آبادي مؤسّسة الرسالة 1993 مادة "ولي".

[4] الطور الآية45.

[5] سورة الكافرون.

هو ملاحظ فالغرض من النداء هو لفت انتباه الكافرين إلى الأوامر التي ستأتي في معرض الخطاب. فالمخاطبون مثلما أشار إلى ذلك الزمخشري[1] كفرة مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون.. ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾فهو نفي للعبادة من الحال وأريدت به العبادة فيما يستقبل، لأنّ (لا» لا تدخل إلاّ على مضارع في معنى الاستقبال والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ أي: وما كنت قطّ عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه يعني: لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته. فإن قلت: فهلا قيل: ما عبدت، كما قيل: ما عبدتم؟ قلت: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث، وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت. فإن قلت: فلم جاء على «ما» دون «من»؟ قلت: لأن المراد الصفة، كأنه قال: لا أعبد الباطل، ولا تعبدون الحق. وقيل: إن «ما» مصدرية، أي: لا أعبد عبادتكم، ولا تعبدون عبادتي ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ لكم شرككم، ولي توحيدي. والمعنى: أني نبيّ مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني، فدعوني كفافاً ولا تدعوني إلى الشرك. وهذا تناسق واضح في التعبير على الحال في قوله تعالى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ

[1] ينظر الكشّاف ج6.

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .[1] فأمر الإيمان لم يُقم على القسر والإجبار بل على الرغبة والقناعة في الاختيار.

[1] البقرة الآية256.

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمه الصالحات، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فبعد مصاحبة بلاغية لآيات القرآن الكريم الذي لا تنتهي عجائبه لقوّة إعجازه. وبعد ما عشته في دراسة كتب علماء لم يبخلوا بجهدهم وفكرهم في تأليف مصنّفات عظيمة هدفها هو خدمة كتاب الله العزيز الكريم، وكانت مصنّفاتهم في باب تفسير القرآن الكريم وفي باب علومه. فقد آن الأوان لهذه الرحلة العلمية البلاغية مع هذه الرسالة أن تنتهي.

وقد درست الموضوع من جوانب متعدّدة انطلاقا من المستوى اللفظي مرورا بالمستوى التركيبي ووصولا عند المستوى الأسلوبي مع إعطاء هذه المستويات بعدا بلاغيا ونفسيا سلوكيا وعمليا بالدرجة الأولى.

ولقد استفدت كثيرا من هذا العمل، وأرجو أن يكون هذا البحث عائدا بالفائدة على كلّ من اطّلع عليه.

وقد كان لهذا البحث نتائج عملية هي كالآتي:

- أنّ بلاغة القرآن الكريم هي مجال رحب للدراسات والبحوث البلاغية والعلمية العملية الراقية.
- ضرورة أن يكون الباحث عمليا أكثر في البحث البلاغي بمنهج تطبيقي وهو منهج يعتمد فيه على التحليل بالدرجة الأولى.

- أظهر البحث بأنّ المزاوجة بين سمات المسالمة والعدوانية والتي كانت ظاهرة في السلوك اللفظي لشخصيات قصص القرآن الكريم لدليل آخر على عظمة إعجازه. فاختلاف دلالة الألفاظ بين دلالتها على المسالمة أو دلالتها على العدوانية ككلمة "القتل" أو كلمة "النصح" راجع إلى السياق والحدث الذي ذكرا فيه فالحدث هو الذي يفرض عليهما إن كانت دلالتهما مسالمة أم عدوانية. والأمر ينطبق كذلك على الأساليب البلاغية المختلفة كالقسم والتوكيد.. وغيرهما من أساليب.

- دور السياق كان واضحا في تحقيق وتحديد الدلالة بين مسالمة وعدوانية وذلك انطلاقا من ترابط الآيات وتجاورها.

- أبان البحث عن اهتمام أكبر بطرق النظم في القصّة القرآنية بجانبيها البلاغي والسلوكي.

- برز في البحث كذلك العودة إلى موضوع أسرار التكرار في القرآن ودوره في إظهار بعض الملامح البلاغية والسلوكية.

- اهتم البحث بمسألة ترتيب الألفاظ بين تقديم وتأخير وهو دليل آخر على إعجاز القرآن الكريم. وقد درست هذه السمة سابقا في كتب علوم القرآن خاصة وأعيدت دراستها بلمسات وببعد تجديدي من طرف الدكتور فاضل صالح السامرائي في عديد كتبه.

- أمّا من الناحية السلوكية فقد بيّن لنا البحث بأنّ القرآن الكريم هو أفضل منهج صالح لتعديل سلوك الإنسان بل تغييره إلى الأحسن.

وهذه هي أبرز النتائج المتوصّل إليها، مع وجود نتائج أخرى فرعية برزت في أثناء معالجة الجوانب البلاغية المختلفة.

وبعد فهذا جهد بسيط لم أرد من خلاله إلاّ أن أكون خادما للقرآن الكريم عاملا على فهمه. وأرجو أن أكون قد أسهمت في طرق باب من أبواب الدراسة البلاغية السلوكية.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يوفّقني في خدمة هذا الدين ويجعل كلّ أعمالي خالصة لوجهه الكريم.

والحمد لله ربّ العالمين

والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الأمين.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

1. اتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن محمد بن محمد الغزي تحقيق خليل محمد العربي دار الفاروق الحديثة القاهرة الطبعة الأولى 1415هـ
2. أحكام القرآن أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص تحقيق محمد الصادق قمحاوي دار إحياء التراث العربي بيروت 1405هـ.
3. الأحكام علي بن أحمد بن حزم الأندلسي أبو محمد دار الحديث القاهرة 1404هـ.
4. الأحكام في أصول الأحكام ابن حزم الأندلسي الظاهري دار الكتب العلمية.
5. أسرار التكرار في القرآن محمود بن حمزة بن نصر الكرماني تحقيق عبد القادر بن احمد عطا دار الاعتصام القاهرة الطبعة الثانية 1396هـ
6. الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان د. إبراهيم فريد الدر منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ط1 1403هـ 1983مـ.
7. الإسلام والفطرة "تأمّلات تكشف الترابط الوثيق بين الآيات القرآنية والآيات الكونية" محمد زكي الدين محمد قاسم دار الصفوة القاهرة الطبعة الأولى.
8. أسئلة بيانية في القرآن الكريم الدكتور فاضل صالح السامرائي مكتبة الصحابة الشارقة الطبعة الأولى 1429هـ 2008م.
9. أصول السرخسي أبو سهل السرخسي دار الكتب العلمية 1993
10. الاضطرابات السلوكية والانفعالية د. خولة أحمد يحيى دار الفكر الأردن 1421هـ 2000م ط1.

11. إعلان الأمم المتحدة بشأن الألفية/(الجمعية العامة 24أكتوبر2005) الدورة الستون البند 64 جدول الأعمال 1/60.

12. الإعلانات والاتفاقيات الواردة في قرارات الأمم المتحدة (الجمعية العامة13سبتمبر2000) الدورة الخامسة والخمسون البند 60(ب) جدول الأعمال 2/55.

13. الانحرافات السلوكية (الأسباب والعلاج) صباح عبّاس دار البيان العربي بيروت 1414هـ1993م ط1

14. الإنسان ذلك الكائن الفريد جون لويس ترجمة د. جواد صالح الكاظم الهيئة المصرية للكتاب 1982

15. الإنسان ذلك المعلوم د. عادل العوّا منشورات عويدات بيروت 1982م ط2

16. الإيضاح في علوم البلاغة جلال الدين بن عمر القزويني دار إحياء العلوم بيروت الطبعة الرابعة 1998.

17. البداية والنهاية إسماعيل بن عمر بن كثير مكتبة المعارف بيروت.

18. بدائع الصنائع علاء الدين أبو بكر الكاساني دار الفكر.

19. البرهان في علوم القرآن الزركشي ت: محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعرفة بيرت 1391ه.

20. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي تحقيق محمد علي النجار المكتبة العلمية بيروت.

21. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني الدكتور فاضل صالح السامرّائي شركة العاتك القاهرة الطبعة الثانية 1427هـ 2006م .

22. بنو الإنسان (عالم المعرفة العدد 67)بيتر فارب ترجمة زهير الكرمي المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1983

23. البنية النفسية عند الإنسان يونغ ترجمة د. نهاد خياطة دار الحوار حلب 1994.

24. تأسيس ميتافيزيقا إيمانويل كانط ترجمة د. عبد الغفّار مكاوي الهيئة المصرية العامة للكتاب ط2

25. تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة المكتبة العلمية.

26. التبيان في تفسير غريب القرآن شهاب الدين بن أحمد تحقيق د. فتحي أنور الدابولي دار الصحابة للتراث بطنطا القاهرة الطبعة الأولى1992.

27. التصوير الفني في القرآن سيّد قطب دار الشروق القاهرة الطبعة الشرعية السادسة عشرة 1423هـ 2002م.

28. التعبير القرآني الدكتور فاضل صالح السامرّائي دار عمار عمان الأردن الطبعة الرابعة 1427هـ 2006م.

29. التعريفات علي بن محمد بن علي الجرجاني تحقيق إبراهيم الأبياري دار الكتاب العربي بيروت 1405هـ ط1.

30. تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم) أبو السعود العمادي دار إحياء التراث العربي بيروت.

31. تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي دار الفكر.

32. تفسير البغوي (معالم التنزيل) أبو محمد الفراء البغوي تحقيق خالد العك ومروان سوار دار المعرفة بيروت الطبعة الثانية 1987م 1407هـ.

33. تفسير البيضاوي تحقيق عبد القادر عرفات العشّا حسّونة دار الفكر بيروت 1416هـ 1996م.

34. تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت

35. تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) الفخر الرازي دار إحياء التراث العربي

36. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) أبو عبد الله القرطبي تحقيق أحمد عبد الحليم البردوني دار الشعب القاهرة الطبعة الثانية 1372هـ

37. تفسير الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض مكتبة العبيكان الرياض الطبعة الأولى 1418هـ 1998م

38. تكنولوجيا السلوك الإنساني (عالم المعرفة العدد 32) سكينر ترجمة عد القادر يوسف المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1980.

39. التمهيد ابن عبد البر القرطبي مكتبة السوادي للتوزيع.

40. التمهيد لابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب 1387هـ.

41. تهذيب الأخلاق أبو عمر بن بحر الجاحظ علّق عليه أبو حذيفة إبراهيم بن محمد دار الصحابة للتراث مصر الطبعة الأولى 1410هـ 1989م.

42. التوفيق على مهمات التعاريف محمد عبد الرؤوف المناوي تحقيق محمد رضوان الداية دار الفكر المعاصر بيروت 1410هـ ط1.

43. ثلاثة مباحث في نظرية الجنس ترجمة جورج طرابيشي دار الطليعة بيروت ط1 1981.

44. الجانب العاطفي من الإسلام (بحث في الخلق والسلوك والتصوّف) محمد الغزالي دار الدعوة الإسكندرية 1410هـ 1990م ط1

45. جماليات القصّة القرآنية د. يوسف حسن نوفل دار الشروق القاهرة الطبعة الأولى1424هـ 2003م.

46. الحب والحرب والحضارة والموت ترجمة د. عبد المنعم الحفني دار الرشاد القاهرة الطبعة الأولى 1412هـ 1992م.

47. حجج القرآن أبو الفضائل أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي دار الرائد العربي بيروت الطبعة الثانية 1982.

48. حروف المعاني أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجّاجي تحقيق علي توفيق الحمد مؤسّسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى 1984م.

49. حرية من الأفكار الخاطئة لجي هندريك أرنولد ترجمة داليا وهيب PTW نيويورك 1997.

50. الحسد محمد متولي الشعراوي مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة.

51. الخصائص أبو الفتح عثمان ابن جني تحقيق محمد علي النجار عالم الكتب بيروت.

52. الدافع الجنسي ثيودور رايك ترجمة ثائر ديب دار الحوار سوريا الطبعة الأولى 1992م.

53. الدافعية والانفعال إدوارد ج موراي ترجمة د. أحمد عبد العزيز سلامة دار الشروق القاهرة الطبعة الأولى 1408هـ1988م.

54. دراسة طبية ونفسية عن بيولوجيا الجهاز العصبي والسلوك أثناء الصوم للدكتور: رامز طه محمد استشاري الطب النفسي - رئيس وحدة بمستشفى الطب النفسي بالكويت.

55. دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد التنجي دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثالثة 1420هـ 1999م.

56. ذاكرة الإنسان (بنى وعمليات على ضوء منهجية علم النفس المعرفي) روبرتا كلاتسكي ترجمة د. جمال الدين الخضور منشورات وزارة الثقافة سورية 1995.

57. رصف المباني في شرح حروف المعاني أحمد بن عبد النور المالقي تحقيق أحمد محمد الخراط مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

58. روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني أبو الفضل محود الألوسي دار إحياء التراث العربي بيروت.

59. زاد المسير في علم التفسير عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثالثة 1404ه.

60. السلوك الإنساني د. انتصار يونس دار المعارف 1993.

61. سنن أبي داوود سليمان أبو داوود تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الفكر.

62. سنن البيهقي الكبرى أحمد بن الحسن أبو بكر البيهقي تحقيق محمد عبد القادر عطّا مكتبة دار الباز مكّة المكرّمة 1994م 1414هـ.

63. سنن الترمذي محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي تحقيق أحمد محمد شاكر دار إحياء التراث العربي بيروت.

64. سنن الدارمي أبو محمد الدارمي تحقيق أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي دار الكتاب العربي الطبعة الأولى بيروت 1407هـ.

65. السنن الكبرى أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1991م1411هـ.

66. السيرة الحلبية برهان الدين الحلبي دار المعرفة.

67. السيرة النبوية (سيرة ابن هشام) ابن هشام دار المعرفة.

68. سيكولوجية العدوان (بحوث في ديناميكية العدوان لدى الفرد الجماعة الدولة) فرويد، لورنز، ولترز، ميلر وآخرون ترجمة عبد الكريم ناصف دار منارات للنشر الردن الطبعة الأولى 1986.

69. الشخصية مقوّماتها سلوكها وعلاقتها بالتعلّم د. توما جورج خوري المؤسسة الجامعية للدّراسات والنشر والتوزيع بيروت الطبعة الأولى 1996م1417هـ.

70. شرح الزرقاني محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1411هـ.

71. شرح النووي على صحيح مسلم أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرّي النووي دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الثانية 1392هـ.

72. شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي دار الفكر بيروت لبنان.

73. شرح عمدة الأحكام تقي الدين أبي الفتح ابن دقيق العيد دار الكتب العلمية بيروت.

74. شرح قطر الندى أبو محمد بن هشام الأنصاري تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة الطبعة الحادية عشر 1383هـ.

75. شرطي التعريف في فضل جملة العلم الشريف محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن عبد الله دار المنهاج جدّة الطبعة الأولى 1997م.

76. الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس.

77. صحيح ابن حبّان محمد بن حبّان تحقيق شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت1993م 1414هـ.

78. صحيح البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله دار إحياء التراث العربي.

79. صحيح مسلم مسلم بن الحَجَّاج بن مسلم القشَيري النيسابوري أبو الحسين دار الكتب العلمية 1992.

80. ظلال القرآن سيّد قطب دار الشروق القاهرة الطبعة الشرعية الحادية عشر 1402هـ 1986م.

81. العلاج السلوكي للطفل (أساليبه ونماذج من حالاته) عالم المعرفة العدد 180 الدكتور عبد الستّار إبراهيم والدكتور عبد العزيز بن عبد الله الدخيل والدكتور رضوان إبراهيم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1993.

82. عون المعبود أبو الطيّب الفيروز آبادي دار الفكر.

83. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير محمد بن علي بن محمد الشوكاني دار الفكر بيروت.

84. الفروق اللغوية بو هلال العسكري تحقيق محمد إبراهيم سليم دار العلم والثقافة القاهرة.

85. الفطرة فتح الباري ابن حجر أبو الفضل العسقلاني تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب دار المعرفة بيروت 1379هـ.

86. الفطرة مرتضى المطهري ترجمة جعفر صادق الخليلي مؤسّسة البعثة بيروت الطبعة الثانية 1412هـ 1992م.

87. الفواكه الدواني أحمد بن غنيم بن سالم النفراوي المالكي دار الفكر بيروت 1415هـ.

88. القاموس المحيط محمد أشرف العظيم آبادي مؤسسة الرسالة 1993.

89. قصص الأنبياء ابن كثير دار ابن زيدون بيروت.

90. الكافي في فقه ابن حنبل عبد الله بن قدامة المقدسي أبو محمد تحقيق زهير الشاوش المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الخامسة 1988م 1408.

91. كتاب الحيوان للجاحظ.

92. كتاب الفكر الأخلاقي المعاصر جاكلين روس ترجمة د. عادل العوا دار عويدات للنشر والطباعة بيروت الطبعة الأولى 2001م.

93. كتاب حجج القرآن لأبي الفضائل أحمد بن محمد بن المختار الرازي تحقيق أحمد عمر المحمصاني دار الرائد العربي بيروت الطبعة الثانية 1982.

94. كتاب فكر فرويد إدغار بيش ترجمة جوزيف عبد الله المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر الطبعة الأولى 1986م.

95. كتب ورسائل وفتاوى ابن للفقه أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس تحقيق عبد الرحمن محمد قاسم العاصمي النجدي الحنبلي مكتبة ابن تيمية.

96. كشّاف القناع منصور بن يونس بن إدريس البهوتي تحقيق هلال مصيلحي مصطفى هلال دار الفكر بيروت 1402.

97. لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري دار صادر بيروت ط1.

98. المبدع إبراهيم بن مفلح الحنبلي أبو إسحاق المكتب الإسلامي بيروت 1400هـ.

99. مختار الصحاح محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي تحقيق محمود خاطر مكتبة لبنان ناشرون بيروت طبعة جديدة 1995م 1415هـ

100. مختصر شعب الإيمان للبيهقي عمر بن عبد الرحمن القزويني أبو المعالي تحقيق عبد القادر الأرناؤوط دار ابن كثير دمشق 1405 ط2.

101. المدخل إلى نظام المجموعات عالم سبيط النيلي.

102. مسند أبي عوانة يعقوب بن إسحاق الأسفرائني أبو عوانة دار المعرفة بيروت.

103. مصنّف ابن أبي شيبة أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي تحقيق كمال يوسف الحوت مكتبة الرشد الرياض 1409هـ ط1.

104. معاني الأبنية في العربية الدكتور فاضل صالح السامرّائي دار عمار عمان الأردن الطبعة الثانية 1428هـ 2007م.

105. معاني القرآن أبو جعفر النحاس تحقيق محمد علي الصابوني جامعة أم القرى مكة الطبعة الأولى 1409هـ.

106. معاني النحو الدكتور فاضل صالح السامرّائي شركة العاتك القاهرة الطبعة الثانية 1423هـ 2003م.

107. معاني النحو الدكتور فاضل صالح السامرائي شركة العاتك القاهرة الطبعة الثانية 1423هـ 2003م.

108. معجزة القرآن محمد متولّي الشعراوي دار أخبار اليوم إدارة الكتب والمكتبات

109. المعجزة الكبرى (معجزة إحدى الكبر) عدنان الرفاعي دار الخير دمشق الطبعة الأولى 2006م.

110. معجم علم النفس والتربية مجمّع اللغة العربية مصر الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية 1984.

111. المغني عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد دار الفكر بيروت 1405 ط1.

112. مفردات في غريب القرآن الراغب الأصفهاني البابي الحلبي مصر.

113. المفصل في صنعة الإعراب أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري تحقيق علي أبو ملحم دار ومكتبة الهلال بيروت الطبعة الأولى 1993.

114. المقدمة عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون دار إحياء التراث العربي .

115. المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى أبو حامد الغزالي تحقيق بسّام عبد الوهاب الجابي دار الجفان والجابي قبرص الطبعة الأولى 1987م 1407هـ

116. من أسرار البيان القرآني الدكتور فاضل صالح السامرائي دار الفكر الطبعة الأولى 2009م 1430هـ 115.

117. مواقف بعض الرسل في القرآن الكريم محمد علي سلامة جمعية الدعوة إلى الله مطبعة استرانر الحديثة.

118. المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف الأمير عبد القادر الجزائري حققه عبد الباقي مفتاح دار الهدى الجزائر الطبعة الأولى 1426هـ 2005م .

119. الموطّأ مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي مصر.

120. ميثاق الأمم المتحدّة وقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن فيما يخص هذا المجال.

121. نتائج مؤتمر القمة العالمي لعام 2005 (الجمعية العامة 26فيفري2009) الدورة الثالثة والستون البند 64 جدول الأعمال 116/63.

122. النداء في اللغة والقرآن أحمد محمد فارس دار الفكر اللبناني الطبعة الأولى 1409هـ 1989م.

123. النهاية في غريبي الأثر أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري تحقيق أحمد الزاوي محمود محمد الطناحي المكتبة العلمية بيروت 1399هـ 1979م

124. نيل الأوطار محمد بن علي بن محمد الشوكاني دار الجيل بيروت 1973هـ.

125. La psychologie moderne de A à Centre d'étude et de promotion de la lecture Paris 1971

126. Science et comportement humain-B.F.Skiner-2 e édition-. édition in press-2008.

فهـــــــرس الموضــوعــات:

مقدّمـــــــــة.....أ

مدخـــــــل الماهية النسبية لسلوك الإنسان.....1

7. الإنســـان.....6

8. السلـــــوك.....27

9. منطلقـــات سلوك الإنسان.....28

10. المسالمـــة.....29

11. العدوانيـــــة.....35

12. سلوك الإنسان بين المسالمة والعدوانية.....41

الفصل الأوّل تحوّلات سلوك الإنسان من الفطرة إلى العدوانية.....42

1. الفـــطـــرة.....44

2. إتبـــاع الآباء.....54

3. الـــطبع.....61

4. مـــر ض القلـــوب.....67

5. إتبـــاع الأهـــواء.....72

6. الإقبال على الحياة الدنيا.....83

7. التكذيب بقيام السّاعة وإنكار البعث والعذاب.....88

8. الإستهـــزاء.....92

9. التعجّب.....98

10. التمنـــى.....100

11. التكذيب والإتهام بالسِّحر.....103

الفصل الثاني حال الإنسان بين مسالم وعدواني في نظام الأقوام.....110

1. آدم عليه السـلام.....112
   - عدوانية الانتقام بالإغواء.....115
   - طريقة الانتقام.....117
   - مسالمة الندم وطلب المغفرة.....122

2. ابنا آدم وعدوانية القتل.....125

3. نوح عليه السلام.....129
   - مسالمته تجاه قومه.....131
   - ما هي مطالبه؟.....133
   - المعطيات الجديدة.....135
   - عدوانية قومه.....136
   - التعجّب.....136
   - الجدال والملل.....138
   - التكذيب واتهامه بالجنون.....139
   - العصيان والمكر واتهامه بالضلال.....140
   - التولّي والأجر.....141
   - العناد والاستكبار.....143
   - السخرية.....144

4. ابراهيم عليه السلام.....145
   - دافعه المسالم.....146
   - محور الرسالة.....148
   - الحجاج والجدال.....156

- العدوانية بالرجم.....158
- سلوك عبّاد الأصنام الرافض.....160
- سلوكه مع الأصنام 161
- سلوكهم بعد تحطيم أصنامهم.....162
- مكيدة القتل والحرق 164
- حالات الخوف واليأس.....166

5. لوط عليه السلام.....167
- دوره المسالم في قومه.....168
- العدوانية بالتكذيب والنفي.....171
- اللجوء إلى الله.....173

الفصل الثالث السلوك في مرحلة الأمة –بنو إسرائيل–.....175

1. يوسف عليه السلام.....177
- الحسد والغيرة.....177
- المخـــاوف الإجتماعية.....179
- الدافع الغريزي.....180

2. موسى عليه الســلام.....186
- التفـــــرقة.....190
- فقدان المكانة الإجتماعية.....195
- استرجاع المكانة.....199
- التنبؤ بالسلوك العدواني لفرعون.....203
- إلصاق التهم.....209

- الإحباط والانتقام.....211
- الصبر والاستعانة بالله.....214
- الميل إلى الملموس.....215
- ما بعد فرعون.....220
- عدم القناعة والاكتئاب.....221

3. عيسى عليه السلام.....226
   - مظاهـــر الانفـــــراج.....226
   - التعجّب والدهشة.....227
   - ولادة عيسى عليه السلام.....231
   - الحكمة.....234
   - الطعام والأكل.....236
   - عدوانية القتل والصلب.....238
   - التطبع على تأليه البشر.....239

الفصل الرابع الخطاب الشامل لكل الناس.....242

1. الخطاب إلى الناس عامة.....246
2. مسالمة الذين آمنـــوا.....249
3. عدوانية الذين كفـــروا.....265
4. عدوانية النفاق.....276
5. القول الموجّه لأهل الكتاب.....280
6. كيف نتصرف.....284

7. النفـــع والضـــرّ.....292

8. الإصـــــــرار.....295

9. بين العفو والصفح والصبر.....296

10. بين الإعراض والتولّي.....298

11. خاتمة القول والفعل.....300

الخـــــــاتمة.....303

قائمة المصادر والمراجع.....306

فهـــرس الموضوعات.....318